

رواد الفلسفة الأمريكية

تأليف
تشارلز موريس

ترجمة

دكتور إبراهيم مصطفى إبراهيم

كلية الآداب بدمنهور - جامعة الإسكندرية

قسم الفلسفة

1996

مؤسسة شباب الجامعة
٤٠ شارع الدكتور مصطفى مشرفة
ج ٤٨٣٩٤٧٢ - الإسكندرية

رواد الفلسفة الأمريكية

تأليف
تشارلز موريس

ترجمة
دكتور إبراهيم مصطفى إبراهيم

كلية الآداب بدمنهور - جامعة الإسكندرية
قسم الفلسفة

1996

مؤسسة شباب الجامعة
٤٠ من الدكتور مصطفى مشرفة
٤٨٣٩٤٧٢ - أكتوبر ١٩٩٦

العنوان الأصلي للكتاب

The Pragmatic Movement
in the American Philosophy

by

Charles Morris

1970

مقدمة المترجم

تشارلز موريس (1901) Charles Morris فيلسوف أمريكي، تشابكت في مذهبه عناصر البرجماتية والوضعية الجديدة Neo - Positivism ومن أهم مؤلفاته ما يلي :

1 - ست نظريات في العقل (1932)

Six Theories of Mind

2 - أسس نظرية العلامات (1938)

Foundations of the theory of Signs

3- دروب الحياة : مقدمة في عالم الدين (1942)

Paths of life, Preface to a world Religion

4 - الإشارات واللغة والسلوك (1946-1955)

Signs, Language, and Behavior

5 - النفس المفتوحة (1948)

The open self

6 - تنوعات القيمة الانسانية (1956)

Varieties of Human Value

7- المعنى والمغزى : دراسة في علاقات العلامات والقيم (1964)

Signification and Significance: A study of the relations of signs and values.

Festival (1966)

8 - المهرجان

وقد اشترك موريس مع تشارلز بيرس وآخرين في وضع أسس ودراسات موسعة خاصة بمبحث الإشارة «السيميوطيقا» Semiotic وتقسيمها إلى إشارات لغوية وغير لغوية تنقسم إلى علامات وهذه بدورها تنقسم إلى غيرها مما ساعد على ظهور علم السيمينطيقا (علم المعاني) Semantics .

ويقول الدكتور عادل فاخوري عن اسهامات تشارلز موريس ما يلي :

«مع ظهور كتيب تشارلز موريس Ch. W. Morris «أسس نظرية العلامات» (1938) Foundations of the theory of signs تلقت السيمياء ، دفعا جديدا نحو التوسع والترسخ . أمام تعدد المقاربات السيميائية، أراد المؤلف أن يقيم بنية نظرية بسيطة تجمع بين هذه المقاربات، وتوحد ليس بين العلوم الإنسانية فحسب ، بل بين كل العلوم. وقد اعتمد لذلك على منهج يوفق بين المذهب الذرائعي الأمريكي والتجريبية المنطقية الألمانية في كتابه «العلامات واللغة والسلوك» Signs, Language and Behavior الصادر سنة 1946 ، يحاول المؤلف تفصيل المفاهيم السابقة والتدقيق فيها، متوسلا نظريات سلوكية أكثر منهجية وتطورا، تتيح له أن يتلاقى الإشكالات الناجمة عن التفسير السلوكي الساذج. وأخيرا في كتاب «المعنى والمغزى» 1964 Signification and significance ، انطلاقا من مفهوم العلامة، يتطرق موريس إلى البحث في موضوعات مستجدة في الفلسفة وعلوم اللسان والقيم والجمال ... الخ^(١).

والكتاب الذي بين أيدينا الآن صدر عام 1970 لتشارلز موريس بعنوان :

(١) د. عادل فاخوري ، تيارات في السيمياء ، دار الطليعة ، بيروت ، نوفمبر 1990 ، ص 70 .

الحركة البرجماتية في الفلسفة الأمريكية The Pragmatic Movement in the American Philosophy عن دار نشر «جورج برازيلر» George Braziller بنيويورك ، وقد رأينا أن عنوان «رؤاد الفلسفة الأمريكية» يتلاءم أكثر مع مفاهيم الثقافة العربية التي تختلف قطعاً عن مفاهيم الثقافة الأمريكية، فضلاً عن أن موضوعات الكتاب نفسه تقف في صف هذا الاختيار، كما يتفق مع تشارلز موريس نفسه في ذلك على الرغم من أننا لم نلتق إلا عبر كتبه ومؤلفاته لقاءات مفيدة غير مباشرة ، كيف ؟ الاجابة يجدها القارئ العربي الكريم في مقدمة الكتاب التي صاغها موريس بوضوح حيث يقول في بعض منها : «يتناول هذا الكتاب الأفكار الرئيسية لأربعة فلاسفة أمريكيين هم : تشارلز ساندرز بيرس ، ووليم جيمس ، وجون ديوى ، وجورج هربرت ميد....» .

ويحتوى الكتاب على ستة فصول فضلاً عن الملاحق .

يتناول الفصل الأول موضوع الحاجة إلى الفلسفة وملامح الفلسفة الأمريكية . بينما يتناول الفصل الثاني نظرية العلامات البرجماتية بادئاً بمشكلة التعريف البرجماتية ونظرية العلامات عند بيرس والقضية البرجماتية بين بيرس وجيمس ، واتجاه جورج ميد نحو دراسة اللغة والسلوك الاجتماعي من منظور فلسفة علم النفس الاجتماعي .

أما الفصل الثالث فيركز فيه موريس على علم المناهج البرجماتي خاصة لدى بيرس وجيمس وديوى ثم تصور ميد لموضوع علم المناهج البرجماتي .

وينتقل موريس إلى الفصل الرابع فيتحدث عن علم القيم البرجماتي ومكانتها في الفلسفة الأمريكية، مع تركيزه على علم الاخلاق عند ديوى وعلاقته بالنظرية السياسية الأمريكية ، وعلاقة القيم بالدين .

وأما الفصل الخامس فيتناول فيه موريس وجهات نظر الفلاسفة البرجماتيين

الأوائل عن علم الكون ومكانة الخبرة فيه ، بالإضافة الى علاقة علم الكون بالنزعة المثالية التطورية واسهامات ميد في هذا النوع من الدراسات حيث أشار إلى النسبية الموضوعية ومكانتها في علم الكون.

وراجع موريس في الفصل السادس مكانة الفلسفة البرجماتية الحالية، ووحدة الحركة البرجماتية ومنزلتها في الولايات المتحدة والفلسفة الأوربية المعاصرة، بالإضافة إلى اعتبار البرجماتية مرآة تعكس الثقافة والقيم الأمريكية .. فالفلسفة حقاً مرآة المجتمع الذي توجد فيه، أورد فعل لأحداث تقع فيه وليست خارجة عنها ، أو مفارقة له، لذلك فتعبير أن «الفلسفة تعيش في أبراج عاجية» تعبير يجانبه الصواب تماماً لأن الفلسفة والفيلسوف نابعين من المجتمع، ويضربان بجذورهما في هذا المجتمع أو البيئة الاجتماعية التي أوجدتهما، وهذا يعيد للأذهان موضوع استيراد الأفكار الفلسفية السابقة التجهيز Pre-fabrication من مجتمعات تختلف عن المجتمعات التي تقوم باستيرادها كما نفعل نحن هنا في الشرق العربي مما يجعل التنب مجذب لا يثمر لأننا نحاول زراعته في تربة لم يخلق له، ولم يتهياً لامتناس جذورها لتضرب في اعماق الأرض، أصلها ثابت وفرعها في السماء، فتبدو هزيلة عقيمة، لا تسمن ولا تغنى من جوع، ويبدو معتقياً كأنهم أعجاز نخل خاوية، يحاولون أن يتطاولوا إلى عنان السماء، فوق مواطنهم وفوق أفكار وعادات وأديان مجتمعاتهم ، فلا يجدون غير الهباء المنثور، وأحلام عابثة ماجنة، وتتحول أفكارهم بمرور الزمن إلى نباتات مسمومة تضر ولا تنفع، تعود عليهم بالخراب، ويوم يودعوننا نودعهم غير مأسوف عليهم، تلاحقهم اللعنات، يرحلون بأعمالهم الطالحة ومحسوبة عليهم .

وينتهى بنا كتاب موريس إلى ملاحق تنقسم إلى جزئين يتناول الجزء الاول مباحث ثلاثة هي : جون ديوى معلماً، وعلاقة البرجماتية بالعلوم الانسانية،

ومدرسة شيكاغو الفلسفية. أما الجزء الثاني فيعرض لبعض أعضاء مدرسة شيكاغو الفلسفية المؤسسين وهم أربعة : أديسون مور ، وجيمس توفتس ، وإدوارد آمز، وجورج ميد .

وتتمثل أهمية هذا الكتاب في أنه يقدم لنا شروحا وتفسيرات عميقة للفلسفة الأمريكية، يزيد من أهميتها وعمقها أن من يقدمها فيلسوف أمريكي، وأستاذ للفلسفة في الجامعات الأمريكية ، تتلمذ على أيدي كبار مؤسسي الفلسفة الأمريكية بحق، فقد كان تلميذاً مباشراً لبيرس وجيمس وديوى وميد ، فضلا عن صداقته وزمالاته لهم ولأعضاء مدرسة شيكاغو الفلسفية مما يثري العمل الذي قام به موريس ، كما أنه اعتمد اعتماداً مباشراً أيضا على أعمالهم ولم يعتمد كثيراً على كتب النقاد الآخرين مما يجعله ينقل وجهات نظرهم لا وجهة نظره هو ذاته، الأمر الذي يختلط معه وجهات النظر، وتضيق فيها معالم أصالة المؤلف وجهده الذي يشكر عليه . بالإضافة إلى إسهاماته الرائعة في مجال فلسفة اللغة والدراسات المنطقية اللغوية التي أرسى دعائمها بيرس وتقدم بها موريس خطوات ذات قيمة، أتمنى أن أعرضها مفصلة على القارئ العربي في وقت قريب.

وأرجو أن ينال هذا الكتاب عناية القارئ وأن يساعده على فهم وتعمق الفلسفة البرجماتية وأبعادها وموضوعاتها اللصيقة بها، وأن يكون كذلك أداة مساعدة قد يد العون إلى الباحثين حتى يستفيدوا منه ويتعمقوا أفكاره ويحاولون تقديمها إلى القارئ العربي بوعي وتفتح ، حتى يأخذ خير ما فيها، وينبذ أسوأ ما فيها ، مما يمكنه من مشاركة العالم في مد شريان الحضارة الإنسانية الذي لا ينضب له معين بعصارة عربية خالصة، طالما مدت هذا الشريان في الماضي بأسباب التقدم والرقى ولولا ما قدمه العرب المسلمون من إسهامات

عظيمة مبتكرة ما تقدمت الحضارة الغربية كل هذا التقدم ، انها بضاعتنا ترد
الينا ، وبالبت الفضل يعود إلى أهله حتى يكون العلماء والأدباء والفلاسفة بحق
هم حملة مشاعل التنوير القائمة على الحق والعدل والصدق والأمانة العلمية
والأخلاقية.

وكفانا الله العظيم رب العرش العظيم شر سموم العلمانية وأتباعها
المغرضين ، وشر أشواك مدعى العلم والثقافة الأكلون على كل الموائد ، وهم كثير ،
يتزاحمون في الساحة كأنهم جراد منتشر ، ما يلبث غير ساعة حتى يزول
ويندثر ، ويرحل بشره وأشراره ، ولا يصح بعد ذلك إلا الصحيح ، أما الزيد فيذهب
هباء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض حلالاً طيباً ، يؤت أكله كل حين
بإذن الله .

واشكر الله على ما أعطى وما منع شكراً يليق بجلال وجهه وعظيم
سلطانه... وأحمده حمداً طيباً مباركاً دائماً بعدد خلق ، ورضى نفسه ، وزنة
عرشه ، ومداد كلماته ، وواسع رحمته .. انه على كل شيء قدير واليه المصير .
والله الموفق وهو وراء القصد ينير لنا السبيل .

الاسكندرية : 27 جمادى الآخر 1416 هـ

الموافق : 20 نوفمبر 1995 م

دكتور / ابراهيم مصطفى ابراهيم

.. اللهم

إلى أستاذي الفاضل ... وأخي الكريم .. الذي جمعني به الحب في الله..
والعمل على ارضاء الله .. الذي أعطى ولم ينتظر الشكر .. فأوفى ... ومنح
دون أن ينتظر الجزاء ... فزاد

جزاه الله تعالى عنى خير الجزاء ... وجعله كما كان دائماً قدوة حب ووفاء
وعلم وخلق .. انه نعم العبد الصالح .. رضى الله عنه وأرضاه .. وشمله وأسرته
الكرامة بعنايته ورحمته ومفخرته ورضاه ..

إلى الأخ الحبيب :

السيد الاستاذ الدكتور محمد محمد قاسم

لهم وفاء ووو وتقدير

مقدمة المؤلف

يتناول هذا الكتاب الأفكار الرئيسية لأربعة فلاسفة أمريكيين هم : تشارلز ساندروز بيرس ، ووليم جيمس ، وجون ديوى ، وجورج هيرت ميد ، وقد وضع الكتاب على اساس الاعتماد المباشر على كتاباتهم، التى أخذت منها مقتبسات شاملة، تركزت في هذا الكتاب على أفكارهم وعلاقاتها المتداخلة لهذا السبب فالكتاب لا يتناول بداية تاريخ الفلسفة البرجماتية الأمريكية، وليس تفسيراً لعلاقة البرجماتية بالثقافة الأمريكية، كما أنه ليس خلاصة واقية لبحث يتناول هذه الفلسفة، وقد تدخل كل هذه الموضوعات في المناقشة، ولكن بطريقة عرضية.

إذن فإنتى أكرر أن لب هذه الدراسة يركز على أفكار بيرس، وجيمس ، وميد، وديوى . ما هى الأفكار الأساسية لهؤلاء الرجال؟ وما هي أوجه الشبه فيما بينهم ؟ وما هو المصدر الذي يكشف عن التنظيم الذي خلقه؟ إن هذا الكتاب محاولة جادة لتناول مثل هذه الموضوعات تناولا نقديا، ولهذا يحتاج القارئ، للتمعن في قراءة الموضوع نفسه . ونحب أن ينظر لهذا الكتاب كعمل يتم في إطار الفلسفة البرجماتية الأمريكية، وليس مجرد كتاباً عنها .

وقد تعاون معى في هذا البحث مساعدين في بداية حياتهم (العملية) ، ساعدوني بطريقة أو بأخرى لكى أجمع محتويات هذا الكتاب وهم : الدكتور فرد برجر Fred R. Berger ، والدكتور دنيس أودنوفان Denis O'Donovan ، ودانيال هاملتون Danial Hamilton ، وواين شيربرون B. Wayne Shirbroun

، وفرنك سياديلى Frank Sciadini ، وجان سوجالسكى Jan Sugalski ،
وكريستوفر ستورر Christopher Storer ، وايفان جوب Evan Jobe ، والدكتور
فيليس ميك Phyllis Meek ، وتايسون ريتش Tyson Ritch ، وديان
هاون Dian Haun .

واننى مدين لهم جميعا بالعرقان الجميل على ما قاموا به من اسهامات.
كما ساعدنى سيدنى بوديت Sydney Beaudet فى الطباعة النهائية ، وجهاز
ديان هاون فهرست الكتاب، فضلا عن ديسى أيضا لزعيمى البروفيسور جورج
بارلت George R. Barlett لتعليقاته النقدية على مسوداتى المبكرة .

تشارلز موريس

الفصل الاول

الحاجة الى الفلسفة البرجماتية الامريكية

الفصل الاول

الحاجة إلى الفلسفة البرجماتية الامريكية

٨ - الحاجة الى الفلسفة :

P.3 كتب «ولاس ستيفنس» Wallace Stevens : «إن القصيدة هي صرخة الداعي (الحاجة) إلى كتابتها» . ومن العدل أن نعبر عن موقف البرجماتيين بنفس الطريقة : «فالفلسفة هي صوت الداعي إليها أو الحاجة إليها» . أنها بحث أشخاص معينين موجه نحو حل مشكلات معينة لديهم تحت ظروف اجتماعية وشخصية بذاتها. ولا أعتقد أن جيمس سيختلف معي في شأن هذه العبارة ، بل إن جون ديوى قال بأكثر منها (ولكن دون التأكيد على العامل الشخصي بعينه) :

«إن عمل الفلسفة قديماً وحديثاً هو تناول تنظيم تلك المجموعة من
«التقاليد التي تشكل العقل الفعلي للإنسان نحو الاتجاهات العلمية»
«والتطلعات السياسية التي تعد غريبة ومتعارضة مع تلك»
«التي تقول بها السلطات . والفلاسفة جزء من حركة التاريخ»
«ويشتركون في صنع مستقبله بمعنى ما ، ولكنهم بالتأكيد يعبرون»
«عن ماضيه» (1)

(1) جون ديوى ، « الفلسفة والحضارة » ، ص ص 3 - 4 .

P. 4 وأعترف أن اعتبار الفلسفة صوت الداعى (الحاجة) إليها يعتبر جزءاً من القصة فقط ، فهناك أشخاص مختلفون في أوقات مختلفة لهم مشكلات متشابهة الى حد ما ويسبب هذا تستطيع الفلسفة أن تثبت أنها وثيقة الصلة بموضوعها بصرف النظر عن الداعى إليها تماماً مثل أية قصيدة أو نتيجة لتجربة علمية. وأبعد من ذلك ، فهناك تساؤلات هامة يمكن أن تثار حول الفلسفة ولا تتضمن أية اشارة الى اعتبارات اجتماعية أو شخصية أدت الى نشأتها، ولكن اذا منحناها هذه الصفات فإنها تظل حقيقة أن احد إيضاحات الفلسفة هو أن نسأل ما هي المشكلات التى تحاول حلها ولأى من الناس وتحت أى اعتبارات .

وهناك معنى ثانٍ ووثيق الصلة بالموضوع - وأعتقد أنه شائع بالنسبة لجميع البرجماتيين الأمريكين - وهو وجهة النظر التى ترى أن كل مشكلة (سواء أكانت فلسفية أم غير فلسفية) هي مشكلة محددة وتحدث في وقت لا تشير الملامح الحالية إلى وجودها. فليس كل شيء يمكن أن يكون مشكلة للوهلة الأولى؛ فالمشكلات يمكن حلها فقط داخل إطار ما تحتويه من المعانى والمعتقدات المقبولة دون تساؤل، فما نعدّه إشكالية في موقف ، قد لا يصبح مشكل في موقف آخر، ولكن هذا النسيج الجديد سيحتوى بدوره على جزءٍ من الإشكالية (السابقة) .

واعتقد ان كلا الموقفين مطلوب وهذا ما نجده في النظرية البرجماتية للبحث، وهو موضوع آخر سيتم معالجته بالتفصيل. وقد ذكرتهما هنا فقط لارتباطهما بفهم الفلسفة البرجماتية ذاتها. واذا كان البرجماتيون قد طبقوا هذه الموضوعات في تحليل فلسفاتهم فإنه من العدل والمناسب تطبيقه على فلسفتهم ذاتها.

P.5 2 - أربعة ملامح لإشكالية البرجماتيين :

يعتقد أن هناك أربعة ملامح لإشكالية البرجماتيين في تاريخ الفلسفة الذي تعد البرجماتية إحدى فلسفاته ، وأن قبول البرجماتيين لها يساعد على تفسير الوحدة في الحركة البرجماتية، وفي نفس الوقت تتجلى بعض هذه الملامح لدى بعض البرجماتيين دون غيرهم، وهذه الحقيقة (تتعلق بمشكلات خاصة لدى البرجماتيين كأفراد) تساعد على حصر مثل هذه الفروق كما هي واقعة في الحركة. وبهذه الطريقة فإن كلا من الوحدة والتنوع داخل إطار الحركة البرجماتية الأمريكية يمكن أن يجعلها مفهومة من الناحية التاريخية، فهي كالأمة الأمريكية ترفع شعار : الوحدة في الكثرة e pluribus unum وهذه الملامح الأربعة كما تبدو في تطور الفلسفة البرجماتية هي كالآتي :

أ - المكانة التي تمتع بها العلم والمنهج العلمي في منتصف القرن التاسع عشر

ب - قوة تطابق النزعة التجريبية في الفلسفة المعاصرة .

ج - قبول نظرية التطور البيولوجي .

د - قبول مثل الديمقراطية الأمريكية .

قبل البرجماتيون هذه العناصر الأربعة الأساسية (المنهج العلمي - النزعة التجريبية الفلسفية - البيولوجيا التطورية والمثال الديمقراطي) التي أصبحت تشكل نسيج «الإشكالية» التي أبرزتها المشكلات الفلسفية للبرجماتية الأمريكية وشكلت إطار العمل الذي تناولته مصطلحاتهم والحلول المقترحة لها والتي على أساسها يتم الحكم عليها. لقد تكون هذا النسيج من تلك الملامح P.6 الأربعة معاً، يمكن ان تميز اتجاه تطورها الفلسفي . وقد أثرت هذه العناصر الأربعة على معظم البرجماتيين ولكن بدرجات متفاوتة ، فكان تأثير المنهج العلمي أكثر وضوحاً عند تشارلز بيرس ، بينما كان تأثير النزعة التجريبية الفلسفية أقوى لدى وليم جيمس ، وكانت المواجهة حادة مع البيولوجيا التطورية

لدى جورج ميد، وترك مثال الديمقراطية الأمريكية بأوجهه المختلفة سيطرته على جون ديوى .

وتركت الانتصارات التى حققها المنهج العلمى فى القرن التاسع عشر بدرجة كبيرة تأثيرها، كما قويت النظرية النيوتونية فى الطبيعة بما حققه علمى الجيولوجيا والفلك من إنجازات ، مما أعطى للمنهج العلمى مكانة عظيمة لما أحرزه من نتائج. وكان تشارلز بيرس (1839- 1914) مؤسس البرجماتية ، قد تفرس كيميائى قضى معظم حياته كعالم مجتهد، ومحترم، وناجح⁽²⁾ . وبما لا يبعث على الدهشة أن بيرس فى بحثه « تثبیت الاعتقاد » The fixation of Belief بعد أن طوّف بمعظم المناهج التى تكون اعتقادات الإنسان، اعتبر أن المنهج العلمى هو المنهج الأسمى، وليس بمستغرب أنه رغب فى تطبيق هذا المنهج على الفلسفة ذاتها. وكما سنرى فإن الصيغة التى قال بها وهى « القضية البرجماتية » Pragmatic maxim هى محاولة من جانبهِ لإرساء أساس « الفلسفة العقلية »^(*) scientific Philosophy ، على أساس القضية التى

(2) كتب بيرس عن العلم فى عصره ما يلى :

صدر « أصل الأنواع » فى نهاية 1859، وقد كانت السنوات السابقة عليه منذ عام 1846 من أكثر السنوات خصوبة، وقد امتدت حتى شملت تاريخ صدور هذا الكتاب الكبير ، فإننا نعتقد أن أكثر الأزمنة خصوبة تشمل تاريخ العلم كله منذ بداياته الأولى وحتى العصر الحالى . (المجموعة الكاملة ، المجلد السادس ، الفقرة 97) .

واستمر بيرس يعدد الانجازات العلمية لتلك الفترة الخصبة .

(*) مصطلح يراد به رد الدراسات الفلسفية للعلوم الى تحليل لغاتها بوسائل المنطق الرياضى ويرد أصحابه المفاهيم والاحكام العلمية إلى خطرات المنهج العلمى ، إذن فهو مصطلح يختص باستخدام المنهج العلمى ومحاولة تطبيقه على الدراسات الفلسفية . (المترجم) .

طورها ولیم جیمس وأطلق عليها تعبير «البرجماتية» . وكان التقدير الكبير الذي ناله المنهج العلمى جزءاً من نسيج الاشكالية الفلسفية لدى معظم البرجماتيين الأمريكيين .

وبينما كان العلم يتمتع بمكانة سامية في ذلك الوقت ، كان الاعتقاد القديم بأن الفلسفة لها مكانتها العليا (بل ربما مكانة أعلى) قد بدأ يضمحل . وأصبح P. 7 الإنسان «بالعقل الخالص» وحده قادراً على وصف الطبيعة المطلقة للكون والتي وضعت في صورة تساؤلات في أعمال كل من ديفيد هيوم وإيمانويل كنت . وكان من نتيجة تحليلاتهم أن قويت مكانة النزعة الامبريقية (التجريبية) في الفلسفة، وأنه يجب زعزعة كل النظريات التي يُستدل بها على العالم واخضاعها «للخبرة» التي يمكن «ملاحظتها» فالمنهج العلمى نفسه منهجاً تجريبياً بمعنى أنه في الوقت الذي يسمح فيه بقدر كبير من الشجاعة في تكوين النظريات، فإن هذه النظريات يجب التحقق منها عن طريق المعطيات التي تم اختبارها، وبهذا المعنى فإن كل البرجماتيين كانوا تجريبيين. ومع ذلك فقد كان ولیم جیمس (1842- 1910) هو الذي أكد بشدة على مقولة الخبرة ، مقترحاً منهج «التجريبية الأسيلة» The Radical Empiricism ، وتصور الواقع على أساس أنه «عالم الخبرة الخالصة». وهذا التأكيد يتفق تماماً مع الحقيقة المعروفة بأن جیمس تدرب فترة كبيولوجي ثم أصبح سيكولوجياً، وتطورت المكونات النظرية بدرجة أقل مما تطورت بها العلوم الفيزيقية، كما يتفق هذا مع تعاطفه القوى مع رواد الفلسفة السابقين عليه وهما التجريبيان الإنجليزيان ديفيد هيوم وجون

ستيوارت مل (*) ، ومع ذلك فقد كانت تجريبية جيمس تزداد توجهها نحو البيولوجيا (Biology) أكثر من توجهه المتزايد نحو نصوص الفلسفة الانجليزية التقليدية ، وبدأ يشعر بتأثير دارون على الفلسفة .

وكان قبول البيولوجيا التطورية هو المؤثر الثالث بين المؤثرات التي واكبت ظهور الفلسفة البرجماتية الأمريكية، فقد نيل كل البرجماتيين الكبار النظرية القائلة بأن الإنسان انحدر - كنوع - من الكائنات الحية (الأقل) خلال عملية تطورية طويلة، وكانت البرجماتية - بلا شك - فلسفة ما بعد الدارونية، وكانت النزعة التجريبية التي اتسمت بها هذه الفلسفة نزعة تجريبية بيولوجية، حتى p.8 «الخبرة» ذاتها جاءت متطورة على اعتبار أنها متضمنة في عالم الكائن الحي، ومع ذلك نشأ عن قبول البيولوجيا التطورية، مشكلة فلسفية هامة وهي : كيف نفسر العقل الانساني والمعرفة الإنسانية والذات الإنسانية والأخلاق الإنسانية في ضوء الموقف التطوري ؟ وكان هذا التساؤل ذو أهمية أساسية بالنسبة للبرجماتيين، وصدرت معظم المعالجات التي تناولت هذه المسائل عن هيربرت ميد (1863 - 1931) ، مما شكّل أحد الإنجازات الهامة للحركة البرجماتية .

وتطلبت منهم صيغ هذه النظريات حول العقل الإنساني والذات الإنسانية تقديم العامل الرابع المكون للحركة البرجماتية : الديمقراطية الأمريكية. وباعتبارهم أعضاء في ثقافة وليدة تحاول أن تبني نفسها في بيئة سخية ومتمردة، فقد شعر هؤلاء الرواد الأمريكيون أنهم الأشخاص الذين يقع عليهم

(*) جون ستيوارت مل (1806 - 1873) John Stewart Mill فيلسوف ومنطقي واقتصادي انجليزي. من المستعدين في المذهب الحسي ، ومن مثلى الوضعية ، أهم مؤلفاته : «المنطق القياسي والاستقرائي» (1843) و «مبادئ الاقتصاد السياسي» (1848) و «أوجست كورت والفلسفة الواقعية» (1865) وغيرها ... (المترجم) .

عبء الفكر والعمل على مسئولياتهم ، وأنه يجب عليهم أن يقيموا لأنفسهم مجتمعاً جديداً ومقبولاً ، وكانوا هم ، أو أسلافهم يعيشون في مجتمع أوربي ذو تقاليد يهودية/ نصرانية Judeo-christian وهذا المجتمع يركز بصفة أساسية على الأشخاص ، واستمر تفكيرهم حول المجتمع الجديد يردد نفس النغمة الأخلاقية والنظرية المثالية .

وكنتبجة لهذا الفكر ، فإذا كان التطور البيولوجي قد قبلوه، فإن هؤلاء (المفكرون) الأمريكيون يفضلون التفسير التطوري عن الإنسان الذي يبيح متسقاً مع الحرية الإنسانية والمسئولية الأخلاقية ، وكان تناول ميد للعقل والذات الإنسانية من هذا النوع ، وهو يتفق بصورة بارزة مع التفسير الأخلاقي (كتفسير مختلف عن التفسير السياسي والاقتصادي الخالصين) الذي أعطاه جون ديوى (1859 - 1952) للديموقراطية الأمريكية . وكتب ميد^(*) : «إن جون ديوى هو فيلسوف أمريكا بالمعنى العميق لهذه الكلمة»⁽³⁾ ، ويمكن تطبيق هذا الوصف على ديوى إذا أخذنا في اعتبارنا النظرة الأخلاقية أو المثالية لتفسير ديوى p.9 للديموقراطية الأمريكية. ولا معنى للبرجماتية إذا حاولت التعبير أو تكييف كل وجهات النظر التي وردت في تاريخ الولايات المتحدة بعيداً عن تفسير ديوى .

هذه العناصر الأربعة على تعددها ، إذا أخذناها معاً ، فإنها تعطي البرجماتية الأمريكية هذه المكانة والروح (الأسلوب) المتميزة، وهي ما يميزها عن الفلسفات

(*) جورج هيرت ميد (1863 - 1931) فيلسوف وعالم نفس اجتماعي أمريكي معاصر، من أعضاء جماعة مدرسة شيكاغو المؤثرين ، ومن أهم أعماله «في علم النفس الاجتماعي» و «مشكلة الوعي» و «فلسفة الفعل» و «فلسفة الحاضر» .

(3) جورج هيرت ميد ، «فلسفات روس ، وجيمس ، وديوى في إطارها الأمريكي» ، ص 231.

الأخرى التي ظهرت فيما بعد الداروينية⁽⁴⁾.

3 - البرجماتية ، والفلسفة العملية ، والفعل

لن نهتم هنا بتقديم تعريف لمصطلح «البرجماتية» ولكننا سنهتم فقط ببعض الاعتبارات الأولية . كتب بيرس أنه استخدم مصطلح البرجماتية بتأثير كتاب كنت «نقد العقل الخالص» مجموعة الأبحاث ، المجلد الخامس ، الفقرة (3) ، وقد استخدمه كنت لكي يعبر به علاقة تحديد بعض الأهداف الإنسانية بعضها ببعض الآخر .

واستمر بيرس يقول :

«والآن فإن العنصر اللافت للنظر أكثر بالنسبة للنظرية الجديدة هو تعريفها»
«للعلاقة المتصلة بين المعرفة العقلية والهدف العقلي ، وبهذا الاعتبار»
«فإنه يحدد أفضلية اسم البرجماتية» .

(مجموعة الأبحاث ، المجلد الخامس ، الفقرة 412) .

وقد فضل بيرس مصطلح «البرجماتية» على مصطلح «المذهب العملي»

(4) نلاحظ أن هذه العناصر الأربعة ، غير المشكوك فيها ، لم تطور فقط الإطار الذي حوى الفلسفة البرجماتية الأمريكية، ولكن يمكن أن يقال أن تفاعلها معاً ساعد على إيجاد بعض التوجهات التي حسبت لها ، لذلك نجد في الفلسفة البرجماتية بعض النصوص عن الفلسفة التجريبية (مثل الفينومينولوجيا) جنباً إلى جنب مع نصوص أخرى عن النزعة الطبيعية Naturalism وكليهما متضمن في قبولهم للبيولوجيا التطورية (علم الأحياء التطوري) . وقد وجد أن بعض تفسيرات دارون تتحداهم أن يقبلوا ما أسموه «المثل الديموقراطية» Democratic ideals ، إلا أنها تصدق أيضاً عندما تنظر في تفسيرات العلم التي تؤكد بقوة على مبدأ الحتمية -Determi- nism . ولكن يوجد - بوجه عام - بعض التوجهات بين هذه العناصر الأربعة، ويعود السبب في ذلك الترجيح بين أهمية العلم والتأكيد على الأشخاص ذاتهم. ومن هنا فالفلسفة التي تقبل جميع الاتجاهات (العناصر) الأربعة سوف تفسر كل منها بحيث يفيء التفسير متسجماً فيما بينها ، والطريقة التي تمت بها هذه التفسيرات تمثل جزءاً هاماً من قصة الفلسفة البرجماتية .

Practicalism منذ أن أدرك أن (مجال البحث) «العملي» Practical هو «مجال للفكر حيث لا يوجد عقل من النوع التجريبي (مثل عقل بيرس) يمكنه أن p.10 يتأكد من صلابة الأرض تحت قدميه (المجلد الخامس الفقرة 412) ، لذلك فإن البرجماتية بالنسبة لبيرس لا تتعلق بما هو «عملي» ولا مع كل ما يتصل بالعمل أو الممارسة Practice ، ولكنه يتصل بالطريقة التي للمعرفة (المعرفة العقلية) علاقة بالعمل (الفعل) أو السلوك الانساني (الغرض العقلي) Rational purpose . هذا التمييز بين البرجماتية والنزعة العملية الذي أصر عليه بيرس (متبعاً في ذلك خطى كنت) هو بالطبع ليس من النوع الذي نراه في الكلام العام، كما نشاهد ذلك لدى الاتجاه الشعبي (وعلى وجه الخصوص ما نراه اليوم في (الكتابات السياسية) الذي يخلط بين البرجماتية وبين النزعة العملية . ومن المثير أن نعرف أن مصطلح «البرجماتية» ، يستخدمه البرجماتيون بدرجة أقل كثيراً في كتاباتهم ، حتى وليم جيمس اعتقد أن هذا المصطلح سيء الحظ فكتب يقول :

«على أن أعترف أن مصطلح «البرجماتية» بكل ما يقترحه من أفعال»
«كان اختياراً سيئاً ، وقد تناوله النقاد كما لو كان استخدامه محصوراً»
«بين المهندسين والأطباء ورجال المال ، ورجال الأعمال بصفة عامة»
«هم الذين يحتاجون الى بعض أنواع الصيغ الجاهزة والأولية ، ولكنهم»
«لا يملكون الوقت لدراسة الفلسفة الأصيلة. وعادة ما يوصف مصطلح»
«البرجماتية بأنه حركة أمريكية متميزة ، نوع من المشروع العقلي»
«(الفكري) الناقص ، فهو يناسب بدرجة ممتازة رجل الشارع، الذي يكره»
«- بطبيعة الحال - النظرية ويريد العائد الفوري مباشرة» . (5)

(5) وليم جيمس «معنى الصدق» ص ص 176 - 177.

إن العمل الإنساني لدى البرجمانيين هو بالتأكيد موضوع اهتمام رئيسي ورغم ذلك فإن هذا الاهتمام لا يتركز على «حركة» أو «نشاط» على سبيل المثال، كما أنه لا يتعلق بأية تأثيرات للأفكار على الحياة الإنسانية، فضلا عن عدم تعلقه بأية نظرية كاملة عن الطبيعة الإنسانية، إنه يتركز بصفة مبدئية (ولكنه ليس شاملا) على جانب واحد من السلوك الانساني . العمل الذكي، العمل الهادف أو السلوك الذي يبحث عن هدف ما يتأثر بالفكر. وغالبا ما كان بيرس يسمى هذه الفكرة «التصرف الذي يتم التحكم فيه بطريقة ذاتية» Self-controlled conduct ، أو السلوك (التصرف) (*) المحكوم بتداوله

(*) يأتي السلوك بمعنى Behavior بمعنى معان :

- 1- فهو طريقة التصرف أو العمل (كيف يسلك) (كأن نقول ان سلوكه كان مستهجنًا .
 - 2- التصرف أو السلوك Manner الذي يسلكه الشيء تحت ظروف معينة، مثل تصرف الفحم اذا وقع عليه ضغط .
 - 3- وفي علم النفس الأفعال أو الاستجابات التي تصدر عن الكائن الحي .
 - 4- ويأتى بمعنى الطريقة التي يعبر بها الانسان والحيوان عن شخصياتهم أو نشأتهم ، فالإنسان هو الذي يعتذر عن سلوكه السيء .
 - 5- وهو التصرف المتأثر ينظم معينة او طبقاً لواجبات او التزامات ما ، مثل تصرف الجندي في موقف بعينه.
 - 6- وعلم السلوك Behaviorism هو نسق علم النفس الذي يركز على السلوك الخارجي الملاحظ أكثر من تركيزه على النشاط الذهني أو العقلي ، كمصدر صالح للمعلومات العلمية .
- (Macmillan Dictionary, New York, P.88)

كما يأتي السلوك بمعنى التصرف Conduct وهو :

- 1- طريقة التصرف أو العمل ، السلوك الشخصي مثل أن نقول بأن سلوك التلميذ في الحفلة المدرسية كان راتعا .
 - 2- تنظيم أو ادارة خاصة في مجال الأعمال .
 - 3- عملية القيادة او الارشاد .
- (المصدر السابق ص 209 - المترجم) .

تداولاً مناسباً Controlled by adequate deliberation (المجلد الثامن الفقرة 322) . وكتب بيرس ان نظريته (التي أسماها في نهاية الأمر باسم البرجماتيقية Pragmaticism ، على اساس دراسة مؤداها أن خبرة ظواهر ضبط النفس Self-Control المعروفة لدى جميع البالغين رجالاً ونساءً ، والتي تبدو واضحة لفترة ما ، هي - على الأقل - موضوعة على أساس دقيق، لأنها بالنسبة لتصورات السلوك الحر تحدد الخلاصة الذهنية (العقلية) للرموز Symbols ويعنى تحرر التصرف (او السلوك Conduct) أن يتم التحكم في التصرف عن طريق ضبط النفس . (المجلد الخامس الفقرة 442) (6).

وهكذا فإن الإنسان المفكر ، الإنسان الذي يتصرف بذكاء ، هو محور اهتمام البرجماتييين ، وهذا التأكيد يتسق بوضوح مع التطور التاريخي للبرجماتية، وقد رَحَّبَ المنهج العلمى بمثل هذا النشاط ، لذلك نال النشاط الذكى الاهتمام عن طريق جمع المعلومات بالملاحظة ، كما ان التوجه التطورى يفضل النظر الى الذكاء في علاقته بمشكلات الفعل (العمل) في البيئة ، وتعاطفت أمريكا التي تتطور بسرعة مع النظرية التي نظرت الى الانسان الذي يوجه مستقبله باستخدام الذكاء .

وكان إلقاء الضوء على هذا الإهتمام الرئيسي حول سلوك الانسان الذكى هو الغرض الذى كشف عن صفات أخرى كثيرة للحركة البرجماتية ، فقد جعلت الأمر

(6) لمعرفة وجهة نظر بيرس في موضوع «ضبط النفس» Self-Control انظر :

المجلد الخامس الفقرتان 533-534 وأيضا المجلد الثامن الفقرة 320 . فقد مَيَّزَ فيها بين عدد من مراحل ضبط النفس ، فالإنسان لديه خمس أو ست مراحل على الأقل بينما البهائم لديها عدداً أقل من المراحل . وقد ناقش لارى هولمز Larry Holmes هذه الفكرة بالتفصيل في مقال له بعنوان «بيرس وضبط النفس» Peirce on self-control .

مفهوماً بالنسبة للسبب الذي من أجله أكدت نظرية العلامات على نوع العلامات التي تحدث في البحث الذهني . وساعدت على تفسير السبب الذي من أجله لا يجد المرء منا اهتماماً واضحاً بالعوامل (العناصر) غير العقلية وحتى بالعناصر المضادة للعقل في السلوك الإنساني ، والتي امتدت بمثل هذه العوائق الاجتماعية والشخصية الى السلوك المتسم بالعقل . بل إنها أوضحت بعض تقديرات البرجماتيين لتزوعها نحو رصد جائزة كبرى لكل شخص نموذجي يعد رائداً Pioneer أو بروميثيوس Promethean مفضلاً في الثقافة (الحضارة) الأمريكية الناهضة مما قد يؤدي الى إهمال وعدم تقدير نماذج الأشخاص الأخرى وتوجهاتها التقويمية .

p.12 ويرغم ذلك فلا توجد فلسفة يمكنها ان تؤدي كل شيء ، كما اننا لا نستطيع ان نتوقع نظرية كاملة عن الطبيعة البشرية من الفلسفة وحدها . فالسلوك الموجه نحو غرض ما اذا لم يكن هو السلوك الانساني الكلي ، فإنه على الأقل جزء هام ومتميز منه ، والفلسفة البرجماتية فلسفة فريدة بين الفلسفات الحديثة التي جعلت مثل هذا السلوك محور تحليلها وبنائها .

4 - المعنى الذي تعد به البرجماتية فلسفة :

الإنسان كفاعل المتسم بالذكاء هو في مقدمة اهتمام البرجماتيين، ولكن هذا الفاعل كإنسان - وكجزء من نشاطه - أصبح محتاجاً في بعض الأوقات الى أن يفهم نفسه فهماً شاملاً، ويفهم العالم الذي يعمل فيه وكان عمل البرجماتيين والفلاسفة محاولة لتحقيق هذا الفهم .

ويتضمن قولنا هذا - على الأقل من أجل بيان الأهداف - اختيار تصور خاص للفلسفة، واحتياجنا لهذا التصور ، حتى لو كانت الفلسفة تعبير عن هذه الحاجة

لا يختلف في حد ذاته عن غيرها من الاحتياجات .

وبعد التساؤلات التي وضعها كل من هيوم وكنت حول ما إذا كانت الفلسفة توجّه المنهج «الميتافيزيقي» الذي نعرف به «الواقع» فإن طبيعة الفلسفة وهدفها أصبحت موضوع نزاع دائم. ولا يوجد اليوم إجابة شاملة مقبولة عن هذا السؤال، فبعض الأشخاص قبلوا وجهة النظر (النظرية) القديمة، وبعضهم حاول أن يعادل (يطابق) بين الفلسفة والمنطق ، واعتبر بعضهم الفلسفة كتحليل للعلم،^{p.13} بينما اعتقد البعض الآخر أن الفلسفة بحث فلسفي عام جداً ، وحدد البعض مهمة الفلسفة في الوصف العام للظواهر ، ورأى بعضهم الفلسفة هي المفتاح لتحديد مدلولات اللغة اليومية عن طريق تحليل المعنى، ورأى البعض الآخر أن مصطلح «الفلسفة» لم يعد له معنى يمكن الدفاع عنه.

واختلف البرجماتيون حتى فيما بينهم في تحديد طبيعة الفلسفة ومجال عملها ، ولكننا إذا نظرنا لإتجاههم الفكري ككل نجد أنهم كتبوا في المنطق، وطبيعة المعرفة، وتفسير العلم، والفن ، والأخلاق ، والدين ، وطبيعة الكون، لهذا فإنه من أهداف هذه الدراسة، أن تقرّب بين هذه المجالات الواسعة، ومن هنا يجب علينا أن نستخدم مفهوماً واسعاً للفلسفة إذا أردنا أن نعتبر الحركة البرجماتية «فلسفة» .

وسوف نتبع تقليداً قديماً قدم الفلسفة الرواقية Stoics ذاتها يسرى أن الفلسفة المتطورة تطوراً كاملاً تحتوى على العديد من مناهج البحث (علم المناهج يشتمل على نظرية في العلامات) ، ونظرية في طبيعة القيمة، مثل القيم الجمالية والأخلاقية (مبحث القيم axiology) ، والانسان والكون Cosmology) .

وطبقاً لهذا التصور عن الفلسفة ، فإن الفصول القادمة سيكون ترتيبها

كالتالى (الفصلين الاولين عن موضوع «مناهج البحث» Methods of Inquiry ويقع في جزئين) : السيميائية البرجماتية Pragmatic semiotic ، وعلم المناهج البرجماتي Pragmatic Methodology ، وفصل عن علم القسيم البرجماتي Pragmatic Axiology ، وفصل عن الكوزمولوجيا (علم الكون) البرجماتية Pragmatic cosmology . أما الفصل الأخير فسيحتوى على بعض التعميمات عن الحركة البرجماتية وعلاقتها بالثقافة الامريكية American culture . وأضفت للعمل ذاته ملحقا مكونا من ثلاثة اجزاء هي : «جون ديوى معلما» و«علاقة البرجماتية بالعلوم السلوكية» و«مدرسة شيكاغو الفلسفية» .

الفصل الثاني نظرية العلامات البرجماتية

1 - مشكلة تعريف البرجماتية

لم تقدم البرجماتية نفسها في الأصل على أنها فلسفة شاملة، ولكنها - ببساطة - قدمت نفسها باعتبارها منهج في كيفية جعل أفكارنا واضحة». وقد حاولت الفلسفات السابقة الاجابة على هذا السؤال ، والذي يعد هو نفسه جزءاً من المشكلة كطبيعة «المعنى» إن البحث في طبيعة المعنى مشكلة قديمة ودائمة في الفلسفات التقليدية شرقاً وغرباً، ولكن التناول البرجماتي لها جعل لها خاصية تاريخية مميزة ، وهو تناول فريد كأي شئ يتصف بالتفرد في الفلسفة، يتصف بأنه النظرية التي تقول ان هناك علاقة جوهرية بين المعنى Meaning وبين الفعل Action ، وعلى سبيل المثال يمكن فهم طبيعة المعنى بالرجوع الى الفعل فقط ⁽¹⁾ .

(1) كتب سي. آي. لويس C.I. Lewis بحثاً عن المنطق لدى ديوى بعنوان : «المعنى والفعل» Meaning and Action ، عرض فيه وجهة نظره في العلاقة الجوهرية بين المعنى والفعل كعلاقة متميزة في منطق ديوى. وقد استخدم هـ. أس تاير H.S. Thayer عبارة لويس هذه ووضعها كعنوان لأحدث كتبه وهو : «المعنى والفعل : التاريخ النقدي للبرجماتية»

Meaning and Action: A critical History of Pragmatism.

وكان كتاب تاير محاولة جيدة لتأريخ وتقييم الفلسفة البرجماتية ككل، سواء في جانبها الاوربي ، أو جانبها الامريكي . وأنا أعتبره من اكثر الكتب الفريدة قيمة يضاف الى الأعمال الموجودة حالياً ، حتى أنني لم أكن أجد البراهين والأدلة الكافية في هذا المجال حتى ظهر كتاب تاير عام 1968.

فإذا سلمنا بأنه لا توجد معاني دون إشارات (علامات) (وهذا لا يسلم به دائماً)، وإذا كان مصطلح «العلامة» أو السيميائية Semiotic مقبولا كأسم بالنسبة للدراسة العامة عن الاشارات Signs، فإنه سينتج عن وجهة النظر القائلة بأنه توجد علاقة جوهرية بين المعنى والفعل (أو السلوك)، تطوير «العلاقة» ذاتها كنظرية فعلية أو سلوكية As an actional or behavioral theory⁽²⁾. وتعتبر العلاقة السلوكية أساساً تقوم عليه البرجماتية، لهذا أخذت في الاعتبار - كفلسفة - أن تتناول المشكلات التقليدية في الفلسفة. وبهذه الطريقة فقد أصبحت البرجماتية أكثر تحديداً (ودقة) كمصطلح، أعنى أن البرجماتية أصبحت فلسفة تقوم على أساس الدلالة (المعنى) السلوكية.

(2) هناك بعض المشكلات في كيفية تحديد علاقة الألفاظ مثل «الفعل» و «السلوك» -behav-ior و «التصرف» conduct. نلفظ «السلوك» behavior الذي ينتشر الآن انتشاراً واسعاً ويستخدم على نطاق واسع (كما في عبارة العلوم السلوكية The behavior-al sciences)، إلا أن هناك عدداً متزايداً من علماء النفس يعترضون على تطبيقه على الإنسان. وقد استخدم البرجماتيون الأوائل ألفاظ «الفعل» Action و «التصرف» Con-duct أكثر من استخدامهم للفظ «السلوك» حيث يرون أن التمييز بين السلوك والفعل ليس مهماً، لذلك فسوف نستخدم هذان اللفظان في هذا الكتاب بالتبادل. ونحذر من أن استخدام لفظ السلوك لا يتضمن في ثنائه المدرسة السلوكية التي قال بها جون ب. واطسون John B. Watson. فلا يوجد فيلسوف واحد من فلاسفة البرجماتية يعتقد آراء المدرسة السلوكية بهذا المعنى المحدد (الضيق) الذي يقول به أتباع النزعة السلوكية. فالقول بالسلوكية أو الفعلية behavioral or actional يسبق من الناحية التاريخية النزعة السلوكية لدى واطسون، بل إنها ترتبط بأرسطو أكثر من ارتباطها بواطسون. وقد نشر ديوى بحثه المشهور «مفهوم المنحنى المنعكس في علم النفس» The reflex arc concept in psychology عام 1896 قبل ظهور المدرسة السلوكية الواطسونية، بل ويعد نقداً لما جاءت به النزعة السلوكية الواطسونية، كما عارضها أيضاً جورج هيرت ميد في كتابه «العقل والنفس والمجتمع» Mind, Self and Society.

ولم يصغ البرجماتيون الأوائل البرجماتية بالطبع على هذا النحو الذي هو عليه الآن، كما أنهم لم يعملوا من أجل إخراج نظرية سلوكية للمعنى، ثم قاموا بتطوير نظرياتهم الفلسفية على هذا الأساس، فتشارلز بيرس كان يعتقد أن تطوره الفلسفي (وحتى تطور جيمس الفلسفي) لم يكن ليختلف في أساسه إذا لم نسمع أبداً عن البرجماتية. (المجلد الخامس، الفقرة 466)، ولكنه بالتأكيد نظر إلى البرجماتية باعتبارها تدعم أفكاره الفلسفية والتي طورها أساساً عندما صاغ البرجماتية من قبل .

وبصيح الموقف أكثر تعقيداً إذا علمنا الحقيقة وهي أن بيرس نفسه ليس لديه صيغة كلية واضحة عن طبيعة «المعنى» ولكن توجد لديه بالتأكيد «نواة» hard-core للنظرية المحددة تحديداً تماماً. ولكن - كما سنرى - فإن هذه النواة حظيت بإضافات وخواص (أخرى) نشأت عن عدم رضا بيرس ذاته بصيغته المبكرة (النواة) . ولكنه ذكر حقيقة هذه الإضافات والخواص - نقول ذكرها - بإخلاص ، وقال أنه توجد علاقة جوهرية بين المعنى والفعل، ولكننا نقول ربما أن جميع المشتغلين بالفلسفة من البرجمانيين لا يتفقوا مع بيرس في هذا . ولكنه ليس من السهل أن نعلق تعليلاً شاملاً ومفصلاً على مثل هذه العلاقة، فكل ما كتب فيها غاية في التعقيد، ولم يطور البرجماتيون نظرية العلامات التي يمكنها p.18 أن توجه السلوك . وحتى هذا الحد يظل مبهماً على نحو ما خاصة تناول البرجماتية لعلاقة المعنى بالفعل بل وحتى طبيعة البرجماتية ذاتها تظل مبهمة كذلك، ويمكن إيضاح الموقف إذا قمنا بتحليل بعض عبارات بيرس .

وبالرغم من هذا فإنه من المستحسن - كملاحظة مبدئية - أن نستخدم في هذا الكتاب مصطلح أو لفظ «المعنى» دون تردد ، وسوف نستمر في أن نفعل هذا طالما أن البرجمانيين أنفسهم يفعلون ذلك، إلا أن تطور نظرية العلامات لم يحدث بوضوح إلا في السنوات العشرة الأخيرة، لذلك يظل مصطلح «المعنى»

غامضاً جداً وملتبساً مما لا يكون من الحكمة معه أن نستخدمه كمصطلح مبكر غير محدد عند شرح نظرية العلامات ، وقد غطى استخداماته المختلفة (على الأقل) موضوعات النية (القصد) Intention ، والمدلول Signification والقيمة value كما يبدو في هذه العبارات : «ماذا يعنى بفعله هذا؟» و «ماذا يعنى بكلمة متعادل القوة والتأثير Equipollent؟» و «هل الحياة بلا معنى؟» وبدلاً من استخدام الكلمة كجوهر ثابت في نظرية العلامات فإنه من الأجدر والضروري عند تطوير نظرية العلامات أن نحلل لفظ «المعنى» وسوف نستخدم خلال هذا الفصل لفظ «المعنى» بطريقة نقدية ، وبحسب نوع المشكلات الموجودة حالياً والتي تظهر أمامنا من خلال عرضها .

2 - نظرية العلامات عند بيرس :

يعتبر تشارلز بيرس أحد الرجال البارزين في تاريخ نظرية العلامات، فهناك مقال مبكر أوضح اهتمامه بهذا الموضوع بعنوان : «قائمة جديدة للمقولات» On a New list of categories (1867) (المجلد الأول، الفقرات 545 - 559) . كما تعد صياغة «القضية البرجماتية» pragmatic maxim نتاجاً متأخراً ظهر من خلال عمله الطويل في نظرية العلامات.

وبالنسبة لبيرس فإن عملية العلامة .. A sign process (Semiosis) تعتبر عملية معقدة من عمليات التوسط (المتوسط) mediation ، وهنا على سبيل المثال أحد الصيغ العامة :

«إن علامة التمثيل representamen شيء يقابل شخص ما»
«لشيء ما على نحو أو قدرة ما . إنه يخاطب شخص ما ، أوجده في عقله»
«هذا الشخص يعادل في قوته وتأثيره العلامة ، أو ربما علامة أكثر»
«تطوراً ، تلك العلامة التي وجدتها أسميها المفسر The interpretant
«للعلامة الأولى ، وتقابل العلامة شيء ما هو موضوعها» .

(المجلد الثاني ، الفقرة 228)

تقابل العلامة إذن (على نحو ما من الأنحاء) موضوعها بأن يوجد (بكسر الجيم) مفسرها Interpreter مفسراً interpretant (آخر).
أما فيما يتعلق بهذه الصيغة الخاصة (والمحددة) فإنه يلاحظ أنها لا تقدمنا بفهم العلامات (الاشارات) Signs الخاصة بعلامات اللغة، ولا تقدم (لنا) مصطلحاً يشرح «المعنى» بأن يقال (مثلاً) أن المفسر «في العقل» In the mind، ولم يتم ايضاح مصطلح العلامة ايضاحاً تاماً طالما أن المفسر للعلامة هو نفسه علامة، ولا يشير الى فعل Action أو سلوك . وبوجه عام فإنه لا يوجد ما يشير للبرجماتية، أو «القضية البرجماتية» Pragmatic maxim في هذه الصيغة الخاصة.

وليس من الضروري أن نتأمل تطوير بيرس الشامل والثري والمفصل (المحكم) لعلم العلامات semiotic ، والذي هو في حد ذاته دلالة significance ، بصرف النظر عن علاقتها ببرجماتيته⁽³⁾ . ولكننا يمكن أن نشير الى شيء من

(3) أتى ذكر علم العلامات (السيمائية) Semiotic لبيرس في مجلداته الثمانية، غير أنها توجد بصفة أساسية في المجلد الثاني مضافاً اليه بعض المعلومات التي وردت عنها في المجلد الثامن الخاص بإرسالات بيرس مع السيدة ولبي Lady Welby ، وعلى الرغم من وجود كم كبير من الأعمال التي تناولت فلسفة بيرس إلا أن علم العلامات لديه لم يلق الدراسة الوافية لها. وتوجد دراسة مبكرة جيدة عن علم العلامات بعنوان «نظرية العلامات لدى بيرس كأساس للبرجماتية» Peirce's theory of signs as foundation for pragmatism كتبها «جون فيتز جيرالد John J. Fitzgerald . كما توجد رسالة دكتوراه بعنوان : «منطق بيرس من خلال علم العلامات» Peirce's logic treated as semiotic كتبها «تورا كاي لنتو بيكسون» Tora Kay Lanto Bikson ولكن هذا العمل القيم لم يذكر الكثير

أقواله المعقدة ، ذلك أن بيرس ميّز بين ثلاثة أنواع مختلفة من علامات التمثيل
Representamens وهي : علامة الصفة Qualisigns وعلامة الوجود sinsigns
وعلامة القانون Legisigns، فهذه طرق ثلاث يمكن للعلامة أن يكون لها علاقة
بموضوعها (مثل الصورة icon والدليل index والرمز Symbol) وثلاث طرق
يمكن للمفسر أن ينظر منها إليه في علاقته بالموضوع وهي (علامة الإمكان
Rhemic ، وعلامة الوجود الفعلي dicent وعلامة البرهان Argument ، وهناك
ثلاثة أنواع من المفسرات (المفسر الإنفعالي أو المباشر Emotional ، والمفسر
العضلي أو الديناميكي Energetic والمفسر المنطقي أو الأخير Logical) كما أن
هناك نوعان من الموضوعات (المباشرة immediate والعضلية أو
الديناميكية dynamic) .

ويمكننا أن نلاحظ أيضا أن بيرس يميز بين ثلاثة فروع من علم العلامات
Semiotic : (1) القواعد الحاصلة أو النظرية Speculative grammar وهي

عن يرحماتية بيرس. ومن بين المقالات الهامة من الناحية التاريخية يوجد «البرجماتية ونظرية
العلامات عند بيرس» Pragmatism and the theory of signs in peirce .
ومقال «تشارلز بيرس يفكر في اللغز» Charles Peirce's Quess at the Riddle
لإرنست ناجل Ernest Nagel ومقال «الصورة والدليل والرمز» Icon, Index and
Symbol لأوثر بوركس Arthur W. Burkes . فضلا عن عدد من المقالات المجمعة معا
يعتوان :

The Transactions of the Charles S. Peirce society on Phases of
peirce's semiotic اشترك فيها لفيف من الاساتذة من بينهم توماس جودج Thomas
Goudge ، وريتشارد مارتين Richard M. Martin وجاي زيمان J. Jay Zeman
وجاري ساندز Gary Sanders .

نظرية كلية في المعنى . (2) المنطق الحقيقي أو النقدي Logical logic ، وهي
نظرية كلية في تطبيق الاشارات على الموضوعات . (3) الخطابة الخالصة أو
النظرية Speculative Rhetoric والمنهج الثنائي Metho deutic أو نظرية البحث
Theory of inquiry ، وهي القوانين التي يستطيع التفكير العلمى بها أن يولد
إشارة من إشارة أو علامة من علامة أخرى .

p.20 وتشبه تقسيمات بيرس للعلامات بوضوح تحليل القرون الوسطى للعلامات
(وتسمى الفطنة العلمية Scientia sermocinalis) في مجالات دراسة القواعد
، والمنطق والخطابة. إذن قبيرس مدين في نقاط كثيرة من نظرية العلامات
للدراستات المدرسية (الاسكولائية) Scholastics studies حول عمليات العلامة.
كما أن أسلوب عمله الذي بدأ به علم العلامات المبكرة هو بمثابة برجماتيته
المبكرة كما توجد في كتاباتهم ، ولكن في كلتا الحالتين لا توجد أية إشارة
للعلامة الجوهرية بين المعنى والفعل .

3 - القضية البرجماتية عند بيرس :

يجب ألا ننسى أبداً أن بيرس تدرب في بداية حياته ثم عمل في مجال علم
الفيزياء ، وفي مقاله التحليلي الذي نشره عام 1878 بعنوان « تثبت الاعتقاد »
The Fixation of Belief قام بتحليل عدة طرق يجب اتباعها لإيضاح الأفكار ،
وقد اتبع بيرس المنهج التجريبي العلمى ، وعندما تأمل بيرس عمل الفلسفة واللغة
التي يجب على الفيلسوف استخدامها ، أخذ بتجريبية العالم واستخدم لغته
باعتبارهما المشال الذي يجب أن يُحتذى ، وعبر عن الاتجاه التجريبي بأزاء
استخدام المعنى بهذه الطريقة فقال :
« أما بالنسبة للعالم التجريبي الحق ، فإنك مهما ، اظهرت له من تأكيد »

« فإنه سيفهم ما تقوله من معنى إذا كان الوصف المعطى له نابعاً عن »
« تجربة ، مهما كانت ومهما كان من سيقوم بتطبيقه في الواقع ، فالتجربة »
« التي توصف له لن يرى لها معنى على وجه الاطلاق » (بدون هذا التطبيق)
(المجلد الخامس ، الفقرة 411) .

إذن لقد دمج بيرس - متأثراً بدراسته - هذا الموقف في « القضية
البرجماتية » وهذا ما ذكره بعدة طرق ، وإليك ثلاث صيغ وضعها لها « الأولى
p.21 صيغته المبكرة التي وضعها عام 1878 ، إلا أنه لم يضع لها عنواناً بهذا الاسم
« القضية البرجماتية » ،

(الصيغة الأولى)

« فكر في التأثيرات التي يمكن تصورها ولها معانى عملية ، ونستطيع عن »
« طريقها أن نفهم موضوع تصورنا ، إذن فتصورنا عن هذه التأثيرات هو »
« كل تصورنا عن الموضوع » .
(المجلد الخامس ، الفقرة 402)

(الصيغة الثانية)

« لكى يمكن التحقق من معنى التصور الذهني في التجربة ، فيجب على »
« الانسان أن يتأمل النتائج العملية التي تنتج بالضرورة عن صدق ذلك »
« التصور ، ومن مجموع هذه النتائج نحصل على المعنى الكلى للتصور » .
(المجلد الخامس ، الفقرة 9)

(الصيغة الثالثة)

« إذا استطاع إنسان ما أن يحدد بدقة كل الظواهر التجريبية »
« التي يمكن تصورها ، والتي يتضمنها تشبيت أو نفى تصور ما ، فإنه »

«سيتوفر لديه تحديد كامل للتصور، ولا يوجد مطلقاً أي شيء زيادة»
«على ذلك» .

(المجلد الخامس ، الفقرة 412)

ويفسر بيرس بعض عباراته المستخدمة في الصيغ المذكورة آنفاً بقوله :
«التفكير العملي (أو الاحتمالي bearing) هو النتائج المعنية التي سوف»
«بنتهجها التصرف وينتج عنها نتائج معينة في السلوك وستجد لها أمثلة»
«حتمية في الخبرات التي نمر بها»

(المجلد الخامس ، الفقرة 9)

(ويقول بيرس أيضاً) :

«الظاهرة التجريبية هي الحقيقة التي تؤكد أن فعل وصف معين سينتج»
«عنه نوع معين من النتائج التجريبية» .

(المجلد الخامس ، الفقرة 427)

إذن استخدم بيرس مصطلح «التجريبية» experimental استخداماً واسعاً
(قضفاً) وكثيراً ما استخدم (عبارات) «التأمل العملي» Practical
consideration ، و «التصورات الذهنية» Intellectual concepts وهي تساوى
لديه «تلك التصورات التي يتم على أساسها تكوين الأدلة المتعلقة بالحقيقة
الموضوعية والتي تتوقف عليها (إقامة هذه التصورات).

(المجلد الخامس ، الفقرة 467) .

وإذا خاطرنا بتبسيط هذه الصيغ للحكم (أو القضية) اليرجماتي فإنه يبدو
p.22 أن هذا التبسيط يتضمن أن معنى التصور الذهني (العقلي) علاقة جوهرية بين
الفعل والخبرة كأن نقول إذا كان كيت وكيت If such and such أنماط من الفعل
يمكن القيام بها ، إذن فإن كيت وكيت أنماط من نتائج الخبرة نحصل عليها

بالضرورة ، وهذا ما سنعتبره لب القضية البرجماتية .

ومن المهم أن نلاحظ خواص معينة لهذا الموقف وهذه الخواص هي :

١- تصر القضية البرجماتية على وجود علاقة جوهرية بين الفعل والخبرة بالنسبة لموضوع المعنى الذي تشير اليه وتتناوله .

٢ - إن الموقف ليس موقفاً فردياً ، بمعنى أنه لا يذكر بإزاء أفراد بعينهم (دون غيرهم) .

٣ - إن التأكيد إنما هو تأكيد على العمومية generality ، فإن الاستدلال يوجه نحو أنواع من الفعل وأنواع أخرى من الخبرة ، وليس نحو أفعال أو خبرات فردية (خاصة) .

٤ - إن الصيغ المختلفة تشير بصفة أساسية إلى «التصورات» Concepts أكثر مما تشير إلى «العلامات» signs ، لذلك فإن العلاقة بين القضية البرجماتية وعلم العلامات Semiotic ليست علاقة واضحة . (بدرجة كافية) .

إن البرجماتية بالنسبة لبيرس أساساً هي اقتراح بتبنى القضية البرجماتية في الفلسفة ، لكي تكتسب الفلسفة ميزة العلم التجريبي التراكمي والتقدمي في آن واحد ، وإذا قُبل هذا الاقتراح فإن بيرس عندئذ يكتب قائلاً :

« إن أي فرض يمكن أن يكون مقبولاً في حالة عدم وجود أسباب خاصة تفترض العكس ، وهذا الفرض قابل للتحقيق التجريب ، ويؤخذ به فقط إذا كان قابلاً لمثل هذا التحقيق ، وهذه على وجه التقريب هي النظرية البرجماتية » .

(المجلد الخامس ، الفقرة 197) .

والآن فهناك تساؤل يتعلق بمعيار قبول الفروض في الموضوع بخصوص هذا

الجزء من المنطق النقدي Critical logic (أو المنطق الخالص Logic proper) الذي p.23 يسميه بيرس (منطق) الإبعاد Abduction ، ويعتبر المنطق النقدي بالنسبة إليه فرع من علم العلامات As a subdivision of semiotic .

إذن ، فعلى الرغم من أن القضية البرجماتية لم تصاغ صياغة واضحة بالنسبة لموضوع العلامات signs ، إلا أنه من الواضح أنها بالنسبة لبيرس تعد جزءاً من علم العلامات Semiotic.

4- بيرس : طبيعة المفسر :

وبالرجوع الى الصيغة السابقة التي اقتبسناها من أعمال بيرس عن عملية العلامة، فإننا نجد أن مفسر العلامة كان هو نفسه علامة موجودة في «عقل» In the mind شخص ما (عن شخص ما "Somebody" a) . وعاد بيرس الى مشكلة طبيعة المفسر في أحد أعماله المخطوطة التي لم تنتشر في حياته، وحاول فيها جاهداً ان يزيل القموض الذي اكتنف تعريفه للعلامات كمفسرات والتي هي ذاتها علامات «في عقل» مفسر العلامة .

وبعد أن أخذ بيرس في هذا البحث الى الرضا والقناعة بأن المفسر المنطقي (يختلف عن المفسرين الآخرين الانفعالي والعقلي) واعتبره مفسر يبدو عام في احتمالات الاستدلال ، وعلى سبيل المثال ، يدل أو له علاقة بأي شيء له وصف محدد ، وذكر بيرس خلاصة رأيه في هذا الصدد بقوله أن «العادة هي ماهية (جوهر) المفسر المنطقي» .

(المجلد الخامس ، الفقرة 486) ، وقد فعل ذلك بحذف البدائل الممكنة :

«والآن لا يوجد ما يفسر طبيعة المفسر المنطقي (والذي عرفنا آنفاً بأنه

تصور) لكى نقول عنه أنه تصور ، ويمكن تطبيق هذا الاعتراض أيضا على الرغبة والتوقع expectation ، وهي نفس التفسيرات لنفس المفسر ، طالما أن أحدهما ليس عاما اللهم إلا في علاقته بالتصور .

(المجلد الخامس ، الفقرة 486).

p.24 وتوصل بيرس الى نتيجة مؤداها أن العادة وحدها هي التي تستطيع أن تصف المفسر المنطقي للعلامة عن طريق العمومية فضلا عن المعنى العقلي (الذهني) intellectual purport ولذلك توصل الى أن يكتب ما يلي :

«إن أفضل وصف للتصور يمكن أن تنقله الكلمات يدخل ضمن وصف
«العادة ويعتبر أن التصور هو المحصلة الناجمة عنها، وإلا فكيف يمكن
«وصف العادة بأكثر مما توصف به من أوصاف كنوع الفعل الذي
« تنشأ عنه ، مع ذكر تفاصيل الظروف المحيطة به ودوافعه؟
(المجلد الخامس ، الفقرة 491) .

وبينما يذكر بيرس أن تلك «الحقائق الذهنية» mental facts غالباً ما تتضمنها العادات فتكون «هي ذاتها عادات غير واعية تماما» . (المجلد الخامس ، الفقرة 492) .

وهذه النقاط (المذكورة) ليست جديدة في فكر بيرس ، ففي مناقشته التي أجراها في مقاله المنشور عام 1878 والتي سماها فيما بعد «القضية البرجماتية» قال أن «ما يعنيه بالشئ، هو ببساطة ما تتضمنه العادات» . (المجلد الخامس ، الفقرة 400) . وكيف أيضا أن «العادة ليست شعوراً بالوعى ، إنما هي قانون عام للفعل ، مثال ذلك ما نجده في موقف ما من نوع معين فإن الانسان يميل أكثر أو أقل نحو الفعل بطريقة عامة معينة» (المجلد الثاني ، الفقرة 148) ، ويعنى آخر أكثر تحديداً يمكن أن يقال أن العادة هي «تنظيم الاستجابة لنوع من

المشير على نحو ما» (المجلد الخامس ، الفقرة 440).

وعلى الرغم من ذلك فإن هناك جديداً في بحثه الذي أشرنا إليه فقد أوضح بيرس صيغة المفسر المنطقي للعلاقة باستخدام تعبير العادة، ولكنه - كما رأينا - في موضع آخر ، يشرح لنا كيف أنه وضع القضية البرجماتية داخل العلم العام للسمائية (العلامات) General semiotic ، والآن يدخل الفعل (في شكل العادات) في لب علم العلامات ، وهكذا فإنه حاول أن «يبرهن» كذلك (على القضية البرجماتية) باستخدام عبارات العلم العام للعلامات وعلى مدى تأثير القضية البرجماتية على الفعل⁽⁴⁾.

وهكذا فأننا نجمة خلطاً في فكر بيرس الأخير ، والذي ، لو تعميمه بطريقة p.25 دقيقة، فسيؤدي الى نظرية متسقة في علامات السلوك ، لأن العلامة تتضمن دائماً اتجاه أو تنظيم للسلوك لدى أى واحد منا وتعتبر علامة بالنسبة اليه .

(4) اهتم فيتزجيرالد بصفة أساسية في مقاله عن «نظرية العلامات لدى بيرس» بالقاء الضوء على طبيعة «البرهان» الذي ينتج عن القضية البرجماتية Pragmatic maxim ولم يذكر فيتزجيرالد صراحة أن القضية البرجماتية تأتي نتيجة لعدد من مبادئ أو مقدمات العلامات أو من عدة قضايا للعلامات، إلا أنه أراد أن يذهب الى أبعد من ذلك في دراسة هذه النقطة. وكتب بيرس عام 1905 : «إن هذه القضية قد وضعت لتكون نظرية تقوم على أساس ثابت وقوى بفضل دراسة مفصلة ودقيقة لطبيعة العلامات (المجلد الثامن ، الفقرة 191) ، وكان بيرس غالباً ما يتحدث عن براهين القضية البرجماتية ، إلا أنني أعتقد أنه لم يعلن صراحة عن أن مثل هذه البراهين ستنتج من مبادئ أو مقدمات العلامات، وإن كان بيرس يشير دائماً إلى أنه على الفلسفة أن تشير الى العديد من الأدلة أكثر من اشارتها الى نتيجة أي من هذه الأدلة ، (المجلد الخامس ، الفقرة 265) ، فقد كان بيرس مقتنعاً بل ومتأكداً تماماً من أن القضية البرجماتية هي جزء متكامل وأساس جيد لنظريته في العلامات . وقد أحسن فيتزجيرالد صنعا بتأكيد على هذه الحقيقة في مقاله المذكور.

5 - تعقيد في آراء بيرس :

عاد بيرس إلى الحديث عن القضية البرجماتية عام 1902 بعد أن وضع صيغته المبكرة عنها عام 1878 فقال (في المجلد الخامس من أعماله الكاملة) ما يلي :

« لقد برهنت القضية عن نفسها للكاتب (يقصد بيرس نفسه) بعد « سنوات كثيرة من المحاولة وذلك بعد أن ظهرت فائدتها العظيمة في « قدرتها على أن تؤدي بنا إلى أقصى درجة من وضوح الفكر نسبياً « وسنخاطر بأن نقترح أنه بإمكاننا وضعها موضع الممارسة مع الدقة « البالغة ، ولكن بعد أن يتم هذا ، وليس قبله ، ما زالت هناك درجة « أعلى من وضوح الفكر التي يمكن تحقيقها وذلك ، بأن نتذكر فقط « أن الخير الأسمى للحقائق العملية الخاصة بتوجيهها نحو القصد « الذي يمكن أن يساعد في تطوير أكبر لحقائق الأنا المعقولة ، لأن « معنى التصور أنه يستحيل تحقيق أية ردود فعل فردية على « الاطلاق ، ولكن المهم هنا الطريقة التي تساهم بها ردود الافعال « هذه بإزاء هذا التطوير .

(المجلد الخامس ، الفقرة 4) .

والمقصود من هذا النص بوجه عام واضح تماماً فهو يريد أن يقول : " إن الوضوح بالنسبة لمعنى التصور الذهني (أو العقلي) يزداد إذا كان الانسان يستطيع أن يتحقق من ذلك بالتجربة بالاضافة الى امكان تطبيق القضية البرجماتية وذلك بالاسهام الذي يقدمه التصور لتطوير الأنا المعقولة The development of concrete reasonableness ويرغم ذلك ، ويعيداً عن التفاصيل فإن النص ملىء بالمشكلات التي تدور حول اللفظ الغامض والمضطرب

«للمعنى» Meaning.

p.26 يشير النص السابق في المقام الاول التساؤل حول «الخير الأسمى» The Ultimate Good «للحقائق العملية» Practical facts المتضمنة في الحكم البرجماتي ، وما يشير عجب الإنسان أن الاهتمام لا يتغير فهو يتجه نحو القيمة أو المدلول المجرد للعلامات (أو المفهومات أو الأفكار) ، أكثر من توجهه نحو التوسع في مبنائها أو مدلولها. العيني المشخص إلا أنه في موضع آخر عندما ناقش فرض واقعية وجود الله (تعالى) ، فإن بيرس يكتب أن البرجماتي يعتبر أن الأساس الجوهرى المطلق Ultimate test للفرض «يجب أن يكمن في قيمته أي في ضبط سلوك الإنسان البالغ في الحياة».

(المجلد السادس ، الفقرة 480) ، فهل لا يخلط بيرس هنا بين المدلول المجرد والمدلول المشخص للعلامة؟.

ومن جهة ثانية، يتضمن تفسير «الأنا المعقولة» Concrete reasonableness كل فلسفة بيرس الميتافيزيقية والكوزمولوجية، لذلك يبدو أن مستوى «المعنى» Meaning يستند على الفلسفة أكثر مما يقدم لنا معياراً لمعنى المصطلحات الفلسفية .

وثالثاً ، ليس من الواضح تماماً إذا كان هذا «المعنى» الثرى يعلو «المعنى» المقصود في القضية البرجماتية (كما يبدو في الجزء الاول من النص المقتبس) أو إذا كانت بعض الرموز المحددة يمكنها ان تسهم في إظهار «الأنا المعقولة» دون أن تحتوى على «المعنى» بالمعنى المحدد في القضية البرجماتية (كما يقترح بيرس في نهاية النص السابق المقتبس والذي جاء فيه أن «معنى التصور لا يكمن في أي من ردود الفعل الفردية على الإطلاق»، وعلى أية حال فإن هذه النصوص تصبح وثيقة الصلة بالموضوع عندما يتساءل المرء عن نوع المعنى

المستخدم في الرموز الرياضية والفيزيقية مثل : « ما هو المعنى غير القابل للقياس » و « الذرة » Atom.

وأخيراً ، وحتى إذا أخذ في الاعتبار أن «الأنا المعقولة» عند مقابلتها «بتطوير ضبط السلوك الإنساني في الحياة» ، فإنه من الصعوبة بمكان أن نوضح المعنى الخاص بمحاولتنا تحديد هذا الإسهام ، وبالتأكيد فإن جميع الفلاسفة السابقين سوف يدعون أن كتاباتهم لها معنى بنفس هذا التحديد ، والانسان يمكنه أن يحاول إنكار مثل هذه الدعاوى عن طريق اللجوء الى نظريات بيرس عن «ضبط النفس» Self-Control و «التصور الذهني» Intellectual concept ، p.27 (وهذا يمكن عمله بالتظاهر بقبولنا لها) ، ولكن أصبحت هذه الكتابات متداخلة جداً ، . ولن يقتنع هؤلاء الميتافيزيقيون واللاهوتيون الذين هاجمهم بيرس بطريقة غامضة ومبهمة في أقواله .

ويبدو ان الموقف الناتج عما سبق يعبر عن شيء كهذا .

إن بيرس لم ينكر الصيغة المبكرة للحكم (القضية) البرجماتي، ولكنه لم يكن يعتقد ان تحليل المعنى الذي تضمنته هذه الصيغ (مع تأكيده على الخبرة الحسية التي تأتي عقب الفعل، هي كل ما في الموضوع حتى بالنسبة للرموز الخاصة بـ «المعنى الذهني» Intellectual Purport .. فالأخيرة هي بالتأكيد القضية . وبالنسبة لبيرس فقد أدركها أيضا ، ومع ذلك فإنه يصعب علينا أن نقول أن بيرس أعطى صيغة مقنعة وواضحة لأوجه «المعاني» المختلفة، فضلا عن أنه لم يعبر عنها في النصوص المبكرة التي قدمها عن الحكم (القضية) البرجماتي، وبهذا فإن نظرية العلامات عند بيرس تعد نظرية غير كاملة .

غير أن اقتراح بيرس الأخير بإضافة «المعنى» إلى ما أشار إليه بطريقة غامضة ما زال في حاجة الى تفسير علاقة «المعنى» «بالفعل» ، لذلك فإنه حتى في هذه النقطة فإن بيرس يتمسك بوجهة النظر التي مؤداها أن هناك علاقة جوهرية بين المعنى والفعل ، ولهذا السبب فإن «مانلى طومسون» Manley Thompson كتب في بحث بعنوان «الفلسفة البرجماتية عند تشارلز ساندرز بيرس أنه كان قادرا على أن يذكر أن فلسفة بيرس يمكن النظر إليها كفلسفة برجماتية⁽⁵⁾ .

(5) لا يزال التساؤل هاما بالنسبة لدارس فلسفة بيرس ، ويدور هذا التساؤل عما اذا كان بيرس يختلف أو لا يختلف فيما قدمه من تصورات مبكرة أو متأخرة حول الحكم البرجماتي أو القضية البرجماتية وبالتالي تصوره عن البرجماتية. وقد ناقش ديوى هذه المسألة في بحثه عن «برجماتية بيرس» The Pragmatism of Peirce . ورأى أن الاختلاف يكمن في تأكيد بيرس على تصوره التي أدومها في صيغة مختلفة ، بينما يرى كل من موري مورفي Murray Murphey وبيون فينيزجيرالد أنه لا أهمية تذكر بشأن هذه الاختلافات ، حتى بيرس نفسه كان يفتقر إلى اسم لـ «تعبير أو اختلاف ما» . وتعطى كتب بيرس التي كتبها في العقد الاول من هذا القرن (1910) انطباعاً مؤداها أن نظرية بيرس لم يطرأ عليها التغيير منذ أن وضعها عام 1873 ، وأصبحت صيغة نظريته كالآتي :

«بالنسبة للبرجماتية فإن المعنى الحقيقي لأي إنتاج ذهني يكمن في الجبرية الاحادية - Uni-tary Determination مهما كانت أهميتها بالنسبة للتصرف (السلوك) العملي وتحت أي ظرف كان، ولنفرض أن مثل هذا التصرف يمكن أن يوجد في أقصى حدود التفكير» (المجلد السادس، الفقرة 490) ، وتختلف هذه الصيغة عن تلك التي سطرها بيرس من قبل حيث لم يشر فيما سطره إلى أية تأثيرات عملية تتبع أي نوع من أنواع الفعل ، فهل عبارة «التصرف العملي» Practical Conduct في هذا النص متضمنة أساساً في مثل هذا القول ؟ (بتصرف - المترجم) .

6 - - .وليم جيمس والقضية البرجماتية :

ليس من الشائع أن يؤكد أحد (من الباحثين) على الفروق بين جيمس وبيرس بطريقة قوية لدرجة أنهما يبدوان بصعوبة وكأنهما يدخلان في مجال نفس الحركة الفلسفية، وقد كتب رالف بارتون بيرى Ralph Barton Perry يقول: p. 28 «ربما يكون من الصحيح، وقامًا بالنسبة لجميع الأطراف ، أن نقول أن «الحركة الفلسفية المعروفة باسم البرجماتية هي نتيجة سوء فهم جيمس لبيرس»

ويمكن أن نوضح أن لهذه النظرية بعض أوجه الحق من أن بيرس غير اسم الفلسفة البرجماتية Pragmatism إلى البرجماتية Pragmaticism ، ويبدو أن هذا ليميز من ناحية موقفه من فلسفة جيمس ، ويعلن من ناحية أخرى أن تأويل exegesis جيمس للقضية البرجماتية «ليس عميقًا جدًا» Not very deep (المجلد الخامس الفقرة 13n) . ومع ذلك ، فإننى أعتقد أن تعبير بيرى «سوء فهم» misunderstanding تعبیر مبالغ فيه جداً ، وأنه بينما كان جيمس - بطريقة مؤكدة - يوسع من مجال البرجماتية لينذهب بها إلى أبعد مما ذهبت بها نظريات بيرس ، فإن المفكرين خرجا في النهاية بنظريات متشابهة تمامًا بالنسبة لطبيعة وحدود المعنى ، ويجب علينا الآن أن نكسر جهودنا لتثبيت هذا الزعم .

إن الاختلافات الرئيسية بين بيرس وجيمس موجودة في الفروق بين مشكلاتهم (التي تناولوها بالبحث) ، ولذا ذكر بعضها إجمالاً ، فإن مشكلة بيرس الموجهة كانت بناء صرح «فلسفة عملية» scientific philosophy ، أما رسالة جيمس القدرية فكانت بالنسبة إليه وطبقاً لما يذكره رالف بيرى «إيجاد معنى فلسفى يمكنه من تبرير إقامة الدين دون التخلي عن العلم» . وكان جيمس شلماً

كان بيرس ، قد نال قسطًا من العلم والتدريب في مجال العلم Science وقام بتدريس العلم لسنوات كثيرة قبل أن يصبح فيلسوفًا محترفًا .. إلا أن تدريبه كان في مجال الطب والبيولوجيا (علم الأحياء) أكثر من مجال الرياضيات والعلم الفيزيقي، وكان اسهامه الشخصي كعالم في مجال علم النفس ، وقد عانى في أواخر العشرينات من عمره مشكلة شخصية عميقة، وكانت تنتابه إحساسات عميقة باليأس والقلق ، وجاء دفاع تشارلز رينوفييه Charles Renouvier عن الحرية كى ينتشله من هذا الإكتئاب ، ويخرجه من أزمتة . وكتب جيمس يقول : « كان أول عمل لى للتعبير عن إرادتى الحرة أن أعتقدت في الإرادة الحرة Free Will ، وساعدت النظريات الدينية والميتافيزيقية جيمس في المراحل الأولى وعملت على تدعيم نشاطه العنيف فى السعى وراء المثل العليا ، ويقول جيمس في هذا الصدد :

p . 29 « إنه لولا الدلالة العملية ، لكانت كلمات الإله ، الإرادة الحرة، الخلق ، « الخ لا معنى لها» ، « فلديها (أى هذه الكلمات) معنى خاص « وهو أنها تعد بوجود عالم أفضل مما نعيش فيه » .

ويوجد عام فقد نظر جيمس إلى الفلسفة كعبارات توجه حياة الفرد . فهو يرغب في بناء نسق فلسفى مؤكد، ولكن طالما أنه لم يلتفت مرة واحدة بعد ذلك نحو العلم فإن فلسفته لن تتطلع أبداً إلى أن تكون صرحاً علمياً A scientific edifice . وكان من المتوقع أن جيمس فسّر القضية البرجماتية لدى بيرس بطريقة تتوافق مع مفهومه الشخصى للفلسفة .

ويحتوى مقال بيرس الذي نشره عام 1902 في « قاموس بالدوين للفلسفة وعلم النفس Baldwin's Dictionary of Philosophy and Psychology على فقرة كتبها جيمس لتفسير القضية البرجماتية لدى بيرس، والتي وصفها بيرس

بأنها «ليست عميقة جداً». فقد كتب جيمس التفسير التالي لنظرية بيرس :
« إن «المعنى» الكلى للتصور يعبر عن ذاته من خلال نتائجه العملية ،
«فالتتائج إما أن تكون في شكل تصرف يوصى به ، أو على هيئة خبرات»
«نتوقعها ، وإذا كان التصور صادقاً فإن نتائج الخبرات ستكون مختلفة»
«في حالة عدم صدقها ، بل ويجب أن تكون مختلفة عن النتائج التي يعبر
«بها المعنى عن تصورات أخرى بدورها» .

وقبل مناقشة هذا التفسير للقضية البرجماتية ، فمن المستحسن أن نضع
أمامنا عدة صيغ أخرى تبين وجهة نظر جيمس في المعنى ، ففي كتابه
«البرجماتية» ذكر أن «مبدأ بيرس هو المبدأ البرجماتي» The
principle of Peirce, the principle of Pragmatism . وعبر عن فكرته
بقوله :

«لكي نحصل على وضوح تام لأفكارنا عن الموضوع an object ، إذن»
«فإننا نحتاج فقط إلى أن نأخذ في اعتبارنا التأثيرات المقبولة من نفس»
«نوع الشيء العملي الذي يتضمنه ، وما هي الإحساسات التي نتوقعها» p . 30
«منه ، وما هي ردود الأفعال التي يجب أن نستعد لها ، وهل هي مباشرة»
«أم بعيدة remote ، إذن فإنها ستكون بالنسبة إلينا تصور كلى عن»
«الموضوع ، طالما أن هذا التصور له دلالة إيجابية مطلقة»⁽⁶⁾ .

وأخيراً ، هناك فقرة وردت في كتابه «بعض مشكلات الفلسفة»
Some Problems of Philosophy يقول فيها :

(6) وليم جيس «البرجماتية» ، ص ص 46 - 47 .

«إن القاعدة البرجماتية The Pragmatic rule هي ذلك المعنى «
«الخاص لتصور ما والذي يمكن أن يوجد بصفة دائمة، فإذا لم يوجد»
«في بعض الإحساسات الخاصة التي يمكن اختيارها بطريقة مباشرة»
فإنه يوجد إذن في بعض الفروق الخاصة (التي نجدها) في مجرى الخبرة»
«الإنسانية والتي سيكون وجودها وجوداً صادقاً» .

من الواضح أن في هذه العبارات صيغ ذات وجهين أساسيين يختلف فيهما
تصور جيمس عن القضية البرجماتية عن مثيله لدى بيرس .

الوجه الأول : أن صيغ جيمس أقل طلباً Less demanding من صيغ
بيرس المبكرة فقد جعل بيرس العلاقة بين الفعل والخبرة الناجمة عنه علاقة جوهرية
، وتلك الخبرات هي المقبولة فقط وتتبع نوع معين من الفعل وهي التي جعلها
بيرس ذات علاقة جوهرية ، وذلك عن طريق تقرير المعنى الخاص بتصور معين،
فالعلاقة بين الفعل والخبرة هنا علاقة تتضمن بين المعاني (*) Entailment إذا
..... إذن ، علاقة ضرورة necessary ، وكما رأينا من تلك العلاقات التي
يقصدها بيرس بعبارة «نتائج عملية» Pratical consequences ، ومن هنا
كان استخدام جيمس لكلمة «العملية» Practical أقل طلباً .

أما تفسير جيمس فإنه بدلا من استخدام إذا إذن لبيان العلاقة بين
الفعل وما ينتج عنه من خبرة ، فإنه استخدم علاقة «و» and و «أو» or ، وربما

(*) يستخدم بعض الفلاسفة كلمة Entailment لتدل على علاقة التضمن بين المعاني ، بينما
يستخدم البعض الآخر كلمة implication بمعنى الجانب الصوري في اللزوم.
(أنظر : د. عزمي اسلام ، «مفهوم التفسير في العلم من زاوية منطقية» ، حولية كلية الآداب
جامعة الكويت، الرسالة الرابعة "16" ، 1403هـ ، 1983م ص 96.

علاقة أقل من ذلك ، فهي علاقة «أو» or . فالنتائج العملية هي الآن «الاحساسات التي نتوقعها» «و» «ردود فعل يجب أن نستعد لها» ، بل إنها p . 31 حتى أقل صرامة ، فالنتائج العملية هي «تصرف يوصى به» ، «أو» «خبرات يتم توقعها» ، فحرية الفعل التي تعطيها لنا كلمة «أو» في العبارة الأولى (ومتضمنة في الصيغة الثالثة) سوف تسمح بعبارات أخرى ذات معنى بسبب اقترابها من التصرف حتى لو لم تتنبأ «بإحساسات» معينة أو «خبرات» (معينة) وقد استفاد جيمس من حرية الفعل الموضحة في العبارة التالية عن الدين Religion :

«إن الدين في أكثر معانيه تجريداً يمكن أن يُحدد بأنه تأكيد على أن «ليس هناك شيء تافه، فالتجريبي يمكنه أن يسخر بسهولة من تلك «الصيغة لأنها لا تعنى شيئاً بالنسبة اليه، عندما تعبّر عن الإتحاء» «الكلّي Universality، ويطلب منك أن تعرض له هذا الشيء» «بمضمونه الشخص الذي قد لا تستطيع أن يفعله ، لأنه لا يوجد شيء» «أصعب من ذلك ، ومع هذا فإنه كحقيقة عملية يمكن ان يكون له معنى» «متميزاً للغاية وذلك عند ما تستخدم هذه الحقيقة كمقدمة منطقية» «في الحياة (اليومية) ، فإن ذلك ينقل اليك وصفاً كاملاً للحياة، «إن الدين ، مثله في ذلك مثل أية تصورات أخرى كثيرة كلية، صادق» «في توجهه ، ويبدو أنه لا يقدم لك غاية (ما) ولكنه يحدد لك «الاتجاه المناسب»⁽⁷⁾ .

الوجه الثاني : يتبين بوضوح أكثر الفرق بين نص بيرس عن القضية

(7) العبارة مقتبسة من بحث بيرى Perry «فكر وشخصية وليام جيمس» ، المجلد الاول ، ص 503.

البرجماتية في الاقتباس الثالث وبين موقف جيمس ، فالتأكيد هنا تأكيد على ما هو جزئي Particularity والذي يتوقع أن يكون «إحساس جزئي Sensible Particular ، والفرق الموجود في الحياة يجب أن يكون » فرق جزئي Particular difference. أما بيرس فقد أكد - على عكس جيمس - على أنواع الخبرة وأنواع الفعل ، وقد أقتبسنا كثيراً من كتاباته (من قبل) مثل قوله : «إن معنى التصور لا يكمن فسي أي ردود أفعال جزئية على الإطلاق»، «فيذا كان جيمس قد أكد على النزعة الجزئية Particularity فإن بيرس أكد على العمومية Generality ، وهذه الآراء المختلفة (هي التي ، تشكل فلسفة كل منهما).

وقد عني بيرس خاصة بالطريقة التي يوظف بها الأفكار في مجتمع العلماء p . 32 بينما عني جيمس على وجه الخصوص بالطرق التي تستخدم بها الأفكار في حياة الأفراد الفردية، أما «الأفكار العملية The Practical Consideration التي عني بها بيرس فقد كانت تدور أولاً حول أنشطة العالم ، بينما كانت بالنسبة لجيمس تُعنى بالأنشطة التي لها علاقة بالسلوك الفردي للشخص في الحياة أولاً، وكانت موضوعات «الدلالة المجردة الحيوية» Vital significance تصورات رئيسية في تصور جيمس عن الفلسفة، بينما كانت بالنسبة لبيرس (على الأقل من الوجهة الرسمية) خارج نطاق الفلسفة بحسب اقتناعه بها.

ولا تقلل هذه الفروق بين بيرس وجيمس من شأنهما ، ولا من أهمية فهمهما للحركة البرجماتية ككل ، ومع ذلك ، فإنه بالبحث في مجال المعنى نجد في نهاية الأمر أن الفرق ليس كبيراً كما يبدو للوهلة الأولى . أما بالنسبة لبيرس ، فيجب أن نتذكر ، أنه اعترف بقدر من المعنى يكمن فيما وراء وصف القضية البرجماتية ، فالعبارات يكون لها معنى إذا ساهمت في ضبط سلوك الفرد في

الحياة حتى اذا ساهمت ولو بقدر ضئيل في مجالات معينة من التنبؤات ، كما (نجدها) فى . نوى الخبرة (التي نعيشها) .

ويعتبر موقف بيرس من فرض واقعية وجود الله على سبيل المثال ، بعد أن اعترف أنه فقط في الحالات الاستثنائية exceptional cases يمكن الاستدلال على نتائج تجريبية experimental consequences من هذا الفرض (المجلد السادس ، الفقرة 489) ، فإنه وجّه الانتباه إلى ميزة أخرى لهذا الفرض «الذي يتألف من تأثير أوامره على سلوك حياة الذين يعتقدون فيه» (المجلد السادس ، الفقرة 490) . وأكّد جيمس على نفس النتيجة (وكما رأينا فقد عبّر عنها بكلمات مشابهة تمامًا) وليس بالحديث عن مستوى آخر من المعنى فيما وراء القضية البرجماتية، ولكن بتفسير فضفاض للقضية البرجماتية ذاتها .

وهكذا فإن كل من بيرس وجيمس مضيا في نفس الدرب الخاص بكل منهما وذهبا أبعد مما أطلقنا عليه لب القضية البرجماتية. فمن المؤكد أنهما جعلتا هناك استخدامات مختلفة وهامة لهذا «المعنى» في تطور فلسفاتهما، ولكن لهذا قصة أخرى ، إن حصيلتهما الكلية للمعنى ومجاله هي نفس الحصيلة الجوهرية.

7- جورج ميد : في اللغة كسلوك اجتماعي

كان ميد من أكثر الذين أشاروا بطريقة عارضة إلى بيرس في كتاباتهم، ولا أذكر اننى سمعته يذكر حتى اسم بيرس في محاضراته ، وبينما كنت طالبًا في جامعة هارفارد، كنت أرى ميد يتصل بجيمس (أثناء العام الدراسي 1887 - 88) ، لذلك أرى أنه كان من الواجب على ميد أن يعرف شيئًا عن بيرس، ولكن لا يوجد دليل على أن بيرس أثر في مجريات تفكيره (يقصد تفكير ميد). كما لا يعتبر ميد ببساطة أحد حوارى جيمس ، ولكنه كان

متعاطفًا بوجه عام مع الاتجاهات الوظيفية لعلم النفس عند جيمس وهذا مما لا شك فيه ، غير أنه طالما أن علم النفس عند جيمس بدأ وانتهى بالفرد ، فإن ميد أكدَّ على النسيج الاجتماعي الذي طوَّره الفرد ، وهكذا أصبح أحد الرواد الذين أسهموا في نشأة علم النفس الاجتماعي الحديث ، فضلاً عن ذلك فإن ميد لم يكن تلميذاً لديوى ، لذلك لم يكن فكر ديوى هو نقطة بداية تطور ميد ذاته ، حقاً لا يوجد فيلسوف له علاقة بميد مثلما كانت هناك علاقة لجيمس بمل Mill والتجريبيين الانجليز ، وكما كان لكانط علاقة ببيرس ، وديوى بهيجل ، لقد أعطى ميد اتجاهًا مستقلاً وأصيلاً للحركة البرجماتية .

p. 34 ويبدو أن ميد في توجهه المتميز إلى العلم الاجتماعي الذي انبجس في أواخر القرن التاسع عشر ، وكان ميد قد ذهب إلى ألمانيا بغرض استكمال دراساته قبل التخرج ، قد أبدى تعاطفًا كبيراً مع نظريات فلهلم فونت Wilhelm Wundt في مجال اللغة ، حيث كتب ميد بحثين أوضح فيهما مدى اهتمامه بنظريات فونت (8) .

وقال ديوى في البحث الذي أعده في ذكرى تأبين ميد عام 1931 ما يلي :
« في أيامي الأولى (المبكرة) لاتصالى به ، بعد أن عاد من دراسته »
« في برلين منذ أربعين سنة مضت ، كان عقله مفعماً بالمشكلة التي طالما
« شغلته مشكلة الفعل الفردي والوعى وعلاقتها بالعالم والمجتمع » (9)

(8) كتب جورج هربرت ميد بحثين في هذا المجال هما : (1) « العلاقات بين علم النفس وفقه اللغة »
The Relations of Psychology and Philology . (2) « الخيال في معالجة
فونت للأسطورة والدين » The Imagination in Wundt's Treatment of
Myth and Religion.
(9) ظهر بحث ديوى ، « جورج هربرت ميد » عام 1931 في « مجلة الفلسفة » Journal of Philosophy

وقد بحث ميد مشكلة علاقة الفعل الفردي والوعى بالمجتمع في علم النفس الاجتماعي، وكانت هي الموضوع الرئيسي في كوزمولوجيته (علم الكون) المتأخرة.

وأخذ ميد عن فونت النظرية الأساسية في علم الإيماءة (الإشارة) Gesture وأعتبرها مرحلة مبكرة من مراحل نشاط الكائن الحي وعدة استجابة كائن حي لكائن حي آخر علاقة لمرحلة متأخرة لنشاط هذا الكائن الأول ، فتكشير الكلب عن أنيابه تعد مرحلة إعداد لهجوم مرتقب، وعند استجابته لكلب آخر فإن هذه الاستجابة هي بمثابة استجابة لهجوم فعلى ، فالتكشير عن الأنياب يعتبر إيماءة (إشارة). وبطريقة مشابهة ، فإن بداية استجابة الكلب الثاني تصبح بدورها علامة للكلب الأول ، هذه العملية التبادلية والمستمرة للإيماءات يسميها ميد «حوار الإيماءات (الاشارات) ، The Conversation of Gestures»⁽¹⁰⁾

وعلى الرغم من أن هذه الإيماءات (الاشارات) ليست إيماءات (اشارات) لغوية بمعنى أن الإيماءة ليست لها دلالة مجردة Signification التي للإيماءة الحيوانية والتي لا يستطيع الحيوان تفسيرها. أما الرمز اللغوي الحقيقي - تبعاً لرأى ميد - فله نفس الدلالة التي لدى الكائن البشري الذي يستخدم الرمز مع كائن حي آخر يستطيع تفسيره. واعتقد ميد أن هذا التطور يسر بصفة رئيسية وجود الإيماءة الصوتية (أو اللفظية) حيث أن الكائن الحي الذي يصدر الصوت يسمعه

(10) أشار فونت Wundt في أعماله الى موضوع «تبادل الإشارات في الاتجاهين المتضادين» (الإقدام والأحجام) The backward and forward interchange of gestures واقتبس ميد الفكرة في بحثه المذكور عن «العلاقات بين علم النفس وفقه اللغة» (ص 381).

كما يسمعه كائن حي آخر، ولو اشترك عدد من الناس في هذا الصوت في مواقع معروفة لاستجابوا له أيضاً، لأن هذا الصوت سيكون له نفس الدلالة لديهم جميعاً ما عدا الشخص الذي أصدر الصوت .

إن تفاصيل تحديد هذا التناول للغة ليس موضع اهتمامنا الحالي⁽¹¹⁾ . كما أننا لسنا على استعداد لكى نبين كيفية تناول ميد للعقل الفردى ، وقد بحث التفكير والذات Selfhood باستخدام رموز مصطلحات اللغة، وتركزت الموضوعات الأساسية للبرجماتيين على الإنسان ككائن أخلاقى ذكى، ويكفى الآن أن تؤكد على أن تحليل ميد للإيماءة (سواء أكانت لغوية أم غير لغوية) وضعت أساس الطبيعة السلوكية للمفسر والتي طور بيرس على أساسها نظريته في العلامات Semiotic ، وأدى تقديم ميد لنظرياته مستقلاً عن بيرس إلى اعتبار تقاريفهما مشيراً بدرجة أكبر .

والنص التالى أول نص مقتبس من كتاب : «العقل والذات والمجتمع»
Mind self and society يقول فيه ميد :

(11) يفضل ميد مصطلح «الرمز الدلالي» Significant Symbol على ما تسميه «الرمز اللغوى» Language symbol ، فقد ناقش اللغة من خلال أعماله المتعددة ومنها «العقل والذات والمجتمع» وهو عمله الرئيسى الذى يتحدث فيه عن «العامل السلوكى للرمز الدلالي» A Behavioristic Account of the significant symbol لكى يعبر عن وجهة نظره.

وللمزيد من النقد أنظر كتابى «العلامات واللغة والسلوك» Signs, Language and Behavior، الفصل الثانى ، وكذلك بحث جون م. بروستر John M. Brewster «العامل السلوكى للوظيفة المنطقية للكلية» Behavioristic Account of the logical function of universals.

« ينشأ المعنى ويكمن داخل إطار العلاقة بين الإيماءة gesture التي
« يبيدها الكائن الحى والسلوك الصادر عن هذا الكائن والذي يشير
« به الى كائن حى آخر عن طريق الإيماءة. وإذا كانت هذه الإيماءة التي
« تشير إلى الكائن الحى الآخر ناتجة Resultant عن سلوك الكائن
« الحى الذي صدرت عنه الإيماءة إذن فإِنَّها تكون ذات معنى ... »
« والمعنى إذن هو تطوير لشيء ما يعبر عن شيء آخر لبيان علاقة
« أوجه معينه للفعل الاجتماعي إنه ليس إضافة فيزيقية للفعل وليس
« فكرة idea بالمعنى التقليدي .. (ولكن) المعنى هو المعطى المذكور
« في عبارات Terms ناتجة عن الاستجابة، إن المعنى هو (شيء) »
« ضمني implicit .. وإن لم يكن دائماً موجود وجوذاً ضمنياً -
« في العلاقة بين عدة أوجه للفعل الاجتماعي الذي يشير اليه
« ويختلف (في ذات الوقت) عما تطور عنه . ويكون تطويره في
« عبارات رمزية in terms of symbolization على المستوى
« التطوري البشرى».

والنص الثانى مقتبس من كتاب : فلسفة الحاضر The Philosophy of
the Present ويبين شرح ميدل للأفكار ideas في كلمات تمثل الاستجابات المنظمة
Organized responses ، أكثر من استخدامها لشرح معنى العلامات يقول ميد
في هذا النص :

« يبدو أن هناك جانب من الفكرة في الخبرة التى تستخدم بعض الرموز
« الحسية، وقد تكون من النوع الخيالى imagery أو المتخيل أو
« شيء يمكن رؤيته أو سماعه، أما الجانب الآخر من الفكرة - الكلى
« المنطقى والميتافيزيقى The logician's and metaphysician's universal
« - فيعود إلى ما أشرت إليه مثل الاستجابات المنظمة التى يمكن

«اختيارها من بين صفات الأشياء عند عزلها عن المواقف التي وقعت فيها هذه»

«الأشياء وعلى وجه الخصوص كما يحدث في الاستجابات المعتادة»
«بالنسبة للموضوعات المألوفة التي تكون أفكارنا عن هذه الموضوعات»
«.. واستجابة الكائن الحي لهذه الاستجابات المنظمة في علاقتها»
«بالموضوعات كما يحدث في الجوانب الأخرى من عالمها. وهكذا فإن»
«هذه الاستجابات تصبح موضوعات بالنسبة للفرد»⁽¹²⁾.

إن أهم إسهامات ميد في نظرية العلامات هي تحليله (الذي اعتمد فيه) على السلوك الذي يرمز إلى اللغة، وتفصيله للدور الرئيسي لمثل هذه الرموز (على ضوء) تطورها ومحافظةها على حياة الفرد والمستويات الأعلى للمجتمع الإنساني. وسوف نتناول أهمية هذه النواحي في فكر ميد فيما بعد .

37 . p 8 - جون ديوي . ولغة القيمة :

كان جون ديوي من أكثر البرجماتيين الذين عنوا أكثر بمشكلات القيمة Problems Value . فقد تناول على المدى الطويل الأخلاق Ethics ، والفلسفة الاجتماعية Social philosophy ، والتربية Education ، وعلم الجمال Aesthetics ، وعلى المدى القصير الدين Religion ، وسوف نعنئ ببعض تفاصيل هذه الموضوعات في الفصل الأخير (من هذا الكتاب) . أما ما يتصل هنا بموضوعنا ، فهو أن شخصاً كهذا يمثل هذه التوجهات، (يتناول) مشكلة

(12) ميد ، «فلسفة الحاضر» ، ص ص 75 - 76 .

مصطلحات وأحكام معنى القيم (مثل «الحير» Good وما «ينبغي» ought . وذلك من خلال بعض استخداماتها ، فتصبح «أحكام القيمة» Judgments of value وأحكام الإلزام Judgments of obligation هما محور الاهتمام . وقد تأثر ديوى كثيراً بمعالجة ميد للغة ، إلا أن ميد (نفسه) لم يتناول على وجه الخصوص مصطلحات القيمة ، بينما تزايد تأثير بيرس على ديوى (بعد تأثير ميد في هذه الموضوعات خاصة)⁽¹³⁾ ، ولم يطبق بيرس القضية البرجماتية على عبارات القيم بوضوح ، وإذا كان قد تمكن من تطبيقها فإن هذا الأمر مثير تساؤل ، ولكن ديوى لم يشرع في هذا الطريق . وكتب عن بيرس : «إن المنهج البرجماتي الذي طوّره يطبق فعلاً على نطاق ضيق ومحدود في عالم الخطابة Universe of discourse⁽¹⁴⁾ ، لذلك ذهب ديوى في تحليل مصطلحات القيمة والأحكام ، على وجه الخصوص - على طريقته الخاصة .

قام ديوى بتحليله الأول في بحث مكوّن من ثلاثة أجزاء بعنوان : «منطق أحكام الممارسة» The Logic of Judgments of Practice ، حيث قام بتعريف

(13) أنظر عبارة ديوى المقتبسة في كتابي «ست نظريات عن العقل» Six theories of Mind (ص 322) وهي مأخوذة عن خطاب لجورج ديوى يقول فيه «أنني سعيد فقد ساق ميد العبارة التي كنت أريد أن أقولها بطريقة أقوى ، ولا شك أنها تنتسب لكل من بيرس ورويس ، لكن بعد نسبتها إلى ميد» .

أنظر : الفصل الخامس بعنوان : الطبيعة والاتصال» Nature and Communication في كتاب ديوى «الخبرة والطبيعة» Experience and nature ، وبه نقاط هامة كثيرة تتناول طريقة معالجة ميد للغة .

(14) انظر : مقال جون ديوى «تطور البرجماتية الأمريكية» -The Development of American Pragmatism ، وقد نشر المقال في الأصل باللغة الفرنسية عام 1922 .

ممارسة الفعل كحكم بالطريقة الآتية :

« يتم تنفيذ الفعل وفقاً لأحكام الموقف وطبقاً لجدول زمنى Agenda »
« وذلك للقيام بأفعال .. أو تلك التى يجب فعلها . فيوجد ، على »
« سبيل المثال قضايا الصورة أو الشكل Propositions of the form »
« مثال م. ن يجب أن يفعل كذا وكذا ، فمن الأفضل ، والأكثر تعقلاً » p. 38
« وحكمة والأصح ، ومن المتحسن ، والاكثر ملائمة ، والأكثر نفعاً.. الخ »
« أن نفعل كذا وكذا ، وهذا هو نوع الحكم الذي أصادق على أنه »
« حكم عملى ⁽¹⁵⁾ » .

يحتوى حكم الممارسة بالنسبة للموضوع على مشكلة يجب حلها ، لهذا كتب
ديوى أن الحكم حكم مزدوج binary :

« إنه حكم بمعنى أن المعطى يجب معاملته معاملة خاصة. وهو أيضا حكم »
« بمعنى أن المعطى يسمح بمثل هذا التناول، أى يسمح بحكم موضوعى »
« محدد. إنه حكم - (يتناول) نفس التسلسل - خاص بالهدف، أى »
« يجب أن تكون هناك نتيجة له ذات معنى ⁽¹⁶⁾ » .

ويعتبر ديوى أن حكم القيمة بهذا التحليل أداة لحكم الممارسة، ويقول :
« .. ولكى نقول أن أحكام القيمة تقع داخل هذا الإطار فيجب أن نقوله »
« لشئين: الاول : أن حكم القيمة لا يكون كاملاً في ذاته أبداً، ولكنه »
يعتمد على تعميم ما يجب عمله ، والثاني : أن أحكام القيمة (كأحكام

(15) ديوى «مقالات في المنطق التجريبي» Essays in Experimental Logic ، ص 335

(16) المصدر السابق ، ص 340 .

«تختلف عن الخبرة المباشرة لموضوع ما على أنه خير) وتتضمن أن «
«القيمة ليست هي أى موضوع معطى مسبقاً، ولكنها موضوع يعطى «
«لقاء فعل يقع في المستقبل .»⁽¹⁷⁾

ولقد ذهب ديوى إلى أبعد من ذلك في تحليله المبكر : فقد اقترح أن كل
«أحكام الواقع» Judgments of fact (عبارات اثبات وصفية وعلمية) تنفصل
عن أحكام الممارسة (ممارسة الفعل) Judgments of practice ، (يقول ديوى) :
«يمكننا أن نكون على الأقل فرض مؤداه أن كل أحكام الواقع لها دلالة»
«على تحديد determination مجريات الفعل يتم تجريتها واكتشاف»
«المعاني الواقعية منها، وبناءً على المعنى الذي سبق شرحه فإن كل «
«كل القضايا ، التى نتجت عنها الاكتشافات discoveries أو تحققت»
«بالتجربة ascertainments وكل القضايا المطلقة Categorical
propositions ستصبح افتراضية (شرطية) Hypothetical ... ويمكن»
«أن نسمى هذه النظرية بالبرجماتية Pragmatism ولكنها نوع من»
«البرجماتية التى لا تعتمد تماماً على علم النفس الإرادي A volun»
«taristic psychology وهى ليست معقدة مثل عمليات الاشباع»
«العاطفية emotional satisfaction أو لعبة الرغبات The Play of
desires»⁽¹⁸⁾

(17) المصدر السابق ، ص 361 .

(18) المصدر السابق ، ص 347 . ونلاحظ أن لفظ «دلالة» Reference في هذا النص تعبير
مضلل إلى حد ما ، فهو قد يبين ببساطة أن أحكام الواقع هي أحكام الممارسة.

لا يأتى ديوى على تأكيد أحكام الممارسة دائماً بنفس العبارات (المصطلحات) دائماً ، ففي نظريته عن التقويم Theory of valuation يعلن عن رضا أن الاحكام العملية يمكن أن تقوم على أساس «أحكام واقعية Factual judgment ، وفي بحث متأخر بعنوان : «مجال القيمة» The field of Value ذهب ديوى الى عكس ما أكده في منطق أحكام الممارسة The Logic of Judgments of Practice وقال إن الأحكام العملية هي أحكام لا تختلف مطلقاً في نوعها عن الأحكام الواقعية (حيث يستخدم بصفة أساسية لكي تجعل الاتجاهات Attitudes لا تختلف في محتواها عن الأحكام (الأخرى) .

وطالما أن بيرس لم يطور بأي نوع من أنواع التفصيل تحليله الذي تناول بها عبارات القيم والأحكام، وطالما أن ديوى لم يستخدم الأطر العملية لنظرية العلامات لدى بيرس ، فإنه من الصعوبة بمكان أن نقارن بدقة بين الرجلين في هذه القضايا⁽¹⁹⁾ . ولا تبدو هذه الفروق بينهما بهذا الاتساع الذي يراه ديوى في ملاحظاته بالمعنى الضيق الذي اقترحه بيرس في القضية البرجماتية Pragmatic

(19) يميز بيرس بين ثلاثة أنواع من المفسرات للرموز interpretants of symbols وهي : الانفعالي emotional والعقلي (الميكانيكي) The energetic والمنطقي The logical . (انظر المجلد الخامس ، الفقرتان 475 - 476 . والمجلد الثامن الفقرتان 314 - 315) فهل تعد هذه الرموز هي الأسس الممكنة للفروق بين معانى أحكام القيمة والإلزام والواقع (الحقيقة) .. Judgments of value, of obligation and of fact وتناول بيرس هذه المفسرات الثلاثة بطريقة التجزئة لكي يبين أن مثل هذه العلاقة سيكون لها شأن جليل وربما تكون هذه المفسرات أقرب إلى مقولات بيرس المعروفة وهي Firstness و (Thirddness) و secondness منها إلى الدلالة الوصفية والتقييمية Appraisive and prescrip-

maxim ، ويعطينا تحليل ديوى الواضح تعبيرات القيمة والأحكام وعلى وجه التخصيص «معنى ذهنياً» Intellectual purport بالمعنى الذي يستخدمه بيرس في تعبيره، وسيوافق بيرس على هذه النقطة بالتأكيد . (كما يفعل حقاً جميع البرجماتيين). ولست متأكداً تماماً من أن القضية البرجماتية (التي ذكرها) بيرس لا تشتمل على تحليل ديوى ، ولكنها لم تكن لتستطيع (ذلك) ، لأن نتيجة بيرس يمكن بالتأكيد أن تكون نتيجة ساهمت في تأكيد الذات المعقولة (أو معقولة الذات) ، ويذكر بيرس عَرَضاً طبيعة البرجماتية بطريقة تكاد تتطابق مع العبارة التي ذكرناها لديوى . وهكذا يكتب بيرس :

«البرجماتية هي المبدأ (القائل) بأن كل حكم نظري يُعبر به (باستخدام) «
«صيغة دلالية هي صورة مضطربة له من الفكر، وتكمن معانيها»
« - إذا كان لها معان - في ميلها نحو تدعيم قضية عملية »
p . 40 «مماثلة معبر عنها بعبارة شرطية تحتوى في ذاتها على التسليم»
«بالصيغة الضرورية الإلزامية» (20) .

ويبدو أنه من العدل أن نختتم (الحديث بقولنا أن) ديوى يبين بطريقة أكثر وضوحاً بعض أوجه معنى تعبيرات القيمة والأحكام التي تتوافق مع النظرية

(20) بيرس ، المجلد الخامس ، الفقرة 18 .

العامة للعلامات لدى بيرس ، والتي لم يطورها بيرس نفسه بالتفصيل على وجه الخصوص.⁽²¹⁾

9 - تعقيب على نظرية العلامات البرجماتية

شملت الصحائف السابقة كل ما قالته الحركة البرجماتية عن العلامات Signs ، حقاً إنه بمعنى خاص تقريباً (قيل) أن كل موضوع في هذه الحركة له علاقة - سواء مباشرة أم غير مباشرة - بنظرية العلامات Semiotic طالما أن الحركة كلها موجهة نحو موضوع المعنى . وسوف نتوسع في عدد من النقاط الخاصة في المناقشات (المتناولة) في الفصول القادمة وما استفدناه منها . ولكن ما قيل يسمح بمراجعة أو تعقيب عام على الموقف .

والنقطة الأكثر أهمية (التي نود التركيز عليها) هي أن البرجماتية - أكثر من أي فلسفة أخرى تضمنت نظرية العلامات في نظرية الفعل أو السلوك ، فعلاقة العلامة بالنسبة لما تعنيه دائماً ما تكون المفسر المتضمن في الوسيط mediation ، والمفسر هو فعل أو نزوع نحو الفعل عند الكائن الحي .

(21) نجد شرحاً وافياً لموقف ديوى من هذه الموضوعات في الأعمال التي لها علاقة بالفن مثل : «الفن كخبرة» ويحتوى على تمييز بين الحس sense و «الدلالة المجردة» signification ويعنى بلفظ «الحس» المعنى الذي يمكن التعبير عنه The expressive meaning في العمل الفني ، كما يمكن أن نجد تفسيراً للعلامة كتصور مقترح في الفصل الرابع ، الجزء الثامن من هذا الكتاب .

وقد حدد بيرس المجال العام لنظرية العلامات وتحرك في الاتجاه الذي أعطاه أسس سلوكية أو فعلية actional ، كما رأينا في الصيغة التي وضعها للقضية p . 41 البرجماتية. هذا الأساس السلوكي ، وعلى وجه الخصوص في مجال اللغة، كان أكثر وضوحًا في عمل ميد. فقد درس بيرس نفسه بالتفصيل جزء يسير من نظرية العلامات التي تصورها ، ولكنه لم يدرس نظرية علامات الدليل والصورة The theory of indexical and icon signs إلى المدى الذي قام به في نظرية الرموز The theory of symbols ، وحتى في نظرية الرموز كان تركيزه أكبر على نوع الرموز التي يمكن استخدامها تقريبًا في أي برهان argument (يعتمد على الرموز الذهنية) intellectual symbols ، ويبدو أنه اعتقد أن الرموز التي في الفن والأخلاق والدين هي من هذا النوع، إلا أنه لم يتناول أبدًا مثل هذه الرموز بطريقة كافية لكي يقيم البرهان على هذا الموقف. فقد كان تأكيده أولاً على الناحية الدلالية للرموز، وعلاقة هذا الجانب بالدلالة الوصفية والتقييمية (واستخداماتها المتعددة) لذلك وظلت غير متطورة نسبيًا.

واهتم جيمس على العكس من ذلك بمعاني العبارات الأخلاقية والدينية والوظائف التي تؤديها في سلوك الفرد في الحياة، ولكنه لم يتوسع في نظرية العلامات بنفس الطريقة التي عطل فيها مثل تلك العبارات الملحة ، ولكنه فسّر القضية البرجماتية لدى بيرس بطريقة تخدم اهتماماته هو ، مما أدى ببيرس إلى تغيير موقعه من البرجماتية Pragmatism إلى البرجماتية Pragmaticism .

وكان ديوى - باهتمام مشابه لإهتمام جيمس - أكثر وضوحًا في تحليله واعتقد في توسيع نظرية المعنى لدى بيرس عن طريق تحليل «أحكام الممارسة» (أحكام ما ينبغي عمله) . وإذا كان لدى ديوى الكثير ليقوله عن عبارات القيمة والأحكام الواضحة المتميزة ، إلا أن الحقيقة هي أنه لم يقم بتبسيط

نظرياته داخل إطار نظرية العلامات العامة مما جعل من الصعوبة بمكان أن نقارن نظرياته بنظريات بيرس، وأن نجيب على ما يشار من تساؤلات حول علاقات المفسرات بمثل هذه العبارات (المصطلحات) مثل «الخير» Good و «وما ينبغي» p. 42 ببعضها البعض،⁽²²⁾ وما توصل إليه بيرس عن مفسرات الرموز.

وعلى الرغم من أن البرجماتيين الآخرين لم يكتبوا بوضوح عن نظرية العلامات العامة (السيمائية) لدى بيرس، فإنه من الواضح أن نظرياتهم عن «المعنى» يمكن أن تعتبر - إذا استرجعناها - كما لو كانت تملأ الفجوات الموجودة في مجال نظرية العلامات والتي حددها بيرس. ونظرية العلامات الموسعة هذه لم تعنون بمثل هذا الاسم، ولم تنظم بطريقة نسقية، إلا أنها تحتوي على كثير من المواد التي تناولت نظرية الدلالة الوصفية، والتقييمية والمعنى من وجهة نظر معينة، وبعض استخدامات وظائف العلامات في السلوك الفردي والاجتماعي. إنها على أية حال نظرية «كاملة» عن العلامات، وقد أهملت أقطاباً كثيرة من الكلام، وتم إساعة توظيف العلامات في حياة الفرد والمجتمع مما جعل (الكثيرون) يجهلونها وعلى نطاق واسع. ورغم ذلك فإن نظرية العلامات في

(22) قام سي. آي. لويس C. I. Lewis بالتمييز الحاد بين «الخير» Good و «ما ينبغي» ought. وبالتالي بين أحكام القيمة وأحكام الإلزام أكثر مما فعله ديوى. فالأول (لويس) تناول التمييز في كتابه «تحليل المعرفة والتقييم» An Analysis of knowledge and valuation والأخير (ديوى) اقترب منه بطريقة أولية (مبكرة) في كتابه «الأساس وطبيعة الحق» The Ground and Nature of the right. هنا بالاضافة إلى كتاب آخر للويس بعنوان «العقل ونظام العالم» Mind And world Order، وبهذا قدم لنا إسهامات هامة شملت جميع النظريات التي عالجت نظرية العلامات البرجماتية.

الحركة البرجماتية وضعت الأسس - نسبياً - لمجال البحث على نطاق واسع وهو ما تتصف به الأنشطة الحالية في هذا المجال . وفتحت نظرية العلامات - مثل معظم خصائص الحركة البرجماتية - بـا سلكته من طرق فتحت الباب لمجالات أوسع مما اكتشفتها هي ذاتها ⁽²³⁾ .

(23) يمكن اعتبار كتابي «العلامات واللفة والسلوك» مضافاً إليه كتابي الأخير بعنوان «المعنى والمغزى» Signification and significance كتابان يسهمان في شرح البحوث التي صدرت عن «نظرية العلامات» التي قدسها الفلاسفة البرجماتيون على اختلاف مشاربهم، فلم أكتبهما وفي عقلي هدف مسبق .

وقد بدأ عملي ابتداءً من ميد وليس من بيرس حيث جاء تأثير كل من ديوى ولويس وبيرس ورودولف كارناب فيما بعد وبنفس الترتيب الذي ذكرته الآن .

الفصل الثالث

الميثودولوجي (علم المناهج) البرجماتي

الفصل الثالث

الميثودولوجي (علم المناهج) البرجماتي

p. 48 1 - توجه عام

البرجماتيون أنفسهم لا يستخدمون مصطلح الميثودولوجي «علم المناهج» كثيراً بالمعنى الذي يرد في المشكلة التي تسمى تقليدياً بالإستمولوجيا (نظرية المعرفة The theory of knowledge) ، ولكن طالما أن هناك تصورات كثيرة عن الإستمولوجيا التقليدية والحديثة يرفضها البرجماتيون، فإنه سيكون مضللاً أن نستخدم مصطلح الإستمولوجيا كعنوان لهذا الفصل. ويمكن أن يكون العنوان المناسب هو «نظرية البحث البرجماتي» Pragmatic theory of inquiry ، ولكن أسباب (استخدامه) ستتضح عندما يتقدم بنا التحليل .

وغالباً ما يستخدم البرجماتيون مصطلح الإستمولوجيا بطريقة مذمومة، وكأنهم يشيرون إلى شيء ما عليهم تجنبه في الواقع . ويرجع هذا إلى ديكارت، وأكثر إلى فلسفة ما بعد الديكارتية Post - Cartesian Philosophy ، وفهمت الإستمولوجيا على أنها مشكلة تختص بكيفية استدلال الشخص من معرفة حدسية تختص بحالاته العقلية (الذهنية) الخاصة Private mental states إلى وجود العقول الأخرى والموضوعات غير العقلية (غير الذهنية) nonmental objects . وأحياناً تذكر المشكلة في صورة مصطلحات «الخبرة» ، وكيف يتجاوز الشخص الذي يعرف خبرته الذاتية ، طالما أنه يعتقد أن الخبرة حالة «عقلية» mental و «ذاتية» subjective (في آن واحد) .

وقد اعتبر البرجماتيون هذه (المشكلة) مشكلة زائفة Pseudoproblem تقوم على تصورات زائفة من الخبرة والمعرفة والعقل ، ولهذا فطالما التصقت هذه المشكلة بالإبستمولوجيا ، فقد أصبح البرجماتيون يحاولون تجنب استخدام المصطلح ، وصاغوا «نظرية المعرفة» الخاصة بهم في مصطلحات مختلفة من حيث تصور الخبرة والعقل .

وكانت الحركة البرجماتية منذ البداية تعادى الفلسفة الديكارتية بصفة أساسية ، وتعادى تلك النظريات الخاصة بالتجريبية الانجليزية التي تشترك مع الديكارتية Cartesianism ، وحاول بيرس في ثلاث مقالات طويلة نشرها عام 1868 في «مجلة الفلسفة التصورية أو النظرية» Journal of speculative Philosophy أن يصيغ «الروح الديكارتية» The spirit of cartesianism ، وأنكر بالبرهان الطويل المبادئ الرئيسية التي تقوم عليها ⁽¹⁾ . وذكر النتائج التي توصل إليها في المجلد الخامس ، الفقرة 265. وهذه النتائج هي :

(1) عناوين المقالات الثلاث هي : «تساؤلات تتعلق ببعض الملكات الخاصة بالإنسان» Questions Concerning Faculties Claimed for man ، و «بعض النتائج لأربع قدرات عاجزة» Some consequences of four Incapacities ، و «أسس صلاحية قوانين المنطق» Grounds of Validity of the Laws of Logic ، و «نتائج أخرى لأربع قدرات عاجزة» Further Consequences of four incapacities ، وتوجد هذه المقالات في مجموعة الأبحاث Collected Papers الخاصة ببيرس ، المجلد الخامس الفقرات 213-357 . ولم يركز بيرس هجومه في هذه المقالات على فكرة الجوهر Substance الديكارتية ، كما أنه لم يذكر وجهة نظره الخاصة بما هو «نفسى» Psychical ، وما هو «مادى فيزيقي» Physical ولكنه وجه جلّ اهتمامه نحو الإبستمولوجيا الديكارتية. وهناك مناقشات أخرى متأخرة نشرها بيرس وذكر فيها أسباب رفضه لنظرية المعرفة الديكارتية .

- ١ - ليس لدينا فكرة عن الاستبطان Introspection ، ولكن كل معرفتنا عن العالم الداخلي تنبثق من الاستدلال الفرضي (الشرطي) hypothe tical reasoning الذي يتناول معرفتنا بالوقائع الخارجية .
- ٢ - ليس لدينا فكرة عن الحدس intuition ، ولكن كل معرفة يمكن تحديدها منطقياً عن طريق المعارف السابقة (*) .
- ٣ - ليس لدينا فكرة عن التفكير بدون (استخدام) العلامات Signs .
- ٤ - ليس لدينا تصور عن اللامعروفة المطلقة The absolutely incognisable .
- ومن ثم فإنه بالنسبة للمعرفة عند بيرس لم تكن لتفهم على أنها عملية تستند الى المعرفة الحدسية لأنفسنا والتي نحاول بطريقة ما أن تشمل على الموضوعات الأخرى الخارجة عن ذاتنا التي لم نحدسها . ولكن اذا كان العلم، وما ينتج عنه من معرفة knowledge لم ندركه داخل إطار الفلسفة الديكارتية، p. 50 فأين وكيف تمت دراستها ؟ (ومن ثم) فإن الإجابة القاطعة للحركة البرجماتية نجدها في دراسة «البحث» وهي تختص «بالبحث في البحث» By inquiry into inquiry .

2. - تصور بيرس للبحث

وضع بيرس تصوره الأساسي عن البحث في مقاله الذي أصدره عام 1877 بعنوان «تثبيت الاعتقاد» The Fixation of Belief ، والموقف (الذي أخذه

(*) نذكر هنا أهمية الخبرة في المعرفة البرجماتية. (المترجم) .

بيرس كما صوره ماكس فيش Max H. Fisch قريب للغاية من موقف عالم النفس الانجليزي «الكسندر بين» (*) Alexander Bain ، وقد قوم بيرس أفكاره المبكرة عندما تقدمت به السن والمعرفة ، الى الحد الذي جعل بعض المعلقين على فلسفته يعتبرون هذا التقويم بمثابة نظرية أخرى في البحث (2) . ولكن الصيغة الأصلية التي لها مثل هذه الأهمية التاريخية في تطور البرجماتية والتي يجب أن ننظر إليها هنا على إنها الأساس ، هي غالباً ما نسميها «نظرية الشك / الاعتقاد في البحث» The doubt/ belief theory of inquiry . وقد استخدم مصطلح «البحث» inquiry في مقال عام 1877 لكى يشير إلى To denote الصراع (الذي نشب) لكى يتجاوز حالة إثارة الشك The irritation of doubt إلى حالة الاعتقاد (اليقين) State of belief ، وعلى الرغم من اعتراف بيرس بأن «هذا لا يلائم في بعض الأحيان ما كان يقصده» (**). (المجلد الخامس ، الفقرة 374) واستمر بيرس يقول :

«إن إثارة حالة الشك هو الدافع المباشر الوحيد من الصراع وذلك لأرساء»

(*) الكسندر بين (1818 - 1903) كان من أبرز تلاميذ جون ستيوارت مل ، وكان أستاذاً بجامعة أبردين ، وله عدة كتب منها : «الحواس والعقل» 1885 و «الانفعالات والارادة» (1859) و «الروح والجسم» (1873) و «المنطق» (1875) ساهم في «منطق» مل وله «ترجمة لحياة ستيوارت مل» . (انظر تاريخ الفلسفة الحديثة ، يوسف كرم ، ص 350 (المترجم) .

(2) أنظر بحث موراي جى . مورفى Murray G. Murphey «تطور فلسفة بيرس» The development of Peirce's Philosophy لتتعرف أكثر على نظرية البحث وتطورها عند بيرس .

(**) Inquiry معناها المؤلف البحث كالبحث العلمى مثلاً ، ولكن بيرس يستعملها بمعنى الرغبة في الانتقال من حالة الشك الى حالة الاعتقاد ، وعند ديوى تعنى الرغبة في تغير الواقع تغييراً يكون أكثر تحقيقاً لمصالح الانسان» . د. زكى نجيب محمود ، حياة الفكر في العالم الجديد ، ص 133 . (المترجم) .

«(قواعد) الاعتقاد (اليقين) ولهذا ، فإنه بحالة الشك إذا يبدأ»
«الصراع وبالتوقف عن الشك ينتهى ، ولهذا (أيضا) فإن الموضوع»
«الوحيد للبحث هو تثبيت اليقين The settlement of Opinion
(المجلد الخامس ، الفقرة 375) .»

إذن لقد أخذ بيرس في إعتباره أربعة مناهج لتثبيت الاعتقاد . ففي منهج
العناد The method of tenacity يحاول الإنسان ببساطة أن يثير الشك بجهد
غامض لاعادة الثبات، وبهذا يداوم على الاعتقاد بلا انقطاع وقد بدأ الإنسان
(من تسبل) بالشك . وفي منهج السلطة The method of authority يبحث
p. 51 الإنسان عن إثارة حالة من الشك عن طريق إخضاع معتقداته لإحدى السلطات
المقبولة . وفي المنهج القبلى The priori method يقبل الإنسان بعد البرهنة
تلك الاعتقادات التى يجدها أكثر ملائمة، فالإنسان يعتقد «فيما هو متعلق
بالفكر» (المجلد الخامس ، الفقرة 385) . ويذكر بيرس أن معظم الفلاسفة
انتهجوا المنهج القبلى، ويعطينا مثالا على ذلك بديكارت على وجه الخصوص
(المجلد الخامس ، الفقرة 391) . أما المنهج الرابع ، والذي يقبله بيرس ذاته ،
وسخره في مجال الفلسفة ، فهو منهج العلم The method of science .

ولم يحاول بيرس في مقاله «تثبيت الاعتقاد» أن يصف المنهج العلمى
بشيء من التفصيل ، فإن ذلك تم في مقالات أخرى بالفعل في أعمال بيرس
ككل، ولكنه أورد فكرة عامة عن المنهج العلمى نتبينها فيما يلى من عبارات :
«إنه المنهج الذى تمكننا به من تحديد معتقداتنا عن طريقه ولا يمت
«للإنسان بصلة، ولكنه يمت بصلة لديمومة خارجية، (أى) لشيء»
«ليس لفكرنا تأثير عليه ... فهو يجب أن يكون شيء ما ذا تأثيرات»
«أو ينبسقى أن يؤثر - على كل انسان ، وعلى الرغم من أن تلك»

«المشاعر الضرورية مثلها مثل العديد من الحالات الفردية ، فإنه مع»
«ذلك يعتبر المنهج الذي يصبح نتائجه النهائية بالنسبة لكل انسان »
«هى نفسها ، وهذا هو المنهج العلمى .
(المجلد الخامس ، الفقرة 384) .

إن المنهج العلمى - كما يفهم - هو المنهج الذى اذا اتبع باستمرار يؤدي بالضرورة بكل باحث علمى الى نفس النتيجة.

(أما) علاقة الاعتقاد بالعادة Habit فإنها تطورت فى المقال الذي صاحب ظهور (المقال الأول) «كيف نجعل أفكارنا واضحة» (أو كيف نوضح أفكارنا) How to Make our ideas clear الذي ظهر بعد سنة (من ظهور المقال الاول) وفى نفس المجلة ، فلدينا هنا - كما لاحظنا من قبل فى الفصل السابق - الصيغة المبكرة (الأولى) عن القضية البرجماتية، وعلى الرغم من هذا فإن هذا العنوان Label لم يستخدم بعد. ومن ثم فإن التأكيد الذي ذكره «بين» Bain عن العلاقة بين الاعتقاد والعادة يظهر الآن بصورة قوية :

p. 52 «إن الوظيفة الكلية للفكر هي ايجاد عادات من الفعل ، ... فإن ما »
«يعنيه الشيء هو ببساطة ما تتضمنه العادة .. فلا يوجد تمييز في»
«المعنى يكون أكثر اتساقا من وجوده فى أى شيء آخر ، ولكن الفرق»
«الممكن يظهر من خلال الممارسة » .

(المجلد الخامس ، الفقرة 400) .

وقد لاحظنا فى الفصل السابق رد فعل بيرس بازاء هذه الصيغة عن المعنى، وتوسيعه له لكى يربط بين محاولة الإصلاح وتحقيق هدف معقولة الذات reasonable Concrete reason ونلاحظ الآن أن نظريته فى البحث تتغير

بطريقة مشابهة Correspondingly altered⁽³⁾ . وقيل فيما بعد أن البحث يكون مدفوعاً «بالانجذاب نحو الفكرة ذاتها» (المجلد السادس، الفقرة 307) ، ومن المفترض أن الأفكار إنما تكون جذابة طبقاً لما لها من قدرة على الاسهام بقدر من الجاذبية الجوهرية والنهائية التي تنسب الى معقولية الذات ... وقرسخ التأكيد الأساس على البحث مثل التأكيد على ذوبان الشك في الإعتقاد، لكي يحل محله البحث داخل الميتافيزيقا المثالية عند بيرس . وبالطبع، فإن هذه (النظرية) كانت نظرية جيمس المبكرة عن البحث ، قبل أن تظهر التعقييدات المتأخرة في فكره والتي تركت تأثيرها على التطور التاريخي لنظرية البحث البرجماتية .

3 - آراء ديوى في البحث

صدرت دراسة منطق ديوى عام 1938 بعنوان : «نظرية البحث» The Theory of inquiry ويعتبر من أكثر الصيغ نضجاً في مجال علم المناهج «الميثودولوجيا» ، ولكن إستمراراً للاتجاه الذي أشار اليه في أعماله المبكرة مثل «مقالات في المنطق التجريبي» Essays in Experimental Logic و «كيف نفكر» How we think ، فإن هناك دليل على أن مقال بيرس «تشبييت الإعتقاد» ترك تأثيره على ديوى في عمله المبكر ، وحتى في كتابه «المنطق» Logic حيث كان معنياً بأن يؤكد بالدليل على وجه الشبه بين آرائه في «المنطق» بتلك لدى بيرس ، وكان أحد مراجعه الأساسية التي أشار فيها لبيرس المادة (التي وجدها) في بحث «تشبييت الاعتقاد»⁽⁴⁾ . وهناك محاولة لبيان أن أعمال ديوى وبيرس في هذا المجال أعمالاً متكاملة حقاً، وبرغم ذلك فقد كان رد

(3) أنظر ، موراي جى. مورفى، «تطور فلسفة بيرس» ، ص ص 356-64 .

(4) أنظر ، ديوى ، والمنطق ، ص 14 رقم 4 .

الفعل عند بيرس عنيقاً ضد الصيغة التي كتبها ديوى مبكراً عن موقفه (موقف ديوى)، ومع ذلك فإنه يوجد بعض الفروق الأساسية والهامة لتأكيد ذلك ، ويجب ملاحظتها أولاً .

وأحد هذه (الفروق) يدور حول تأكيد ديوى في «المنطق» على الخاصية الإشكالية للموقف كبحث أساسي Problematic Character of a situation as initiating inquiry أكثر من تأكيده على الحالة السيكلوجية (النفسية) للشك. وفي الصفحات الأولى من كتابه «المنطق» كتب عن البحث بإعتباره الوسيلة لإثبات الانتقال من «الموقف غير المحدد» an indeterminate situation إلى «الموقف المحدد» determinate situation ولكن بتقديم برهانه هذا أصبح من الواضح أن ذلك «غير المحدد» يمكن أن يعالج الإشكالية Problematic ، وأن الخاصية الإشكالية للموقف تتضمن اضطراب الفعل المستمر⁽⁵⁾ وعلى الرغم من أن التأكيد يختلف نوعاً ما بهذا الشكل عن الصيغة المبكرة لبيرس ، فإن الشك يبدو أنه يتضمن اضطراب unsettling الإقحاج المعتاد للفعل .

وهناك فرق آخر يأتي عن طريق التأكيد على «الموقف» Situation ، فإذا كان اضطراب الفعل متضمن في موقف بعينه ، إذن فإن حل البحث سيفترض أنه موجود (أيضاً) في استمرار الفعل بازاء هذا الموقف المحدد .. وقد حاول باحث ما أن يبرهن على أن بيرس يجب أن يقف نفس الموقف ، طالما أن الشك المحدد

(5) يبدو هذا أكثر وضوحاً في حالة هربرت ميد ، فبالنسبة إليه فإن الإشكالية تعود إما إلى موقف لم يجد المثيرات المناسبة لكي يتجه نحو الفعل المستقبلي ، أو إلى الصراع الدائر بين مختلف اتجاهات السلوك .

انظر: مقال «نظرية الصدق البرجماتية» A Pragmatic Theory of Truth .

يجب أن يكون له موضع محدد وإثبات محدد ، ومع ذلك فإن بيرس في الحقيقة لم يؤكد على باحثين بعينهم في مواقف بعينها ، ولكن جاء تأكيد على مجموعة من الباحثين ، أما «العادة» التي يكونها البحث وموضوعها فقد ساقها لنا p. 54 بيرس في عبارات مثل : «كيف يمكن أن تؤدي بنا إلى الفعل ، ليس فقط تحت مثل هذه الظروف كما يبدو لنا أنها نشأت ، ولكن تحت ظروف يمكنها أن تحدث فيها ، ولا يهم كيف يمكن أن تكون بعيدة الاحتمال (المجلد الخامس ، الفقرة 400) ، وسوف يتبين لنا الفرق الذي نشأ عن هذا التأكيد في مناقشات متأخرة عن الصدق Truth ونظرية المعرفة Knowledge . و مئير ديوى بين «الحكم» و «القضية» مما مكّنه - على الأقل إلى درجة ما - من أن يجد مكاناً في تقديره لتأكيد بيرس Peirce emphasis ، ومع ذلك فإن التأكيد على أفاط محددة من المواقف تستدعي بحثاً محدداً ، وهو ما نجده عند ديوى (وعند جيمس وميد) ، وهو أحد التناقضات البارزة بين بيرس وباقي البرجماتيين الكبار .

(ويتمثل الفرق) الثالث ، وربما كان الفرق الأكثر أهمية في موقف ديوى من أن «الحكم» يعتبر هو التحول الحقيقي من موقف «الإشكالية» غير المحددة إلى موقف «الاشكالية» المحددة . (و «القضية» الأخيرة التي تتناقض مع الحكم ، هي فقط القضية التي (تستخدم) التعبير الرمزي في الحكم ، ولهذا تظل ممكنة الاستخدام في مواقف أخرى ⁽⁶⁾ . وهنا يوجد شيء ما متناقض تقريباً وهو : أنه بالنسبة لبيرس - كعالم تجريبي - فإن البحث ينتهي (بأحداث) تغير في الاعتقاد ، وبالنسبة لديوى - وهو ليس عالماً تجريبياً ينتهي به البحث إلى تغير

(6) ان فكرة تمييز الحكم من القضية - وهي فكرة مهيمنة على عقل وكتابات ديوى - ليست فكرة تقليدية . وبالنسبة لى (تشارلز موريس) فهي على الأقل فكرة بنشأ عنها بعض الصعوبات وبالتالي لم تؤكد عليها في حديثي . ولناقشة هذا الموضوع انظر أبحاث متعددة عن ==

في الموقف . ويبدو انه كما لو كان ديوى أكثر «تجريبية» من بيرس . والآن (نجد) أن بيرس ذاته يصر في مجال القضية البرجماتية على أن المعنى يجب أن يتضمن في الفعل ، ولكن مثل هذا الفعل كان ضروريا لكي نحصل على دليل حسي للبرهنة على تكوين اعتقاد جديد ، بينما يتضمن هذا (الرأي) - على أية حال - تغيير في الموقف المباشر ، والتغير ليس - كما لدى ديوى - تحويلا في الموقف ذاته من «الاشكالية» إلى «اللااشكالية» .

إن الفروق الثلاثة التي بيناها (فروقا) أساسية وهامة. أنها تبدو أن لها p. 55 علاقة بالواقع fact الذي يتوجه اليه اهتمام ديوى ومنه إلى البحث الأخلاقي ، بينما يتوجه اهتمام بيرس الي البحث كما يتناوله العالم الطبيعي ، وبعد الأخذ في الاعتبار علاقة المنطق بالبحث ، فإننا سوف نعود إلى القضية الخاصة لنؤكد على انه بالرغم من أن هذه الفروق مؤكدة ، فإن النظريات العامة لبيرس وديوى بازاء البحث هي نفسها بصفة أساسية .

4 - المنطق والبحث :

إن عنوان أكبر كتب ديوى في هذا المجال هو «المنطق : نظرية البحث» جعل فيه ديوى المنطق ونظرية البحث متطابقان ، وقد اعتقد ديوى بوضوح أنه في هذا الكتاب يعمل على شاكلة بيرس : «فإن بيرس على حد علمي هو أول

== ديوى كتبها إرنست ناجيل في مجلة «هيمنة العقل» Sovereign Reason ، وعلى وجه الخصوص بحث «تجديد ديوى للنظرية المنطقية» Dewey's Reconstruction of Logical Theory

وأنظر ايضا : إتش . إس . ثاير H. S. Thayer «منطق البرجماتية» The Logic of Pragmatism

كاتب في المنطق جعل البحث ومناهجه المصدر الأول والأما سي لموضوع المنطق؟
(المنطق ، ص 9n).

واعتبر ديوى أن مبادئه الخاصة في المنطق (والتي سنعرضها حالا) نقل أمين
عن بيرس (المنطق ، ص 14 ، n. 4) . فكيف يمكن إذن أن نفسر خطاب بيرس
1905 إلى ديوى والذي ذكر فيه أن نظرية ديوى تمنع بالتأكيد تكرار كل الأبحاث
التي من هذا النوع كتلك وهي التي استوعبتها خلال الثمانية عشرة سنة
الآخيرة؟» .

ويتعلق الفرق (بين الفيلسوفين) في جانب منه عند استخدام المصطلحات
Terminological ، فقد استخدم بيرس مصطلح «المنطق» بتوسع أكثر من المعتاد
، واعتبره «بالمعنى العام» general sense مجرد اسم آخر لنظرية العلامات ... ،
شبه ضروري (أوله ضرورة زائفة) The quasi-necessary أو ضروري ، نظرية
العلامات» (المجلد الثاني ، الفقرة 227) ⁽⁷⁾ . وبهذا المعنى العام ينقسم
المنطق (كما لوحظ) الى ثلاثة أقسام فرعية subdivisions ، أحدهما «المنطق
التقدي» critical logic أو «المنطق الخالص» Logic proper ، وهو نظرية
p. 56 الاستدلالات inferences (الابعدى abductive والاستدلالي deductive
والاستقرائي inductive) ، ولكن بيرس أيضا لديه تقسيم آخر لنظرية العلامات
Semiotic (و «المنطق» Logic بالمعنى العام) وقد سمّاه بأسماء متعددة مثل ،
فن الخطابة النظرى Speculative Rhetoric و «ثنائي المنهج» methodentic

(7) لاحظ ديوى نفسه أن «نظرية البحث» inquiry تتضمن رموزاً symbols لأن النظرية
المنطقية تتضمن نظرية في الرموز (المنطق ص ص 19 - 20) ، ولكن الموقف لم تتم معالجته
بالتفصيل.

وكذلك « نظرية في البحث theory of inquiry (المجلد الثاني الفقرة 106) وتحدث في هذا النوع الثالث من التقسيم عن « نظرية العلامات » باعتبارها أعلى قسم للمنطق وأكثره حيوية) .

وبناءً عليه فإن تصور ديوى « للمنطق » على أنه نظرية في البحث يمكن أن يعتبر نوع من التطوير لهذا القسم الثالث من المنطق بالمعنى العام وهو المصطلح الذي اختاره بيرس ، بينما عمل ديوى نفسه ، في مجال المنطق النقدي ، وهكذا فإن الفرق الواضح يتعلق باستخدام المصطلح بصفة أساسية ، وطالما أن معظم المناطق المعاصرة لا يستخدمون « المنطق » بمعنى نظرية البحث ، فإن بعض الأشخاص قد تعاطفوا مع كتاب ديوى (مثل سي . آي . لويس C. I. Lewis) وشعروا بالأسف لأن ديوى استخدم مصطلح « المنطق » كعنوان له . وأعتقد أن ديوى نفسه اعترف بهذا وذكر أنه ربما كان من الأفضل أن يسمى كتابه ببساطة « نظرية البحث » .

وعلى الرغم من ذلك فهناك نقطة تستحق أن تذكرها وهي (أن الفرق) ليس اصطلاحياً ولكنه تاريخياً . فعمل بيرس الرئيسى كمنطقي كان في « المنطق النقدي » وعنى في البداية بتحليل أشكال الاستدلال بالتفصيل . وكان عمل ديوى المبكر هو « المنطق » غير أنه لم يطور أو يؤكد على الناحية «الصورية» في المنطق . وهكذا فإن خوف بيرس من أن نظرية ديوى لن يكون لها مكان حيث أن مجال عمل ديوى الأساسى كان في المنطق على وجه الخصوص . وعلى الرغم من ذلك فإن هذا لم يكن حقيقياً حيث طور ديوى موقفه كما هو في كتابه « المنطق » : « نظرية البحث » .

وبالنسبة لبيرس ، فهناك ثلاثة أشكال للاستدلال هي : الإبعاد (أو الفرض) والاستدلال ، والاستقراء . وفي كل شكل من أشكال القياس كان الاستدلال

يتطلب بالإضافة إلى ذلك قضايا Premises ومبدأ موجه منطقي أو صوري a leading principle.

p. 57 والمبدأ الموجه المنطقي هو عادة أو منهج دائماً ما يوجه إلى «الصدق» أو يوجه إلى تقريب غير محدد نحو «الصدق»، أو هو بوجه عام ، تقريب نحو التحقق من الصدق (بالتجربة). (المجلد الثاني ، الفقرة 354).

إن المبادئ المنطقية الموجهة إما صورية Formal أو مادية Material ، ويتصف النوع الأول بالصدق في كل لحظة يوجد فيها ، وهكذا فإن المبدأ الموجه المنطقي الصوري بالنسبة لقياس بربارا Barbara (كل أ هي ب ، وكل ب هي ج إذن كل أ هي ج) يفسره بيرس على أنه مبدأ عام في نظرية العلامات :

«إذا كانت علامة واحدة تصدق بوجه عام على كل شيء ، فإن كل «شيء يصدق على العلامة الثانية ، وهذه العلامة الثانية تصدق «بوجه عام على كل شيء ، وكل شيء يصدق على العلامة الثالثة» «إذن فإن الأولى تصدق بوجه عام على كل شيء وبالتالي يصدق «على العلامة الثالثة» .

(المجلد الخامس ، الفقرة 320) .

ما هو مكان مثل هذه المبادئ الصورية (أو المنطقية الموجهة) في تحليلات ديوى ؟ لقد ذكر ديوى موقفه العام كما يلي :

«كل الأشكال المنطقية (بخواصها المميزة) تنجس داخل عملية «البحث ، وتُعنى بضبط البحث حتى يمكن استنتاج قضايا مؤكدة» «مبرهن عليها . ويتضمن هذا التصور أبعاد أكثر مما تكشف عنه «معظم الأشكال المنطقية خاصة عندما نفكر في عمليات البحث» «المستخدمة بالطبع إنها تعنى ذلك ، ولكنها تعنى أيضاً ، أن «

«الأشكال تنشأ في عمليات البحث» .

(المنطق ، ص ص 3 - 4) .

ويقول في نسبة الاستدلال الى المبادئ المنطقية ما يلي :

«إن هذه المبادئ المنطقية المرشدة ليست مقدمات في الاستدلال أو»

«البرهان ... إنها أشكال تنتج عن طرق معالجة موضوع البحث»

«الذي يوجد لكي نحدد (عن طريقه) نتائج كانت معروفة في»

«الماضي الذي وجدت فيه ، وذلك لامكان تنظيم (اجراء) بحوث»

«أخرى مستقبلية حتى يتم تحديد الأسس التي عن طريقها يتم» p. 58

«التساؤل» (المنطق ، ص 13) .

وهكذا فإن المبادئ المنطقية هي « (مبادئ) من الوجهة العملية قبلية

a priori بالنسبة للبحث المستقبلي» ، «وتعتبر هي المصادرات postulates

والشروط Stipulations»⁽⁸⁾ . وبهذه الطريقة وجد ديوى مكاناً للمبادئ

المنطقية الصورية في نظريته العامة للبحث ، وينفس الطريقة كان قادراً على

استيعاب وتعديل القضايا التحليلية غير الوجودية The analytic

nonexistential propositions للرياضيات وكتب عن المنهج الرياضي يقول

«لقد تكون هو ذاته (المنهج الرياضي) على أساس التحرر من»

« الاستدلال الوجودي للنوع وعلى الأخص الاستدلال غير المباشر ،»

(8) أنظر : ديوى «المنطق» ، ص ص 14 - 16 ، وقد طور لويس موقف مشابه عندما تناول تصوره

عن «البرجماتية كمبدأ قبلي Pragmatic apriori مستخدماً مصطلحات عدّها هو نفسه

مبادئ منطقية مثل «مبادئ» الاجراء أو الاجرائية Principles of procedure . وقد عرض

وجهة نظره في بحثه الهام «مفهوم البرجماتية للقبلي» A Pragmatic conception of

Apriori وقام أخيراً بتطويرها في كتابه «العقل ونظام العالم» . ولكن - لدهشنى - لم

يشر ديوى الى تحليل لويس المبكر عندما كتب «المنطق»

« والذي يعتبر أكثر تأخراً وبعداً » .

(المنطق ، ص 396) .

اننا نجد في نظرية البحث أن وظيفة القضايا الرياضية هي تحويل القضايا الوجودية (المركبة) synthetic الى قضايا أخرى مثل تلك القضايا التي يمكن اختبارها تجريبياً بسهولة .

(المنطق ، ص 396) .

لذلك فإن معارضة بيرس لديوى تقوم على أساس « تأصيل » ديوى لتصوير المنطق الذي لا يشتمل على ذلك النوع من البحث المنطقي الذي برهن بيرس على أنه منطق لا أساس له على ضوء موقف ديوى المتطور .

ويشمل منطق ديوى المنطق النقدي لبيرس ، لأن نظرية البحث عند ديوى تشتمل أربع مراحل رئيسية هي : (1) شكل المشكلة ، (2) صياغة الفروض لحل المشكلة ، (3) استدلال النتائج من الفروض ، (4) اختبار صحة الفروض عن طريق اختبار النتائج التي يستدل عليها . وتطابق المراحل الثلاثة الأخيرة بوضوح نسبياً أنواع الاستدلال الثلاثة لبيرس وهي : الإبعاد أو الفروض ، والاستدلال ، والاستقراء . وبهذه الطريقة فإن الأنواع الثلاثة « للمنطق النقدي » التي حللها بيرس وضعت في مكانها فسي نظرية البحث كما نجد في تحليلات ديوى .⁽⁹⁾

(9) حقاً ، إن بيرس ذاته كان يعتبر - أحياناً - أنواع الاستدلال الثلاثة وكأنها مراحل ثلاث في نظرية البحث وهي : الإبعاد Abduction والاستدلال Deduction والاستقراء Induction ، وهي التي أطلق عليها مراحل البحث وهي : الشعور The first ، والإرادة Second ،

p. 59 - 5 جيمس ومفهوم الصدق :

إن نظرية البحث هي فكر موجه نحو حل مشكلة ما ، وهي لب النزاع بين البرجماتيين حيث (يرون) أن المشكلة تحدث دائماً في سياق غير إشكالي Unproblematic ولا يمكن أن يكون كل شيء «إشكالي» أى أن يكون محل شك كما جاء في الصياغة المبكرة لبيرس على الإطلاق . ولهذا فلا يوجد مشكلة عامة عن «وجود العالم» The Existence of the world ، كما لا توجد «خبرة» Experience تمثل مثل هذه المشكلة . فالكائنات الإنسانية المفكرة تعيش في عالم يواجهه من المشكلات في هذا العالم أكثر مما يواجهون . وقد طوروا مناهج نظرية البحث (خصيصاً) لكي يتناولوا هذه المشكلات ، وكان المنهج العلمى هو المنهج المفضل للفيلسوف البرجماتى .

وعن طريق استخدام تعبيرات هذا الاتجاه ، فإن العالم الذي يقع تحت خبرتى ليس هو هذا العالم ، في كليته ، موضوعاً « للصدق » أو «المعرفة» ، ونحن متأكدون من أن جيمس تحدث عن الخبرة المباشرة على أنها «إدراك مباشر» Knowledge by acquaintance ، ولكن الفرق بين الخبرة المباشرة لشيء ما ، ومعرفة knowledge about it تبرهن على أنه فرق كبير، حتى أن البرجماتيين المتأخرين عادة ما يحددون «المعرفة» و (الصدق) بفروض مكتوبة بطريقة الرموز «عن» شيء ما ، إذن فالصدق والمعرفة خاصيتين (من خواص) الأفكار أو الرموز ، أى خواص هذه ؟ إنه من المفيد أن نبدأ مع جيمس بالإجابة على هذا السؤال ، طالما أن توجهه لا يكون باستخدام تعبيرات مباشرة من نظرية البحث كتلك الخاصة بالبرجماتيين الآخرين .

== والمعرفة / الاعتقاد / Third.

انظر : المجلد السادس الفقرات 468 - 473 ويطلق في هذه الفقرات على الفرص اسم Abduction (الإبعاد) أو Retroduction .

كان جيمس صريحاً في قوله إن القضية البرجماتية للمعنى يجب أن تطبق في (مجال) تحديد معنى الصدق⁽¹⁰⁾، ولنتذكر أن جيمس فسّر هذه القضية بطريقة الفصل أو الجمع المنطقي Disjunctively بين الظواهر، كما يوجد أما في العبارة «الاحساسات التي نتوقعها» أو «ردود الفعل التي يجب أن نستعد لها» p. 60. وقد كنا نتوقع هذا الفرق لكي نبينه في نظرياته عن الصدق. وقد بدأ بالاعتراف بأن الفكرة الصادقة «تتفق» agrees أو «تتطابق» (تتناظر) Corresponds مع الواقع⁽¹¹⁾، ويصبح السؤال عندئذ عما يعنيه (بكلمتي) «يتفق» أو «يتطابق» إذا كانت القضية البرجماتية في المعنى أصبحت مقبولة. ثم اعترف جيمس بعد ذلك بأنه إذا كانت العلامة نسخة من الصورة a copy-an icon، فإن صورة نظرية الصدق تصبح مفهومة. ولكن ليس كل العلامات صوراً، وإذا كان المفسر المنطقي صورة، كما قال بيرس، عادة، إذن فكيف يمكن أن تتفق العادة أو تتطابق مع أي شيء (آخر) ؟

لقد فكّر جيمس في استخدام عدة طرق لكي يعبر بها عن مفهوم «الصدق» Truth، ووجد أن النموذج الأصلي لعملية الصدق هو المبدأ الموجه منطقياً أو تصورياً نحو الفكرة وإلى (ما يمكن) أن (يتم) «التحقق منه تحقيقاً كاملاً وببساطة» وعلى سبيل المثال، فإن الاحساسات (التأثيرات الحسية) تجعل الإنسان يتوقع ما يحدث بالفعل. وخلاف ذلك يكون بالإمكان تحقيق المبدأ

(10) تجد المصادر الرئيسية لتحليل جيمس لعبارة «الصدق» Truth في فصول كتبه، تصور البرجماتية للصدق» في كتابه «البرجماتية Pragmatism «وتتمة للبرجماتية» A sequel to pragmatism في كتابه «معنى الصدق» The Meaning of truth.

(11) جيمس، «البرجماتية»، ص ص 198 - 200.

الموجه منطقيًا أو صورياً بصورة جزئية وليس بصورة (كلية) كاملة، ولكن التطابق (التناظر) مع الوجه الثانى لعبارة جيمس عن القضية البرجماتية يبدو فى نصوصٍ تفترض أن فكرة ما تكون صادقة إذا كانت تمثل ردود الأفعال التى تشير الى أننا يجب أن نستعد لها وثبت أنها مناسبة لإستمرار مجريات الفعل الذى ارتبطنا به ، والعبارة التالية تبين وجهتى نظريته معاً :

« أن يتفق » مع الواقع بمعناها الواسع يمكن أن تعنى فقط أن يتم الارشاد «
« الى الواقع إما مباشرة أو إلى ما حوله ، أو أن يوضع (الواقع) في «
« مجال العمل المرتبط به إما لكى يتناوله أو (يتناول) شيئاً ما يتصل «
« به ، (وهذا) أفضل من عدم اتفاقنا ومن الافضل إما أن يكون «
« ذهنيًا أو عمليًا » .

(البرجماتية ، ص ص 212 - 13) .

وعندما ذكر جيمس أن الموضوع الصادق هو تلك الفكرة « التى تعطى أقصى حد للاقتناع (أو الشعور بالرضا) ، (مقالات في التجريبية الأصيلة، p. 61 ص 260) ، وقد شمل الموضوع الصادق بوضوح كل من حدوث التنبؤ « تأثيرات حسية » Sensible effects والشعور بالاقتناع أو الرضا (بإزاء) ردود الأفعال التى يجب أن نستعد لها بسبب (وجود) الفكرة، إذن فإنه من دواعى السخرية أن نقول عن لسان جيمس أن أى فكرة بالنسبة إليه تمنحنا الشعور بالاقتناع فهى صادقة. ثم عرض علينا جيمس الصعوبات التى تواجه مفهوم الصدق نذكر أنها أحياناً ما تأتى فى الحقيقة « بالاحساسات المتوقعة » Expected sensations بينما فى أوقات أخرى يبدو أن هناك شعور بالرضا بهذا الاقتناع Satisfactoriness خاصة تجاه رد الفعل الذى تمنحه لنا الفكرة، وهكذا استطاع ان يكتب أنه « على ضوء المبادئ البرجماتية فإننا لا نستطيع أن نرفض أية فروض اذا كانت النتائج

إذا كانت النتائج نافعة للحياة التي تنبع منها»
(البرجماتية ، ص 177) .

وهناك مبدأ أساسى واضح (تسبب) فى هذا الخلط ، وهو أن التأكيد على الصدق كأفكار قابلة للتحقيق يضع «الاحساسات المتوقعة» Expectation of sensations فى جانب تفسيره للقضية، بينما ينمو تأكيد على الصدق كأفكار مقنعة فى بعض الأحيان إلى أن تعكس النتائج النافعة للحياة، وذلك عندما حاول تفسير تلك القضية، وهكذا ، فإن التأكيدين الواردين بشأن نظرية جيمس فى الصدق يعكسان وجهتى نظريته فى المعنى .

وحاول ديوى أن يحل مشكلة هذا الخلط لدى جيمس وذلك بالتأكيد المستمر الذى نجده فى البحث التاريخى الهام الذى نشره بعنوان : «ماذا تعنى البرجماتية بلفظ العملى؟»⁽¹²⁾ What does Pragmatism Mean by Practical? ناقش فيه ديوى معالجة جيمس لنظرية الصدق وذكر أنه يوجد «خلط فى اختبار فكرة ما كفكرة خاصة تلك المتعلقة بقيمة اعتقادى كاعتقاد» ، وأعلن أنه لا يوجد اقتناع لا يعد جزءاً من الفكرة وله صلة بإمكان التحقق من صدقه . واعترف جيمس بنفس الموضوع فى خطاب لسه عام 1907 إلى آرثر لشفجوى Arthur O. Lovejoy (استجابة لنقد مشابه للشفجوى) ، كتب أنه أخطأ sinned فى خلطه بين نتائج الأفكار الصادقة القائمة بذاتها Per se ، وبين نتائج الأفكار

(12) المجلة الفلسفية Journal of Philosophy 1908. 5 ص ص 85 - 99 . وتم طباعته أيضاً فى كتاب ديوى «مقالات فى المنطق التجريبي» Essays in Experimental Logic . والنص المقتبس فى هذا السياق من الكتاب الأخير ص 322n.

حتى تلك التي نعتقد فيها» (13).

P. 62 إن هذا الإعتراف الذي صدر عن جيمس ، كما يبدو ، اعترافاً هاماً ، ولا يستطيع إزالة آثار كتاباته المبكرة عن الصدق ، ولا أن يمنع غالباً الخلافات الحادة التي نشأت بيه نقاده ومناصريه (معاً) . ولكن الكتابات التي تحتويها دقيقة للغاية ، والموقف الذي آثاره جيمس له على الأقل ميزة إصدار كتابات هامة كثيرة عن علم العلامات semiotic ونظرية البحث The theory of inquiry ، مثل الشروط التي على أساسها تكون العلامات «مقبولة» وعلاقة المعنى بالقيم ، وصفات العلامات الأخلاقية والدينية . ولم يكن لدى جيمس نظرية في العلامات متطورة تطوراً كافياً ، تسمح له بالتحدث بوضوح في مثل هذه الموضوعات ، وهكذا فإن أخطار الخلط بين المعنى والمعنى Signification and significance (أو الدال « وهو الجانب المرئي أو المسموع من العلاقة signification و«المدلول» وهو الجانب المجرد وغير الملموس للعلاقة) ، والصدق كقيمة ثم قيمة الصدق . ولكن كتاباته ساعدت على أن تفرض على مثل هذه الكتابات الوضوح . ولم يكن ممكناً بعد جيمس أن نقول بوعي صحيح وببساطة أن الفكرة الصادقة «تتطابق (تتناظر) مع الوقائع» Corresponds to the facts.

6 - بيرس وديوى والصدق

قام كل من بيرس وديوى بتحليل مصطلح «الصدق» داخل سياق نظرية البحث ، واعتبر بيرس في بحثه «تشبيته الاعتقاد» أن المنهج العلمي هو المنهج الوحيد بين المناهج الممكنة الذي يستخدم في هذا «التشبيته» ، ولم يكن لتصور

(13) نجد الخطاب المقتبس في كتاب «فكر وشخصية وليام جيمس» - The thought and char-

acter of William James بقلم رالف بارنون بيرى .Ralph Barton Perry

الصدق دور بارز :

«ولهذا يبدأ الصراع بالشك ، ويتوقف الشك ينتهى الصراع ، ومن
« هنا فإن الموضوع الوحيد لنظرية البحث هو تثبيت اليقين . ويمكننا
« أن نتغلب أن هذا ليس كافياً بالنسبة لنا ، وعليه فإننا يجب أن
« نبحث ليس فقط عن اليقين ، ولكن عن يقين حقيقي ، إلا أنه
« يجب وضع هذا التصور موضع الاختبار ، وسيثبت أن هذا التصور
« بلا أساس ، لأنه بمجرد أن نصل إلى يقين ثابت فستشعر بأنك
« مقتنع تماماً ، سواء أكان الإعتقاد صادق أم كاذب .
(المجلد الخامس ، الفقرة 375)

p. 63 وتشير هذه العبارة إلى أن صدق الاعتقاد بالنسبة لبيرس ليس كافياً لكونه
مقنع تماماً لليقين ، إذن : ما هو صدق الاعتقاد ؟

سوف ينعكس تأكيد بيرس ذاته على المنهج العلمى - كما رأينا - على
قبوله للقضية البرجماتية . وإذا كان ، كما تذكر القضية البرجماتية (على الأقل
فى صيغتها المبكرة) ، معنى التصور ذهنى موجود فى نوع الخبرات التى
ستنشأ عن نوع معين من الفعل ، إذن فإن صدق القضية يثبت هذا التصور الذى
يمكن أن يعنى ببساطة التحقيق Verification ، وأن نوع الخبرة فى القضية حقاً
ناشئ عن نوع الفعل فى القضية . إن القضية الصادقة ستكون عندئذ قضية
محقة تحقيقاً تجريبياً ، مثل «تحقيق نظرية الصدق» التى تتناسب مع عبارات
إثبات كثيرة عند بيرس وكذلك مع عبارات اثبات كثيرة عند جيمس ودوى وميد
. بالتأكيد انها علاقة رئيسة فى نظرية الصدق عند البرجماتييين .

ولكن هناك (بعض) التعقيدات ، فبالنسبة لبيرس ، طالما أن مثل هذه

المعاني عامة ، فإنه لا يمكن أن تكون محققة تحقيقاً كاملاً أبداً في أي موقف خاص والذي يتطلبه البحث ، لهذا فإن تأكيد بيرس ابتعد عن التركيز على البحث في مواقف إشكالية خاصة ، ليركز على عملية البحث المستمرة عن طريق مجموعة من الباحثين ، ولن يحتاج اليقين الصادق أبداً إلى مراجعة عندما تتقدم خطوات البحث عن طريق الباحثين .

ونشأ عن هذا الوضع مشكلات كثيرة خاصة مع المعلقين الذين تناولوا كتابات بيرس بالنقد والتحليل ، فهل سلم بيرس بأن الوضع في البحث لن ينتهي به إلى الحقيقة أبداً ؟ أو إذا كان يمكن أن ينتهي به إلى الحقيقة ، فهل ستكون الاعتقادات الأخيرة للباحث صادقة ؟ أو إذا كان سيأتي ذكر الصدق في عبارات «محددة» خلال البحث بمثابة نظرية للدفاع «المحدد» في هذه العلاقة ؛ ولن p. 64 نحتاج إلى مناقشة هذه الآراء حالياً⁽¹⁴⁾ ، ويكفى أن نلاحظ أنه في تحليلات الصدق لا يمكن أن يتأكد الإنسان من أن ما يعتقده في وقت معين وفي موقف محدد هو اعتقاد صادق (وبالرغم من ذلك فمن الممكن بالطبع أن يكون صادقا ، هذا ما يعترف به بيرس صراحة ، وهذا الإعتراف الذي لم يشعره بالاضطراب يمكن أن يفسر في الحقيقة بأنه كان يتمتع بمزاج خاص هو مزاج العلماء الذين عاش بينهم ، واعتياده على أن يعتبر الآراء العلمية تحتوى على موضوعات تجريبية مؤقتة (الصدق) وقابلة للتعديل كلما تقدم البحث ، ولكن هناك حقيقة

(14) أنظر : كواين W.V. Quine الكلمة والموضوع Word and Object ، ص 23 ، وأيضا «نظرية الصدق البرجماتية» The Pragmatic Theory of Truth في كتاب : إدوارد مور Edward C. Moore البرجماتية الأمريكية : بيرس ، جيمس ، ودوي American Pragmatism: Peirce, James, and Dewey

أخرى ذات صلة بالموضوع وهى أن بيرس لم يعتقد أن «المشكلات الحيوية Vital Problems فى الحياة يجب ألا نحلها بالبحث العلمى فقط ولكن بالقلب أيضا فهو أخرى من الرأس»⁽¹⁵⁾.

وعلى الرغم من ذلك فإن معالجة ديوى للبحث كان عن طريق الفعل الأخلاقى حيث يجب أن تكون بؤرة الاهتمام هنا مركزة على الموقف Situation وليس عن طريق البحث الطويل عن التعريف ، لذلك ركّز ديوى على علاقة البحث بالموقف الإشكالى المحدد (كما فعل كل من جيمس وميد) ، وقد جعل هذا الموقف تحليل ديوى للبحث تأكيداً مختلفاً نوعاً ما (ولكنه متسق) أكثر مما نجده عند بيرس (خاصة كتابات بيرس المتأخرة) . وقد لاحظنا من قبل أن تأكيد ديوى على الأفكار يعتبر «كخطط للفعل» As Plans of action كما فى الأحكام التى تقرر ما يجب عمله لحل المشكلة الموضوعية عن طريق الموقف المحدد Specific situation ، لذلك فإذا كان الفعل قد تم تأديته والمشكلات قد تم حلها فإنه يقال أن الفكرة أو الفرض قد تم التحقق منه ، وأنه صادق⁽¹⁶⁾ . وبهذا المعنى يكون الصدق قد تحدد طبقاً للموقف ، ويبدو أنه موقف مختلف عن موقف بيرس .

أزالت صيغة ديوى هذه التعارض الظاهرى ، حيث أبدى ولاءه لإستخدام

(15) أنظر : بحوث عام 1898 التى تشكل الفصل الأخير (الحاقة) من المجلد الأول من مجموعة الأبحاث لبيرس Collected Papers والفصل بعنوان «موضوعات هامة حيوية-Vital important topics».

(16) ديوى ، «مقالات فى المنطق التجريبي» ، ص 346 .

بيرس لعبارة الصدق ⁽¹⁷⁾، إلا أن تأكيد ديوى ظل مركزاً على البحث حيث عني بإقرار المشكلات المحددة ، وبهذا المعنى القضاة تحتاج عبارة «الصدق» إلى p. 65 إضافة شيء ما أكثر تحديداً. وفي الحقيقة ، فإن عبارة الصدق في «المنطق» (وعبارة نظرية المعرفة Knowledge) ، تتردد إلى الأساس الأول ، ويصبح التأكيد على تعبير «الإقرار المبرهن عليه» Warranted assertion أولى. ويكون الإقرار مبرهنًا عليه إذا تكوّن على أساس أن الدليل له علاقة بالمشكلة المعطاة ، وإذا كان الفعل على أساس المشكلة المطروحة موجوداً فإن البحث يقوم بحلها. وقد استخدم ديوى (البيان) هذه العلاقة تعبير «الحكم» Judgment ، أكثر مما استخدم تعبير «القضية» Proposition : والحكم هو إقرار بالموقف المشكّل (غير المحدد) بإزاء موقف غير مشكّل ومحدد). وكما ذكرنا من قبل فإنه يمكن وضع نتائج البحث في «قضية» حتى تكون في متناول الاستخدام الممكن في مواقف إشكالية أخرى مشابهة .

ولا نجد هناك اختلافاً للأساس الذي اعتمد عليه ديوى في التحليل طالما أن عملية البحث العامة تهتم بالربط بين البحث العلمي والبحث الأخلاقي ، وكلاهما يتبع النموذج العام للبحث الذي لخصه ديوى . أما الفرق الموجود بينهما فيمكن إيضاحه عندما نقدم تصور كل منهما عن القيمة فقط .

(17) انظر : كتاب «المنطق» ص 345n . وقد اعترف جيمس (كأحد الذين استعملوا تعبير الصدق» ، بأن «الصدق المطلق» لا يعنى أية خبرات بديلة في المستقبل ، وأن النقطة المثالية الفائبة عنا هي أننا نتخيل أن كل حقائقنا الموقته سوف تلتقي عند نقطة واحدة في يوم ما . وأضاف قوله : «وفي نفس الوقت علينا أن نعيش اليوم بالصدق الذي نحصل عليه اليوم، وأن نكون على استعداد في الغد لأن نطلق عليه صفة «الكذب» Falsehood (البرصانية ص 222 - 223) .

7 - المظاهر العقلية والتجريبية للبحث عند بيرس

اعتبر كل من بيرس وديوى منهج البحث اللذين قاما بتحليله هو المنهج العلمي بالإضافة إلى تلك البحوث الخاصة بالفهم المشترك Common Sense على إعتبار أنها ارهاصات العلم . كما أعتبراه أيضا المنهج المناسب للفلسفة التي قبلت القضية البرجماتية . وكما فعل العلم على زمن نيوتن Newton^(*) الذي أدخل الرياضيات والتجريب Experimentation في المنهج العلمي ، فكذلك يبدو أن تعميم نظرية البحث جعل كل من النزعة العقلية والتجريبية في مستوى واحد مع الفلسفة التقليدية بينما تجنب التعبير عنهما منفردين⁽¹⁸⁾ . وسوف يوجه البحث الفلسفي لحل المشكلات الخاضعة للخبرة ، وافترض الحلول التي يمكن اختبارها في العالم الواقعي (وهو خاضع أيضا للخبرة) . ولكن بما أن منهج الإبعاد abduction (أو الفرض Hypothesis) لا يمثل استقراءً بالنسبة لبيرس . وهو تأمل واضح (كما أنه منهج منفصل عن منهج القياس Deduction) سوف يتسقا مع قبول القضية البرجماتية ، مما يعلمنا أن الفروض المقترحة قادرة على الضبط باستخدام الملاحظة التجريبية empirical observation .

ومع ذلك فقد شك نقاد كل من بيرس وديوى ، فيما إذا كانت فلسفاتهما تتسق بالفعل مع نظرية البحث التي طورها وكرسا نفسيهما من أجلها . وهذا

(*) اسحق نيوتن Isaac Newton (1643 - 1727) عالم الطبيعة الإنجليزي الأشهر وفلكي ورياضي أيضا ، مؤسس علم الميكانيكا الكلاسيكي ، مكتشف قانون الجاذبية وأهم كتاباته هي «المبادئ» الرياضية للفلسفة الطبيعية» (1687) والبصريات (1704) . (المترجم) .
(18) أنظر : تحليل ديوى للنزعتين التجريبية والعقلية التقليديين في فصل الخاتمة من كتابه «المنطق» Logic

هو الحد الذي وصلا إليه في الواقع ، فالنقد الذي يمكن أن يوجه إلى فلسفاتهما بخصوص ابتعادهما عن المنهجية الصريحة ، أو يمكن توجيهه نحو نظريتهما في البحث لكونها تعبير غير مناسب لما قاما به في الواقع كفلاسفة . ويُنظر أحياناً إلى بيرس على أنه سقط في قبضة النزعة العقلية التقليدية (وهو كذلك لإتباعه المنهج القبلي *apriori method* ، بينما يُنظر إلى ديوى على أنه فشل سواء في أن يتعدى مأزق «الذاتية» *subjectivistic* للمذهب التجريبي التقليدي أو تعديه النزعة المثالية الموضوعية *Ojective idealism* للتراث (الفلسفي) الهيجلي. بينما اعتقد أن هذه الاتهامات غير قابلة للدفاع عنها مطلقاً ، فقد بدا أنه من الأجدر أن ننظر الى ما يوجه لأعمال كل من بيرس وديوى ويؤدي إلى توجيه مثل هذه الإتهامات ، ولا سيما أننا لا نرغب في استباق مناقشة ميتافيزيقاهما - موضوع الفصل الأخير - فإننا نستطيع أن نتناول هنا بعض الكتابات المنهجية المتميزة فقط .

ويبدو أن النزعة العقلية الميتافيزيقية *Metaphysical Rationalism* لدى p. 67 بيرس أتته من يقينه الميتافيزيقي في المنطق والتحليل المنطقي .

وقد حاول في أعماله المبكرة أن يتعدى المنطق الكنتي *Kantian logic* بصياغة منطق يستخدم فيه عبارات علم العلامات *terms of semiotic* وتصور عندئذ قوانين المنطق كما تصور مبادئ العلامات التي لها ضرورة قبلية.

وعلى الرغم من ذلك فلا شك أن بيرس إتجه في بعض الاحيان الى إعطاء مدلولات ميتافيزيقية مجردة لنتائج التحليل المنطقي . وقد واجه باستمرار *continuity* صفة العلامات (علامة تنشأ عن علامة ومنهما تنشأ علامة أخرى وهكذا ...) (*) ولهذا أعتبر أن الاستمرارية صفة حقيقة على الإطلاق . وتوصل

(*) نلاحظ هنا تأثير بيرس بالديالكتيك (الجدل) الهيجلي الذي يستخرج المركب من الموضوع ==

الى ثلاثة أنواع فقط من القضايا هي (الواحدية monadic والثنائية dyadic ،
والثلاثية triadic) واعتبر ذلك دليل على وجود ثلاث مقولات ميتافيزيقية فقط
، وعلى العموم فقد كان بيرس على ثقة من أن العقل المتطور كتطور العلامات
طبقاً لقوانين الاستدلال) يطابق (بناظر) التطور العام للكون Cosmos (19).

وغالباً ما كان بيرس يكتب بهذه الطريقة «العقلية» Rationalistic ومع
ذلك فإن هذا الاتجاه يجب أن يُعدل على ضوء العبارات الملحة المتساوية التأثير
وهي :

«إن التصورات التي تعتبر نتاجاً حقيقياً للتفكير المنطقي ، لا بد من
«أن ينظر إليها على أنها كذلك ، فضلاً عن أنها تمتزج مع أفكارنا
«العادية وتكرر هذا الامتزاج بصفة دائمة» .
(المجلد الخامس ، الفقرة 370) .

بالإضافة إلى ذلك يذكر بيرس في بعض الأحيان أن «الاستمرارية»

== ونقيضه، وهكذا في حركة مستمرة دائبة الى أن يصل إلى المطلق ، أما بيرس باعتباره أنه لا يؤمن
بالأفكار المطلقة فقد اعتبر ان عملية التحليل المنطقي عملية مستمرة لا نهاية لها طالما ان
هناك علامات تنشأ عن علامات أخرى في حركة جدلية لا تنتهي . (المترجم).

(19) لا يشارك جيمس بيرس ثقته في تطابق Isomorphism المنطق مع الواقع ويقول : «إن أهم
الملامح الرئيسية (الأساسية) لتكويننا الذهني هي ما نعتيه بدراسة القواعد grammar
والمنطق Logic ، وتأتي القوة violence بعدهما في الترتيب الطبيعي كإعكاس لما نعتقه
في وجودها » (العبارة مقتبسة عن بيرى R. B. Berry في كتابه سالف الذكر «فكر
وشخصية وليم جيمس» المجلد الاول ص 718 .

continuity هي مبدأ منهجي Methodological principle⁽²⁰⁾ (يجب ان نبحث فيه بقدر ما نستطيع عن هذه الاستمرارية) ، وبرغم ذلك فقد كتب في معظم كتاباته عن الاستمرارية كما لو كانت مبدأ منهجياً عاماً . ويجب ألا ننسى أن بيرس قبل موقت (أو مبدأ) عدم القابلية للخطأ Fallibilism في فلسفته، p. 68 ومهما كان اقتناعه الذاتي بميتافيزيقاه ، فقد اعترف أنه ليس متأكداً من صدقها، وعلى سبيل المثال ، فهي لن تكون قابلة للتعديل من خلال بحث تال . وبهذه العلاقة أدرك أن التطبيق الفينومينولوجي والعلمي للمقولات الميتافيزيقية الثلاثة التي اعتقد أنها تكشف عن تحليل منطقي ، إنما كشفت عن مقولات ميتافيزيقية أخرى .

ومع أن «عقلية» بيرس كما تبدو ، عقلية ذات انجاء دوجماتي بمعنى أن ميتافيزيقاه لن تتسق مع منهجية البحث المقبولة ، ومن ثم لم يكن يقصد أن يكون فيلسوفاً قليلاً بالمعنى الذي ورد في مقاله «تثبيت الاعتقاد» حيث قابل فيه بين المنهج القبلي وبين المنهج العلمي . أما أن يكون بيرس متسقاً دائماً مع ما يقصده فهذا موضوع آخر .

(20) كتب بيرس في المجلد السادس الفقرة 173 أن «الاستمرارية» synechism (أو مبدأ الاستمرارية The principle of continuity ليس نظرية ميتافيزيقية خالصة، بل إنها مبدأ تنظيمي في المنطق» ، واعتقد تشارلز هارتشورن Charles Hartshorne - الذي تصاطف بدرجة كبيرة مع فكر بيرس - أن هناك خلطاً بين فكرة الاستمرارية المسكنة (أو المنطقية) وفكرة الاستمرارية الفعلية . وهي من أكبر أخطاء بيرس الخطيرة . انظر : مقال هارتشورن بعنوان : «أحد اسهامات تشارلز بيرس في الفلسفة وأكبر أخطائه الخطيرة

"Charles Peirce's One Contribution of Philosophy and his Most se-

8 - المظاهر العقلية والتجريبية للبحث عند ديوى

أما بالنسبة لديوى فإن هناك إتهام عام بأن نظريته في البحث تؤدي إلى الشك skepticism فيما يتعلق بحدود المعرفة التي جاءت بها التجريبية الإنجليزية . ولهذا أعلن أنه بالنسبة إليه فإن «العالم ... ينهار (ويتحول) إلى النزعة المباشرة The world ... Collapses into immediacy» . وهناك إتهام آخر له علاقة بالاتهام الأول وهو أن نظرية البحث عند ديوى تؤدي إلى ميتافيزيقا مثالية idealistic metaphysics وفيها يتم توجيه العقل Mind إلى ما هو معروف في البحث .

ويعود أساس هذه الاتهامات على ما يبدو إلى تأكيد ديوى المستمر على البحث باعتباره يتضمن تحويل Transformation الموقف الإشكالي إلى موقف لا إشكالي ، لذلك فالمعرفة لا تحتوى إلا على الموقف المتحول كموضوع لها ، وعلى p. 69 ذلك فيبدو أنه لن توجد معرفة للموقف الفطري initial situation قبل تحوله ، أو أى شيء (آخر) لم يصدر عن هذا التحول .

ولنذكر العبارة بطريقة أخرى ، عرّف ديوى - في بعض الأحيان - الموضوع بأنه حادثة ذات معنى an event with meaning ، وطالما أن البحث يقوم بتكوين موضوع بهذا المعنى ، كجزء من عمله ، وعلى سبيل المثال ، إن الموقف لم يعد إشكالياً ، ولم يعد له معنى غير محدد) فإنه سيبدو لنا أن الشيء المعروف هو موضوع مكوّن في عملية البحث ، فلا شيء معروف يقع «خارج» البحث .⁽²¹⁾ ومن هنا نشأ الاعلان الخاص بأن ديوى ظل فقط مع الخبرة المباشرة. وإذا كنا

(21) كتب ديوى في «المنطق» يطلق اسم الموضوعات objects - موضوع هذا الكتاب - على الموضوعات الناشئة عن تنظيم متسلسل لما نسميه البحث ، «فالأشياء توجد فقط كموضوعات إذا كانت قد حددت من قبل كنتائج للبحوث» (ص 119) وهذا استخدام خاص لمصطلح «الموضوع» object . وليس مصطلحاً عاماً يستخدمه البرجماتيون.

نعتبر البحث بحثاً «ذهنياً» mental ، فإن إبراز دور «العقل» - في اعتقاد ديوى - يوجه الموضوع (بطريقة مباشرة) نحو ما يعرفه.

وقد رد ديوى على مثل تلك الاتهامات مرات عديدة ، وأخذ في اعتباره أن وجهة نظره عن العالم World-view تمثل «النزعة الطبيعية الثقافية» Cultural naturalist والتي تعتبر الخبرة جزءاً من الطبيعة وليست هي كل الطبيعة . وفي المقال الطويل الذي رد فيه على هذه الإتهامات وهو بعنوان «الخبرة، والمعرفة ، والقيمة» Experience, Knowledge and value ضمن كتاب «فلسفة جون ديوى» (الذي أشرف على إصداره بول آرثر شلب) رد ديوى مرة أخرى على الإتهامات وذكر ، أن نظريته في المعرفة لا تتسق مع كوزمولوجيته الطبيعية Naturalistic cosmology . ويجدر بالقارىء الذي يجد نفسه مهتماً بالجدل حول هذا الموضوع أن يرجع إلى مقال ديوى المفصل في هذا الشأن . ولكن طالما أن علاقة نظرية البحث البرجماتية بالكوزمولوجيا البرجماتية علاقة جوهرية ، فإننى أخصص بقية هذا المبحث والمبحث القادم لإيضاح هذه العلاقة وذلك لتدعيم بعض الأسباب التى تبين لماذا تتسق نظرية البحث البرجماتى مع الكوزمولوجيا الطبيعية (أو الواقعية) ⁽²²⁾.

إن نظرية البحث هي بحث في البحث inquiry into inquiry ، لذا وكما يعتبرها ديوى باستمرار، فإنها تفترض مسبقاً أبحاث أخرى لموضوعات ذات صلة p. 70 بموضوع الدراسة . أما اتهامه بأن المشكلة التى تدعو الى البحث تكمن داخل مجال لا إشكالى على أساس بحث تلك الأبحاث الأخرى، فإن البرجماتى يعلن أن

(22) أنظر أيضاً مقالى : «البرجماتية والميتافيزيقا» Pragmatism and Metaphysic وأيضاً مقال سى . آى . لويس C.I. Lewis «بعض الاعتبارات المنطقية المتعلقة بالذهن» Some Logical considerations Concerning the Mental.

هذا الإتهام إنما هو «إقرار مبرهن عليه» Warranted assertion .

ولا تحل نظرية البحث العامة محل المباحث المحددة الأخرى بطبيعة الحال ، لذلك فإن هناك تساؤلاً يدور حول عمر الأرض مثلاً يجاب عليه ببحث محدد يتناول هذا التساؤل . وإذا جاءت النتيجة (التي نصل اليها) فى مثل هذا لبحث المحدد متحدية ، فإن هذا (التحدى) يجب أن يتم يبحث آخر فى المشكلة، ولا يمكن أن يتم حله عن طريق نظرية البحث العامة . وهذا ما يحدث أيضاً فى مثل هذه المشكلات على سبيل المثال : هل سبقت الحياة التى ظهرت على الأرض حياة أخرى ، أو ما اذا كنت قد ولدت ، أو هل سيستمر العالم بعد موتى. إن الردود على مثل هذه المشكلات لا يمكن أن تحدد عن طريق نظرية البحث العامة . وحتى إذا أدركنا أن البحث الخاص لا يستطيع أن «يعرف» ما سبقه من أبحاث أو (يدرك) محتواه اللاشكالى Unproblematic context ، فإنه من الممكن أن يكون هذا صحيحاً فيما يتعلق بالأبحاث الأخرى، كما ذهب ديوى فى مقاله الذي رد فيه على الاتهامات الموجهة اليه والسابق الإشارة اليه . وفى تصور البحث البرجماتى لا يوجد (ما يسمى) «الإسناد فى البحث المركزى» Inquiry centric predicament .

إذن لماذا اتهم النقاد ديوى أنه يسلم بكوزمولوجيا «مباشرة خالصة» pure immediacy ، وغالباً ما يتهموه كذلك بالنزعة المثالية؟ من ناحية، ستبدو لنا الإعتبارات التى توصلنا اليها فى الفقرتين السابقتين مهمة ، ولكن من ناحية أخرى، أعتقد أن ذلك يعود الى نقص معين فى الصياغات التى عبر بها ديوى عن موقفه .

ولا اعتقد أن ديوى استفاد بدرجة كافية من مصادر بذاتها ، ذلك أن البرجماتى يجب أن يستفيد من كل موقف يتاح له إتاحة واضحة ، هذا من ناحية

العوامل الاجتماعية في التحقيق (البحث) ، ومن ناحية أخرى هناك عوامل غير مباشرة indirectness في كثير من التحقيق (البحث) ، وليس القضية هنا أن هذه الاعتبارات كانت غائبة عن وعي ديوى تمامًا ، ولكن القضية أنه لم يؤكد عليها تأكيدًا كافيًا .

p. 71 وإذا تساوى بعض الأشخاص تساويًا جوهريًا في الخبرة مع الشخص الباحث - طالما أن الأربعة جميعًا برجماتيين - فسيكون التحقيق (البحث) إذن الذي يجريه أشخاص آخرون على الفرض الجزئي Particular hypothesis مساويًا من الناحية المنهجية مع عمليات التحقيق (البحث) التي يقوم بها باحث بعينه . وهكذا فإن تقارير الآخرين عن مولدى يمكنها أن تعطينا الدليل في عبارات أقررها إقرارًا مبرهناً عليه أننى ولدت ، حتى على الرغم من أننى لا أستطيع أن أجعل مولدى موضوعًا لخبرتي المباشرة .

إن مثل هذا الدليل حالة خاصة فقط للدليل غير المباشر : والموضوعات الفيزيقية يمكنها أيضا أن تقدم الدليل بالتأكيدات المبرهن عليها نفسي أو عن طريق الآخرين. ويقوم الجزء الأكبر من قبول العبارات العلمية والفهم المشترك على أساس هذا الدليل غير المباشر . ويوجه عام فإن أى آلة أو جهاز (كما في شهادة الآخرين وأحكام آلات التصوير والمجاهر) يمكنه أن يقدم دليلاً غير مباشر على أن الاعتماد على هذه الآلة أو الجهاز يمكن أن يكون - في حالات أخرى - دليلاً مباشراً .

وإذا كان هذا مسموحاً به، فإن قبول نظرية البحث البرجماتية العامة إذن لا يؤدي في حد ذاته إلى قبول مثل هذه الكوزمولوجيا كتزعمة ظاهرة Phenomenolism أو مثالية. Idealism فلا يوجد (دليل على) عدم اتساق منهجية ديوى وبين كوزمولوجيا التزعمة الطبيعية الثقافية Cosmology of cultural naturalism

9 - بعض مظاهر تصور ميد للموضوع

وهناك موقف يتشابه مع الموقف الذي ناقشناه في البحث السابق ظهر في p.72 بعض تفسيرات فكر ميد . وبما أن الكتاب هام ، وبما أنه في حالة ميد حيث سيطر مأزق مشكلة معانى «الموضوع»⁽²³⁾ فإنه يبدو من المهم أن نناقش أكثر العلاقة بين منهج البرجماتية وكوزمولوجيا البرجماتية .

لاحظنا من قبل أن ميد يرى أن «الرمز الدلالي» Significant symbol هو أحد الرموز التي يتم استدعاؤها لناتج من نفس المنظومة يستجيب له مما يستدعى معه وجود رموز أخرى في المجموعة اللغوية . وهكذا فإنه عن طريق هذه الرموز يأخذ الرمز دور الآخر» بمعنى أن الرمز يتجدد نحو الاستجابة لإشارات رمز آخر كما تستجيب له الرموز الأخرى . وبالتوسع في هذه العملية يستطيع الرمز أن يأخذ دور الموضوعات الفيزيائية عن طريق إثارة المقاومة التي يعرضها الموضوع استجابة لضغط (الرمز) الآخر عليه . وبهذه الطريقة يستطيع الرمز أن «يتجاوز» (يعلو) Transcend الخبرة المباشرة بطريقة رمزية للرمز الآخر وذلك بأخذ دور الرموز الأخرى وموضوعاتها . ولهذا فلن يصبح هناك «لا معنى» meaningless لقولنا أن الشخص يستطيع أن يفكر في قضية الأرض قبل أن يظهر عليها الإنسان أو في الخبرات المختلفة للموضوع أكثر مما يفكر في شخص آخر بحيث يجتاز التفكير في ذاته ، كما لا يستطيع الإنسان أن يفكر ، إذا كانت عبارات الإثبات السابقة عن الدليل غير المباشر مسموح بها ، ولن يكون هناك أى اعتراض على أن نقول أن مثل هذه الأفكار (كعمليات رمزية) «مبرهن عليها» .

(23) المصادر الرئيسية التى عالج فيها ميد مشكلة الموضوعات objects هي : «فلسفة الفعل» The Philosophy of act ، و«فلسفة الحاضر» The Philosophy of the present .

ولكننا نستخدم فى هذه الحجة تعبيرات (مصطلحات) مثل «الموضوع» object و «الموضوع الفيزيقي» Physical object فما هو مدلول هذه العبارات عند ميد؟

يسمى ميد الموضوعات الخاصة بالخبرة مثل : الأشجار ، والكراسى ، والأشخاص «موضوعات حسية»^(*) Perceptual objects . ففى أى خبرة تكون مثل هذه الموضوعات «لا اشكالية» unproblematic ، وتستخدم فى اختبار ما نسميه الفروض التى تظهر فى عملية البحث. (وهكذا فإن ميد يرى أنه حتى نظرية الإدراك الحسى كنظرية متطورة فى علم النفس تفترض الموضوعات الحسية لإختبار النظرية) .

ويذكر أنه يوجد ثلاثة أنواع من الصفات لمثل هذه الموضوعات الحسية p.73 تتناسب مع مراحل الفعل لمدركيها⁽²⁴⁾ ، ولها صفات متباينة (من حيث الألوان والاشكال المرئية الخ ...) تتطابق (تتناظر) مع الأنشطة الخاصة بالحواس المختلفة، عندما لا يتصل المدرك (بكسر الراء) اتصالاً فيزيقياً مع الأشياء) فالأشياء لها صفات فيزيقية (المقاس ، الحجم ، الوزن الخ ...) تتطابق مع الأنشطة التى تمت معالجتها ببراعة مع المدرك ، ولها صفات متكاملة Consummatory qualities تتطابق مع مرحلة اكتمال الفعل الذى يلاحظه المدرك.

وفى عالم الخبرة العادية يمكن أن يقترب عدد من الأشخاص من منضدة ما ، ويكون لكل منهم ادراكاته الحسية المختلفة عنها ، ولكل منهم هدف مختلف

(*) أى موضوعات مدركة ادراكاً حسياً . (المترجم)

(24) أنظر : كتاب «فلسفة الفعل» ، فصل مراحل الفعل ، ص ص 3 - 25

بإزاتها، ومع ذلك يتفقون تمامًا بشأن خواصها الفيزيائية، ولأنهم بإزاء رمز دالة (على الجانب المادى سواء مرئى أم مسموع من العلاقة) فإنهم يستطيعون فهم العلاقات الأخرى ويكوّنوا منها نتائج متشابهة بارعة. وعندما تتم عملية التجريد (الأكثر تغيراً) من حيث المسافة والخواص الكاملة، فإننا نحصل على «الموضوع الفيزيقي» Physical object الذي يدرسه العلم⁽²⁵⁾.

وكتب ميد في الغالب عن مثل هذه الموضوعات الفيزيائية (وبالطبع عن المسافة والخواص المتكاملة للموضوعات المدركة حسيًا) التى تنشأ داخل الفعل، ولا يضرنا أن نتذكر أن ميد يعمل هنا كعالم اجتماعى يحاول أن يبين كيف طوّرت الكائنات البشرية خبرتها وتصورها عن الموضوعات الفيزيائية. إلا أن بعض نقاده فسّروا عبارته «داخل الفعل» Within the act على أنها تعنى أن الكائن البشرى يوجد أو يقوم باظهار الموضوع الفيزيقي إلى الوجود حرفيًا، وأن هذا الموضوع ليس له وجود «خارج» Outside مثل هذه الأفعال البيولوجية biological acts⁽²⁶⁾، ولهذا أعلن الدارسون أن نتائج تحليل ميد نوع من «الآنية البيولوجية» أو «الأنا وحدية البيولوجية» biological solipsism.

وبالتأكيد فلم يكن هذا فى نية ميد أو فى الروح العامة لعمله، أكثر من مثل هذا التفسير: فالكائن البشرى يدرك بنيته شكل الفعل والموضوعات المدركة إدراكًا حسيًا باعتبارها أساسًا مشتركًا، وإلى حد ما محددة تحديدًا مشتركًا. إلا أن ميد لم يذكر أبدًا موقفه وهو أن الصفات الفيزيائية للموضوع

(25) انظر: «فلسفة الحاضر»، وعلى وجه الخصوص فى «الشيء الفيزيقي» Physical thing، ص ص 119 - 39.

(26) أنظر: مقال آرثر إي مورفي Arthur E. Murphy «إهتمام ميد بفلسفة الفعل» Concerning Mead's the Philosophy of Act.

كموضوع على وشك الإكتمال بواسطة الكائن البشرى توجد عن طريق ذلك الكائن ذاته .

وعلى الرغم من ذلك ، ما هو موقف «الموضوعات العلمية» Scientific objects (مثل الالكترونات Electrons) التى لا هى موضوعات مدركة إدراكًا حسيًا ، ولا هى موضوعات مجردة يمكن ادراكها إدراكًا حسيًا؟ يرى ميد أن مثل هذه «الموضوعات العلمية» والنظريات التى تدور حولها يمكن أن يكون لها معناها، فقط من خلال الوظيفة الآلية التى تستخدم في البحث العلمى ، وكتب ميد :

«إن الاتجاه الكلى للعلوم الطبيعية ، كما تبدو - بوجه خاص - «
«فى الطبيعة والكيمياء هو احلال موضوعات الخبرة المباشرة عن طريق»
«الموضوعات المفترضة Hypothetical objects الموجودة فيسما»
«وراء الخبرة الممكنة . وكما أشرت ... يجب أن يخضع العلم»
«التجريبي آية نظرية لتجربة الخبرة المباشرة الكامنة في «الآن»
«إنها - فى رأبي - نظرية صحيحة Legitimate doctrine»
«.... فهى يجب أن تكون ممكنة لأنها تأخذ في اعتبارها الموضوعات»
«المفترضة الناتجة عن الخبرة مثل عبارات المناهج والمعادلات لضبط»
«الموضوعات فى عالم الخبرة الفعلية ، وبكلمات أخرى ، تلك التى»
«نسميها الموضوعات الكامنة فيما وراء مجال الخبرة الممكنة وهى فى»
«الواقع الاجراءات المعقدة التى تضبط الخبرة الفعلية.» .

(The Philosophy of the act, pp, 291 - 92)

إذن فمثل هذه «الموضوعات العلمية» هى اجراءات معقدة لضبط الخبرة

الفعلية «لا يمكن إنكارها، إنها فقط وكذلك - كما يبدو في قول ميد - في موضوع آخر⁽²⁷⁾ ويبدو أن ميد ذاته يخلط في بعض الأحيان بين الأدوات المعرفية (الابستمولوجية) والكوزمولوجية ... وإذا كانت الحجة قوية في الجزء السابق الذي عالجنه ، فإن البرجماتية ليست في حاجة الى مثل هذا الخلط .

10 p.75 - تعقيب على علم المناهج البرجماتي :

إن أكثر ما في علم المناهج (البرجماتي) من جدة هو محاولته تناول المشكلات التقليدية في نظرية المعرفة داخل سياق نظرية البحث ، وطالما أن البحث يتضمن استخدام الرموز ، فكذلك يجب أن تستفيد دراسة البحث من نظرية العلامات (السيمياء) ، لهذا فإن علم المناهج البرجماتي - يتفق مع التأكيد الأساسي لنظرية العلامات (السيمياء) السلوكية - هو علم ذات توجه سيميائي ، والمعرفة شكل (من أشكال) سلوك العلامة ، ومفتوحة للبحث الموضوعي.

إن نوع البحث الذي تناوله البرجماتيون بالدراسة يصفة أساسية (والمفضل) لديهم هو البحث العلمي، المعروف بمعناه الواسع لكلمة «العلمي» Scientific وهو البحث الذي تتفق مصطلحاته الأساسية مع متطلبات القضية البرجماتية والذي توجد فروضه في مبدأ الملاحظة المنحقق. وتتفق تحليلات كل من بيرس وديوى

(27) أنظر : مناقشة ارنست ناجيل للوقوف على مزيد من المعلومات بشأن موقف نظرية المعرفة من النظريات العلمية في الفصل السادس من كتابه «بناء العلم» The Structure of Science ، وقد وافق رودولف كارتان ناجيل على تحليله الذي ذهب اليه في كتابه «الأسس الفلسفية للطبيعة» .

لهذا النوع من البحث بشكل عام مع ظهور مشكلة (التناول اللاشكالي)، وفرض (الإبعاد) الذي وضع لحل هذه المشكلة، وتتطور نتائج هذا الفرض (القياس)، وهذه النتائج (ومن ثم الفرض) يتم اختبارها عن طريق ملاحظة الفعل باستخدام مصطلحات (أو عبارات) تابعة من هذه النتائج المستنبطة. فإذا جاء الاختبار إيجابياً، فإن المشكلة تختفى ويُعمم الفرض المتحقق. ويمكن استخدام النتيجة كفرض عندما تتصل بمشكلات جديدة يجب مجابتهها.

وعلى ذلك فالفرق بين بيرس وديوى داخل هذا الإطار العام كبيرة وهامة،^{p.76} لأنها تتعلق بحقيقة توجه بيرس الذي ينبع من العالم الطبيعي Natural scientist، بينما توجه ديوى ينبع من العالم الأخلاقي Moralist. وقد اتجه بيرس نحو التأكيد على استمرارية البحث اللانهائية، بينما اتجه ديوى نحو التأكيد على الموقف الإشكالي المحدد الذي يتضمنه البحث. ولهذا عُنِيَ بيرس أكثر «بصدق» الفرض (بشرط أن يتآزر مع البحث اللانهائي مستقبلاً) بينما ركّز ديوى (على الرغم من اعترافه بتعريف بيرس «المجرد» «للمصدق») على «البرهان» Warrant (الخاص بقضايا) الإقرار Assertion من أجل حل مشكلة محددة). واتفق كلاهما على أن الفعل يتم بناءً على الفرض (الفعل الشرطي) الضروري للتحقيق (التجريبي بالمعنى الواسع عند بيرس)، إلا أن تأكيد ديوى كان على إعادة بناء الموقف الفعلي لكي لا يصبح (الموقف) إشكالياً. وقد تم إيضاح هذا الفرق في الفعل القائم على الملاحظة الضرورية في دراسة ظاهرة كسوف الشمس eclipse، كما يتكشف في تغير الفعل للموقف عند حل مشكلة أخلاقية معينة. والتناقض بين بيرس كعالم وديوى كأخلاقي يبدو في مواقف أخرى: فإن ديوى يبين أن هناك فرق بسيط بين البحث العلمي (بالمعنى الضيق للتعبير/ المصطلح) وبين البحث الأخلاقي، بينما كان بيرس يشك في قدرة العلم على حل المشكلات الأخلاقية.

أما في (مجال) المنطق، فبينما اتفق كل من بيرس وديوى على أن تفسير المنطق يتم في سياق البحث ، فإن تحليل بيرس لقوانين المنطق كقوانين نظرية العلامات (السيمياء) يختلف (في التأكيد على الأقل) عن تحليل ديوى لقوانين المنطق في عبارات Terms تعبر عن وضعها كمباديء قبلية برجماتية as pragmatic a priori principles في مجرى البحث .

واتفق كل من بيرس وديوى على أن البحث الذي يتوجه في الأصل نحو المشكلات الإنسانية الأساسية هي مشكلات الفعل في المواقف الإشكالية ، والذي يجب أن يولد مشكلات (جديدة) خلال تطوره .

p.77 وأصبح البحث «مستقلاً» automonous عند هذا الحد، ويجب عليه أن يحل المشكلات الضرورية من أجل تحقيق تقدمه الخاص . واتفق الاثنان على أن الرياضيات «صورية» ، ولها «دلالات لا وجودية» Nonexistential in reference ومع ذلك تتطور داخل الاطار العام للبحث . واعتبر بيرس - على الرغم من ذلك - أن الرياضيات سابقة على المنطق من الناحية الفلسفية ، وركز بدرجة أقل من ديوى على وظيفتها الاجرائية instrumental function البحث اللارياضي nonmathematical .

واستطاع اتجهاء البرجماتية نحو علم المناهج أن يجد مكاناً لكل من الاستدلال الصوري Formal reasoning والملاحظة التجريبية empirical observation داخل عملية البحث ، وهكذا أمكن تجنب المبالغات للنزعتين التقليديتين «العقلية» و «التجريبية» . كما اختلف (البرجماتيون) حول محاولة كنط لحل الصراع وذلك عن طريق احلال تصور اجرائي Operational أو (برجماتي) لما هو قبلي محل نظرية (كنط) التوفيقية في (الأفكار) القبلية .

ويرى البرجماتيون أن الفلاسفة يتطابقون في استخدام نموذج البحث الذي قدّمناه، أما اذا كانت فلسفاتهم تنسجم دائماً مع هذه الرؤية أو تختلف، فإن هذا بالطبع تساؤل آخر.

ويجب أن تنتقل الى الموضوع التالي عن علم القيم البرجماتي : ماذا قال البرجماتيون عن القيم؟ وهل تتضمن نتيجة بحثهم حلولاً للمشكلات المتعلقة بها؟

الفصل الرابع الاكسيولوجيا (علم القيم) البرجماتية

p . 81 1 - مكانة ديوى الرئيسية في علم القيم البرجماتي

إن جميع البرجماتيين الأمريكيين فلاسفة ذوى توجه نحو القيم ، ففى بؤرة اهتمامهم نجد عقلانية الإنسان الموجهة man's intelligence-guided ونشاطه الباحث عن الهدف goal-seeking activity ، فالتشاطر بالنسبة اليهم لا يعتبر أبداً مجرد عاطفة ، ولا مجرد حركة أثنوا عليها ، فقد تصوروا الحياة من خلال عبارات الفعل موجهة نحو أهداف وغايات ، فالحياة الانسانية تتميز في درجتها عن الذكاء المنعكس الذي يستطيع توجيه مثل هذه الأفعال. وبينما يعتبر هذا التوجه نحو اعتبارات القيمة توجهاً عاماً لدى معظم البرجماتيين الكبار ، فإن جون ديوى برز كعالم قيم axiologist في الحركة البرجماتية. ومن ثم فإن هذا الفصل سيدور حول فكره ، مع الإشارة الى البرجماتيين الآخرين الذين لديهم إهتمامات أكسيولوجية (قيمية) .

وكتب ديوى عبارة هامة نقتبسها هنا تقول :

«إن مشكلة استرداد التكامل والتعاون بين معتقدات الانسان عن

«العالم ومعتقداته عن القيم والأهداف التى يجب أن يوجه اليها»

«تصرفه إنما هى من أعمق مشكلات الحياة الحديثة» . p . 82

(البحث عن اليقين ص 255-The Quest for certainty)

وقد كرس ديوى حياته كمفكر وكإنسان لهذه المشكلة، ولم يكن ليقف موقفه المتشدد هذا سواء أكان مقتنعاً به أم مدفوعاً إليه .

وفي العبارة المقتبسة من كتاباته التي ذكرناها منذ قليل فإن ديوى كان يتمثل «معتقدات الإنسان عن العالم» ، فى عبارات أولية مبكرة تتناول هذه المعتقدات المتأثرة بالعلم. ورأى (ديوى) أنها من الناحية التاريخية توجه الإنسان الحديث نحو القيم (كموضوع) يتنازع عليه بين نمو الأفكار العلمية (من ناحية) (والوسائل الفنية التكنولوجية) Technology التى ساعدت على تدعيم هذه الأفكار (من ناحية أخرى) ورأى (كذلك) أن الرد بوجه عام على عدم التوجه الذي كان يكمن ليس فقط فى ابتعاده عن العلم ولكن فى توغله فيه إلى مدى بعيد : «لا يكاد العلم يستخدم لتعديل الأفعال والاتجاهات الأساسية للناس فيما يخص الموضوعات الاجتماعية» ؛ وما زلنا فى انتظار هبوب الثورة العلمية العظيمة» (1) .

وكان على ديوى وهو يتناول هذا العمل أن يطوّر نظرية عامة فى البحث العلمى، وأن يعرض فى ضوء هذه النظرية مشكلات القيمة المسئولة عن مثل هذا البحث، وقد طبق توجهه المنهجى والاكسيولوجي العام على مثل هذه المجالات الخاصة مثل الأخلاق ethics ، والفلسفة الاجتماعية، والتربية، وعلم الجمال، والدين، والفلسفة ذاتها .

ويمثل عمل (ديوى) الإجمالى بالتأكيد معظم الإسهامات لفيلسوف معاصر للحياة الحديثة. وذكر ميد أن : «جون ديوى هو فيلسوف أمريكا بأعمق المعانى» (2) .

(1) جون ديوى، «البحث عن اليقين» ، ص ص 324 - 329 .

(2) جورج هيربرت ميد ، «فلسفات روس ، وجيمس ، وديوى فى إطارها الأمريكى » ، وقد اقتبست الجملة من آخر عبارة فى المقال .

كما تم تقديم ديوى عام 1920 في الجامعة الأهلية في بكين National University of Peking باعتباره «كونفوشيوس الثانى» The second Confucius. وكتب هوايتهد أن ديوى «هو القوة الذهنية الرئيسية التى قد تلك البنية (قارة امريكا الشمالية) بهدف مترابط» (3). وفى السنوات الأخيرة على وجه الخصوص كانت هناك انتقادات بقدر ما كان بعضها خبيثًا كان بعضها الآخر p. 83 ممتازًا. إن ديوى كفيلسوف إكسيولوجى axiologist عالم أخلاق Moralism رجل يمكن الاعتماد عليه بوضوح.

2 - موضوع البحث فى علم القيم البرجماتى.

يتوقع (القارىء) من البرجماتيين أنه لكى نظل على صلة بتوجههم العام - فيجب أن يقوموا بتطوير نظرية القيمة التى تربط القيم بالفعل ، والتى ترى أن مصطلحات القيمة المتميزة (مثل «الخير» Good وما ينبغى Ought فى أكثر استخداماتها تميزاً ، كمصطلحات تم تحليلها فى النظرية البرجماتية العامة للمعنى ، والتى تذكر التقويمات evaluations (مثل البحوث التى تتناول الموضوعات أو الأفعال التى يمكن تقويمها) هى المسئولة عن نفس النموذج العام للبحث الذى يحدث فى العلم .

وقد تناول ديوى جميع هذه الكتابات بالتفصيل ، وسنستخدم دراساته فى

(3) انظر : «تأثير جون ديوى» John Dewey and His Influence فى : «فلسفة جون ديوى» إصدار بول آرثر شلب (الطبعة الثانية) ، ص 478 .

«نظرية التقويم» Theory of valuation ، والصفحات (التي كتبها) في كتابه «المنطق» كمصدر رئيسي لعرض وجهات نظره . ولم يضع ديوى نظريته الأكسيولوجية في نسق يضمه عمل ضخم مثل كتابه «المنطق» لبيان منهجه ، ولكن دراسته في «نظرية التقويم» تعطينا على الأقل النقاط الجوهرية لموقفه الأكسيولوجي. ويوظف (ديوى) في هذه الدراسة (ص 5) مصطلحات مثل «شيء ما جدير بـ...» Prizing وتعين القيمة لـ... Appraising . ولبيان الفرق الهام بينهما يقول :

«عند ما يركز الانتباه عن طريق استخدام الفعل من أجل «التقويم» To value ، فإننا نجد أن الكلام الشائع يمنع استخدام (هذا المصطلح) استخدامًا مزدوجًا ، وإذا نظرنا نظرة سريعة في القاموس فسنجد أنه «في الكلام العادي نستخدم كلمات «التقويم» Valuing و «القيمة» «المقدرة» Valuation استخدامًا حرفيًا لكي نحدد كل من «شيء ما» «جدير بـ Prizing بمعنى أنه شيء ثمين ... وتقويم Appraising» «بمعنى وضع قيمة لـ... أو تحديد القيمة لـ ...» .

p . 84 وفي كتاب ديوى «المنطق» يستخدم تعبيرات مثل يستمتع بـenjoy و «يقوم» evaluate لبيان نفس هذا التمييز .

إذن فإن «شيء ما جدير بـ...» (أو الاستمتاع بـ...) هو نوع من الفعل أو السلوك المفضل (4) تجاه شيء (فعلي أو مثالي) ، وفي الكلام الشائع غالبًا ما يستدعى ما هو جدير بـ... «أو شيء ممتع فهو «قيمة» A value ، ووضع

(4) استخدمت هذا المصطلح ، ونادرًا ما كان ديوى يستخدم مصطلح «التفضيل» أو الأفضلية Preference في أعماله ، ولكن التعبير المفضل لديه (على الأقل في آخر حياته) =

قيمة ل... ((أو عملية التقويم) - يستدعى - التناقض، وينتج عن البحث أن الشيء الفعلى أو المثالى هو شيء جديد بالتقدير ، أو يجب أن يُقدر. فالعلاقة بين شيء ما جدير به ووضع أو تحديد قيمة ل.... علاقة تبادلية ، وعندما نجد أن الشيء المراد تقديره أصبح مشكلة ، فإن البحث يوجه إلى حل هذه المشكلة ، «على سبيل المثال، فإنه لتحديد ما يجب تقديره، وما ينتج عنه من وضع قيمة له ، سيحدد لنا شيء جديد جدير بالتقدير ، أو يُعزز باعتباره كذلك . ومثال هذا البحث الخاص بوضع قيمة الشيء، مثل أى بحث آخر يحدث داخل نطاق اللاإشكالية unproblematic ، وفى هذه الحالة سيكون نطاق الأشياء الجديرة ب... لا إشكالية ، ولكى يكون البحث مقنعاً ، فإن علم القيم سيختص بدراسة الأشياء الجديرة ب... ووضع قيم ل... والعلاقة بينهما ، موضوع تجريبى ، وستدخل دراسة وضع القيم (أو التقويمات) فى إطار نظرية البحث العامة . ويمكن اعتبار علم القيم هو العلاقة المميزة لعلم القيم البرجماتى.

ومع ذلك فإن هذا الموضوع سيكون موضوعاً بسيطاً لدرجة أنه سيمثل وجهة نظر ديوى الدقيقة، وهى نظرة تتخذ على أية حال موقف الخصم من هذه المشكلات ، ويجب أن نعود الآن إلى هذه الموضوعات .

== كان السلوك المختار / المرفوض selective-rejective behavior (أنظر المقال فى مجلد ليبلى Lepley الذي أشار فيه إلى هذه الملاحظة). كما أن ديوى نفسه لم يستخدم مصطلح «علم القيم» Axiology بل كان يفضل عليه «نظرية التقويم» Theory of valuation كتعبير عام يستخدم فى كلتا الحالتين «شيء ما جدير بـ Prizing ووضع القيمة ل. أو تحديد القيمة ل... appraising أو كتعبير جامع لسائر التقويمات Evaluations .

3 - اعتبار آخر لعلم القيم عند ديوى

إذا كانت الظاهرة الإمبريقية (التجريبية) الأساسية للقيمة موضوعة على أساس علاقتها بالسلوك كشيء جدير بـ ... أو كشيء يمكن الإستمتاع به، فسيبدو أنه من الطبيعي تعريف «القيمة» بأوسع معانيها، بأنها أى شيء يمكن أن يكون جديراً بـ أو ممتع لـ ... وقد إقبحه جيمس نحو هذا الإتجاه، فكتب فى مقاله «الفيلسوف الأخلاقى والحياة الأخلاقية:»⁽⁵⁾ «إن ماهية الخير هى ببساطة ماهية لإشباع حاجة». وعرف رالف بارتون بيرى - الذى أخذ «اهتمامه بنظرية القيمة» من مقال جيمس «النظرية العامة للقيمة»⁽⁶⁾ General Theory of Value (عُرف) فيه أصل القيمة بأنها «أى موضوع لأى إهتمام»^(*)، وبحث سى. آى. لويس C.I.Lewis عن أساس تجريبي لمعنى عبارة الشيء ذو القيمة المباشرة»^(**) فوجده فى «الأشياء ذات القيمة والأشياء التى لا قيمة لها لمحتوى الخبرة المعطاة فى الوقت الحاضر»⁽⁷⁾. ولم يكن ديوى ذاته يفضل أن يطبق تعبير «القيمة» على كل شيء جدير بـ ... ولكن فقط على تلك الحالات

(5) أنظر : «المجلة الدولية لعلم الأخلاق» The International Journal of Ethics ص 330 - 54

(6) هذا الكتاب أضافه بيرس فى كتابه عوالم القيمة، Realms of value، والمملان من الإسهامات الكبيرة فى علم القيم الحديث.

(*) Any object of any interest.

(**) The immediately valuable.

(7) «تحليل المعرفة والتقويم» An Analysis of knowledge and valuation ص 397، ولويس هو أول من طبق مصطلح «القيمة» على الموضوع أو ساوى بينهما وقال : هناك بعض الاحتمال لإشباع الخبرة، Some Potentiality of it for satisfaction

Experience ص 528.

التي يكون فيها الشيء مستحقاً للتقدير بعد تصور النتائج لهذا الاستحقاق .
فالقيمة بهذا المعنى الضيق تتطلب على الأقل عملية ذهنية بسيطة، بينما لا
يكون من الضروري أن تكون النتيجة كاملة التقويم أو التقدير، وعرف ديوى
«القيمة» في بحثه «البحث عن اليقين» بأنها المباحج التي تنتج عن الفعل
الذكي « ص 259) .

أما بحث الحكمة (وهو المصطلح الدقيق) لهذا التحديد (الصارم) لتعبير
«القيمة» فإنه مشار جدل (8) ، غير أن الانتباه تركز في هذه النقطة فقط بسبب
أهمية السؤال الذي يتناول وجهة نظر ديوى والتي لها مكان في موضوع «لا
إشكالية القيمة A value unproblematic تلك الإشكالية التي تحيط بكل
تقويم وتحدد الحدود التي تحتوي على حلول البحث المتعلق بالقيم . والاجابة هي
«لا» إذا كانت القيمة التي يصبح من وظائفها تحديد البحث وهي نفسها محددة
في ذلك البحث ، وهي «نعم» إذا لم تكن هذه هي القضية .. ما هو موقف ديوى
من هذه النقطة إذن ؟

لم يكن ديوى يريد أن تكون القيم ضمن البحث ولكنه أراد لها أن تكون
p . 86 «محددة فيه عن طريق عملية البحث ذاتها» (المنطق ص 503) ، وشدد على أن
صلاحية أو برهان عملية التقويم لها علاقة بموقف إشكالي محدد . إن نتائج
التقويم السابق لها علاقة بالطبع بحل المشكلة المحددة للقيمة، تماماً مثل العلاقة
التي لحلول الأبحاث العلمية السابقة التي تتصل بحل المشكلة العلمية المحددة،

(8) أنظر : بحث «علم القيم كعلم السلوك المفضل» - Axiology as the science of Preferential Behavior في كتاب «القيمة» بحث جماعي ، نشره : راي لوبلاي Ray Le-play ، ص ص 211 - 22 .

ولكنهما في كلتا الحالتين بالنسبة لديوى هما مجرد وسائل (أدوات) instruments لتكوين الفروض المتعلقة باثبات مشكلة ما معطاء ، ولكنها ليست معايير قياسية في عبارات يمكن أن تصدر عن طريقها حكماً أو نختبر بها مشكلة . إن الأهداف النهائية ends - in - view بالنسبة لموقف إشكالي معطى قد تكونت في ذلك الموقف ذاته واختبارها إذا كانت تحل المشكلة المحددة في نفس الموقف . ولهذا فإنه يبدو من وجهة نظر ديوى أنه يوجد سياق لا إشكالي لكل بحث ، ولكن لا يوجد سياق «غير إشكالي للقيمة» - value unproblematic في البحث الذي يتناول التقويم .

ومن ناحية أخرى ، فإن ديوى كان محددًا عندما ذكر أننا «نقبل على التقويم فقط عندما تصبح القيمة إشكالية بالمعنى المادى المستمتع به» (المنطق ص 172) ، وهو محدد في الحالتين بأنه «ذلك الذى يحدد (التقويم) ولا يكون حكمًا أبدًا في موقف محدد كان محددًا (من قبل)» . ويسمى أحيانًا هذا العامل غير المحكم injudged factor بأنه عامل لا قيمة له أو غير مقوم unvaluable ، ولكنه يضيف : «إن الكلمة لا تعنى شيئًا ذات قيمة عليا عند مقارنتها بالأشياء لأخرى أكثر مما تعنى شيئًا قيمته صفر إنها تعنى ، باختصار ذلك الحكم الذى يصدر ضد الحقيقة (الواقعة) الأولية لشيء ، ثمين محدد» .

(مقالات في المنطق التجريبي ، ص 384) .

إذن ، يبدو أن مصطلح «القيمة» سواء أكان أم لم يكن ، يطبق على أى موضوع جدير بالتطبيق ، وهناك نقطة (هامة) وهى أن التقويم الذى حددناه بأنه p . 87 «ما هو جدير بكذا...» ، يحدث في موقف إشكالي يتضمن موضوعات لا

إشكالية جدية بالبحث ، وإنها قد السياق (على الأقل بجزء منها) الذي تستحقه الفروض ويمكن اختبارها به . وكما يبدو ، فإن التقويم هو أحكام «معرفية» (إدراكية) جوهرية ، تجريبية في طبيعتها وبممكنة الإختبار التجريبي في المواقف اللاإشكالية التي تكون بعض موضوعاتها جدية بالبحث . وقد اعتبرت هذه النقطة محورية في علم القيم البرجماتي .

4 - علاقة التقويم بالنظرية العامة للبحث .

نرى من المناقشة السابقة أن التقويم يتبع نفس منهج العملية العامة للبحث كما يحدث في التفكير العلمي ، ولكي نتبين أن هذا الموقف كان من أهداف فلسفة ديوى الكبرى ، ولكي نتبين أيضا المدى الذي وصل اليه ديوى في هذه النقطة ، فإن المجال الكلي لمشكلات القيمة الإنسانية تظل مفتوحة لإستخدام نفس المنهج العام للبحث والذي له مثل هذا النجاح المثير في العلم ، وعلى الرغم من ذلك فهناك بعض الأساليب في دفاع ديوى عن هذا الموقف ، يجب أن نوضحها ، كما أن هناك بعض أنواع الغموض التي يجب إزالتها .

وقد رأينا في الفصل الذي عالج نظرية العلامات (السيمياء) البرجماتية أن ديوى أقصر منذ البداية بالفرق بين «أحكام الواقع» Judgments of fact و «أحكام الخير» Judgments of good و «أحكام العادة» Judgments of practice ، ولكنه إتجه نحو إخضاع النوعين الأوليان الى النوع الثالث (من الأحكام) : وتقع أحكام الواقع وأحكام الخير فقط في نطاق احتياجنا لأحكام العادة ، كما يستخدمان كأدوات لأحكام العادة . ولكن تحليل طبيعة هذه الأشكال الثلاثة من الحكم والعلاقة بينها يبدو أنها تعبر عن رغبة ديوى في كتاباته المبكرة .

p . 88 ولم يوضح كتاب «المنطق» (لديوى) تمامًا الكتابات المتضمنة للفرق بين أحكام الخير وأحكام العادة، ولم يؤكد ديوى⁽⁹⁾ عليها كثيراً على ما يبدو، وفي الحقيقة فقد استخدم مصطلح (تعبير) تعيين أو تحديد القيمة لـ... (أو التقدير estimate) استخداماً متكرراً في سياق منهج البحث، ولكنه تم تحديده عن طريق «الأحكام الجزئية» Partial judgments التي تتجه نحو حكم التطبيق النهائي الذي يمثل الحل لمشكلة البحث (المنطق، ص ص 133-140). وسواء اعتبرت هذه «الأحكام الجزئية»، أم لم تعتبر كأحكام تطبيقية أولية فإن الأمر لا يبدو أنه واضح أمامي.

وعلى الرغم من ذلك فإن «أحكام الواقع» (وتسمى الآن قضايا إعلانية أو لفظية declarative or enunciative propositions) واضحة تماماً، ولكنها تعتبر أيضاً «كأدوات أو «وسائل» أو «ذرائع» instrumentalities فنحتاج إليها في سياق البحث. ولهذا فإنه سيبدو أنه يوجد فقط نوع واحد من البحث وأعني به ذلك النوع المتمثل في أحكام العادة. وربما يُعتقد أن هذا ما فهمه ديوى من البرجماتية.

وهناك صعوبات أخرى في كتابات ديوى لا يبدو أنها تسترعى انتباهنا وهي : أن مثل هذا البحث دائماً ما ينتهي بحكم من أحكام العادة، وقد اعترف أن البحث يتضمن بحوثاً Investigations أخرى لتحديد «الوقائع» Facts (الشروط الوجودية الزمنية من حيث الحاضر والماضي) لكي نتمكن من الشروع في البحث. ولا أرى سبباً لعدم تسمية مثل هذه البحوث بحوثاً بمعنى inquiries

(9) لمزيد من الإطلاع على النصوص التي كتبها ديوى لبيان الفرق بين «الخير» Good و «الحق» Right، أنظر كتابه «نظرية التقويم» Theory of valuation ص ص 47، 57.

(أو بحوثاً فرعية subinquiries) ، ولا لماذا يجب أن تسمى نتائجها بأحكام العادة judgments of practice .

وعلى سبيل المثال ، فإذا كان البحث يدور حول مرض السرطان - كخطر يهدد البشرية جمعاء - وينشأ عن المشكلات التي تواجه الحياة الإنسانية ، فلا شك أنه يبدو إذا كنا سنصف (أو يجب) أن نصف نتائج البحوث الفرعية وإذا كانت مواد معينة تعد مواد فعالة تسبب مرض السرطان cancerigenic p. 89 باعتبارها أحكام تطبيقية (أحكام عادة) (مثلما يجب على الأحكام أن تفعل) ، فإننا سنعتبر حقيقة هذه المواد جديرة بالتقدير، بينما لا تعتبر غيرها من المواد كذلك كنتيجة لهذه البحوث (الفرعية) ، ولكن الإعلان عن أن المادة المعطاة هي مادة سرطانية فعالة أم غير فعالة يبدو أنه لا علاقة له بالتقدير البشرى سواء فى مدلوله (المادى) أو فى صيغته التعزيزية . ولهذا فإن هذا البحث المحدد (أو البحث الفرعى) لا يبدو أنه يتكشف عن نتيجة ما فى الحكم التطبيقي .

وفى ضوء هذه الاعتبارات ، فإنه من الحكمة أن نميز بين المشكلات (بطريقة كنط)و التي نعتقد أنها القضية The case بأنها مشكلات تستحق التقدير، ومشكلات تتعلق بالفعل . وسوف تتكشف البحوث المعنية بهذه المشكلات عن نتائج يمكن صياغتها بأنواع مختلفة من التعبيرات الرمزية، وبهذه الطريقة يمكننا أن نميز بحوثاً بعينها، ومحددة القيمة، ووصفية ⁽¹⁰⁾ . وجميع هذه الأنواع من البحث يمكن أن يشملها تعبير ديوى بمعناه الواسع فتصبح «علمية» ، ويعنى أنها فقط يمكن أن تمثل النموذج العام للبحث الذي قام ديوى بتحليله وأصبح من

(10) أنظر كتابي «المعنى والمغزى» دراسة فى علاقات العلامات والقيم

Signification and significance : A study of the Relations of signs and Values.

الوجهة التاريخية علامة واضحة لعمل العلماء . وأن هذا سيكون متسقاً مع إدراكنا أن الأنواع الفرعية للبحث تختلف فيما بينها في نوع المشكلات التي تتناولها مع / وفي التعبيرات الرمزية التي تتكشف عنها . إن مثل هذا الإدراك سوف يحى ديوى من إتهامه «بالنزعة العلمية أو التعالمية» Scienticism التي غالباً ما يدمغه بها النقاد (واعتقد أنها تلتصق به خطأ) (11) . ويحميه أيضاً من الإتهام المضاد بأن نظريته العامة فى البحث تأثرت بتوجهه الأخلاقى الخاص (12) ، وبالتالى فهو ليس «علمياً» بدرجة كافية .

90 p . 5 - مشكلة نظم علم القيم

إذا كان علم القيم يرتكز على ظواهر تجريبية للأشياء الجديرة بالتقويم وعلى

(11) إن تركيز ديوى على «العلم» Science كان فى بدايته تركيزاً على الاتجاه العلمى Scientific Attitude وكتب ما يلى عن هذا الموضوع ، «يُعرف الاتجاه العلمى هنا بأنه صفة (كيفية) quality تبدو لنا أينما توجهنا فى الحياة . إذن ما هو الاتجاه العلمى؟ إنه من الناحية السلبية عبارة عن التحرر من قيود الروتين ، والتعصب ، والفكرة المتسلطة Dogma ، والتقاليد غير المصححة ، والتجرد من الإهتمامات الذاتية . أما من الناحية الإيجابية فهو الرغبة فى البحث ، والفحص ، والتصبير ، وفى الوصول الى نتائج تقوم على أساس إقامة الدليل بعد طول معاناة لجمع كل الأدلة الممكنة . إنه النية (القصد) فى الوصول الى معتقدات ثابتة ، وأن نختبر تلك المعتقدات التى تأملناها ولكن على أساس من الحقائق التى تمت ملاحظتها ، وأن نتعرف أيضاً على الحقائق التى لا معنى لها ولكنها قد تشير إلى أفكار ما . إنه (الاتجاه العلمى) فى مقابل الاتجاه التجريبى الذى تفهم من خلاله أنه عندما تكون الأفكار ضرورية للتعامل مع الحقائق ، فإنها تكون مجرد فروض تختبر عن طريق نتائجها التى نتجت عنها» . (انظر نظرية القيمة ، ص 31) .

(12) إن ديوى على وعى بإحتمالات هذه النقطة ، وذكر أنه لو تمكن من نقد أفكاره لوضع هذه القضية من أجل أن يدحضها . (أنظر : الملحق فى كتاب : فلسفة جون ديوى . إصدار بول آرثر شلب ، ص 579, ff. .

نوع البحث الذي ينتج عنه التقويمات الخاصة (بأحكام الخير، وأحكام ما ينبغي) فإن الأنساق الأكسيولوجية المحددة يجب أن تختلف في طريقة التعبير عن الأنواع المحددة للأشياء الجديرة بالتقويم أختلافاً نسقياً ، وتبعاً لذلك تختلف في تعبيراتها الخاصة بـ «القيمة اللاشكالية» المحددة والمتضمنة في التقويمات المحددة المناظرة . وسوف يشتمل علم القيم البرجماتى النسقى على مثل هذا العمل . ولا يوجد علم قيم برجماتى نسقى آخر مماثلته (13).

حقاً لقد قام بيرس بعمل تقسيم فرعى محدد للعلوم المعيارية normative sciences فى الفلسفة، ذكر فيه أن المنطق كان يعتمد على الأخلاق Ethics ، والاخلاق تعتمد على الجمال « Aesthetics ، ولكن جاء هذا التقسيم في الأعمال المتأخرة لبيرس وقد ظل متناثراً (14)، ولم يكن موجهاً بنفس الطريقة كما فى العمل السابق ، ولم يحاول ديوى أن يربط علم القيم العام (على الأقل كما أندر بهذا فى كتابه «نظرية التقويم» Theory of valuation) بمعالجته لمثل هذه المجالات المحددة مثل علم الأخلاق وعلم الجمال . ومع ذلك فقد عنى البرجماتيون بدرجة كبيرة بالمجالات المحددة للقيمة ، وسوف نتناول بعض أفكارهم عن علم الأخلاق ، والنظرية السياسية، وعلم الجمال ، والدين (15) .

ويجب أن نشبت هنا أولاً ملاحظة عامة ، وهى أنه من الضروري فى التوجه

(13) يعتبر كتاب «رالف بارتون بيرى» «عوالم القيمة» Realms of value ، السابق ذكره ، إسهاماً عظيماً فى هذا المجال .

(14) انظر : تشارلز ساندروز بيرس ، «فى المعايير والمثل» On Norms and Ideals بقلم فنسنت بوتنر Vincent G. Potter .

(15) انظر : بحثنا القصير فى ملحق هذا الكتاب بعنوان : «جون ديوى معلماً» John Dewey as Educator .

البرجماتى فى جميع الحالات أن نضع الموضوع التجريبي للنسق فى صيغة تساؤل ومن ثم فإنّه من المهم أن نميز الكتابات النظرية العامة التى تتضمنها أنساق التقويمات المحددة التى قد يتناولها فيلسوف برجماتى بعينه . وعلى سبيل المثال، p . 91 فإن الأخلاق النظرية ستعنى بمثل هذه المشكلات كنوع من أنواع إرتياد مجال المشكلات الأخلاقية وكذلك لتحديد ماذا يُعنى بما يُسمى فعل «صحيح أخلاقياً» morally right لتمييزه تقويمياً، فعل معين فى موقف محدد كفعل صحيح من الناحية الأخلاقية. وهناك بعض الفروق المشابهة سيكون من الضرورى (الإشارة إليها) فى مجالات إكسيولوجية أخرى . وهناك فيلسوفان برجماتيان يمكن أن يتفقا فى طبيعة علم القيم العام وفى إرتياد بعض الأنساق الإكسيولوجية الخاصة مثل ميد وديوى ، اللذان اختلفا فيما إذا كان على الولايات المتحدة أن تلتحق بعصبة الأمم The League of Nations التى أنشئت بعد الحرب العالمية الأولى ، أو مثلما اختلف كل من جيمس وبيرس اللذان اختلفا فى تأكيدهما على أهمية الفرد والمجتمع .

6 - علم الأخلاق البرجماتى

إن علم الأخلاق (*) هو العلم الذى يتناول نظرية السلوك المعقول أو الأخلاقى moral behavior فما هو إذن السلوك الصحيح ؟ لقد اختلف الفلاسفة فى اجاباتهم (على هذا السؤال) : فبعض الفلاسفة يعتبر جميع

(*) تفرق القواميس بين مصطلحي الأخلاق بمعنى Ethics والعقولة أو التصرف السليم أو الصحيح moral . فتذكر القواميس أن علم الاخلاق Ethics هو (1) فرع من فروع الفلسفة يتناول معيار اتباع الخير والصح ويقوم الصح والخطأ . (2) معايير التصرف أو تقنيات السلوك ==

المشكلات التى تتعلق بالتعقل والحكمة والحذر مشكلات أخلاقية ، أو أنها تختص بالتهذيب والحكمة ، بينما لا يعتبرها الآخرون كذلك . واعتقد أن جميع الفلاسفة البرجماتيين فكروا فى السلوك الأخلاقى (الصحيح) من خلال مصطلحات اجتماعية ، أى أننا لكى نأخذ فى الاعتبار سلوك فردى لشخص ما من منطلق نقطة أخلاقية ، فإن هذا الاعتبار للسلوك ينبع من نقطة تأثره بأشخاص آخرين فضلاً عن تأثره بسلوكه الشخصى نفسه . إذن فتقويم السلوك إنما هو بحث موجه لتحديد السلوك الصحيح (أو السلوك الخطأ) .

وكما ذكرنا فى الصحف السابقة ، فإنه من صفات التوجه الأخلاقى البرجماتى أن تنظر إلى المشكلات الأخلاقية من خلال عبارات تعبر عن المواقف P, 92 الفريدة المحددة⁽¹⁶⁾. لهذا ذكر جيمس قوله «إن ماهية الخير هى ما يشبع حاجة ما» فقد نظر الى الفعل الأخلاقى باعتباره تحقيق أكبر قدر ممكن من الخير فى

== سلوك المهنة والشرعية. (see: Macmillan Dictionary, New York , 1973, p. 350) بينما تذكر القواميس أن مصطلح Moral هو : (1) أن يكون المرء صالحاً تبعاً لمعايير الصبح والخطأ فنقول «شخص صالح» a moral person . (2) ما يتفق مع معايير السلوك الصحيح، فنقول : «إنه الشيء الصحيح لفعله» The moral thing to do ، (3) بالنسبة إلى ... أو يهتم بمعيار التصرف الصحيح، فنقول : المناخ الصحيح (الصحيح) للجامعة The moral climate of a University ، (4) ما يرتقى به الإنسان ، أو يساعد على الترقى ، أو ما هو فى جانب التصرف الصحيح أو الخطأ . على سبيل المثال التصرف الجنسى Sexual conduct ، وهذا المصطلح من المصطلح اللاتينى moralis أى ما يتصل بالأخلاق mōs، والعبادات والسلوك . واللفظان Moral-Ethical يعنيان ما يتفق مع التصرف السليم .

(Ibid, p. 660) (المترجم) .

(16) لا يبدو أن هذا ينطبق على بيرس الذى ركز أكثر على «الحكمة المألوفة» (أو المعتادة) Cus-tomary morality أكثر من تركيزه على حل المشكلة الأخلاقية عن طريق البحث التأملى.

مواقف تتصارع فيها «الحاجات» Demands ، (ويقول جيمس) :

« لا يوجد غير أمر واحد غير مشروط ، وهو ما نبحث عنه بغير انقطاع »
« يخوف وارتعاش ، لذلك نصوت ونفعل ، كما نسعى للحصول على »
« أكبر قدر ممكن من الخير للكون .. وكل معضلة حقيقية هي بمعناها »
« الحرفى الدقيق موقف فريد ، والتركيب الصحيح للمثل المدركة »
« والمثل التى فشلنا فى إدراكها هى أن كل قرار يوجد هو دائماً كون »
« غير مسبوق بشئ » ، ولم يكن هناك قاعدة قبله مسبقاً مناسبة » ، (17)
وكتب ميد عبارات مشابهة تتعلق بعلاقة القيمة بالفعل الكامل :
« ليست المسألة الأخلاقية مسألة إيجاد قيمة صحيحة تعلو على قيمة »
« خاطئة ، انها مسألة إمكانية إيجاد فعل نراعى فيه إلى أبعد مدى »
« ممكن جميع القيم (التى يجب) أن تتضمنه (فلسفة الفعل ، ص 465).
« ليس لدينا حق أكثر من ذلك فيجب علينا ألا نهمل القيمة الحقيقية »
« للشيء كما يجب أن لا نهمل واقعة فى مسألة علمية. ففى حل »
« مسألة ما يجب أن نأخذ (فى اعتبارنا) جميع القيم التى لها بها »
« علاقة . (المصدر السابق ، ص 461) (18) » .

(17) وليام جيمس ، «الفيلسوف الأخلاقى والحياة الأخلاقية» The Moral Philosopher and the Moral Life ، ص ص 349 - 50 .

(18) البحث الرئيسى الذى كتبه ميد فى علم الأخلاق هو «المنهج العلمى وعلوم الأخلاق» Scientific Method and the Moral sciences إن نظرية ميد الخاصة «بالقيام بدور ما Role - taking ، توقظ فى نفس الانسان اتجاهات القيمة لدى الآخرين .

وقد تم اختبار التركيز على «الموقف الوحيد أو الفريد» the unique situation الذي يُحدث فن السلوك الأخلاقي والتقسيم الأخلاقي على وجه الخصوص في نظرية ديوى الأخلاقية الدائمة ، وهي دائمة ، وعلى سبيل المثال، في الفصل الذي كتبه عن الأخلاق Morality في كتابه «التجديد في الفلسفة» Reconstruction in Philosophy ، بالإضافة إلى «نظرية التقويم» Theory of valuation . إن تحديد ما هو صحيح في الفعل (أي ما يجب فعله بطريقة أخلاقية) يشبه جميع (أنواع) التقويمات (الأخرى) ، وهو تحديد ما هو مطلوب لحل موقف إشكالي محدد ، فالفرض الأخلاقي المحدد يتكون في الموقف ذاته) ولا يأتيه من خارجه :

« إن الإنتهاء الى وجهات نظر هو تعيين قيمة أو تقويم (الفعل) كخير »
« أو شر على أساس مطابقتها على ما ينفع serviceability في »
« مقابل السلوك الذي يتعامل مع حالات غرضية توجد لكي يتم »
« الاعتراض عليها بسبب وجود بعض النقص أو الصراع بداخلها . »
« إنها محددة القيمة (بمعنى ان نقول) أنها مناسبة أو غير مناسبة »
« صحيحة أم غير صحيحة، صح أم خطأ ، على أساس ما تمثله »
« من حاجة requiredness لإفجاز هذه الغاية »
(نظرية التقويم ، ص 47) .

إنه نفس النقد المتكرر لمثل هذه النزعة الموقفية Situationism في النظرية الأخلاقية (وأیضا السیاسیة) والتي لها مكان لها في المعرفة الأخلاقية التراكمية وفي الحكمة . ولكن الحالة تختلف بالتأكيد بالنسبة لديوى ، (فهو يقول) :

«نحن نشك في وجود أفكار الغايات والقيم الخاضعة للتعميم (وعلى

«الرغم من ذلك) فهي قد توجد ليس فقط كأفكار تعبر عن العادة»
«وكأفكار لا تقبل النقد وربما كانت غير صالحة، ولكن وينفس الطريقة»
«أيضا كأفكار عامة صحيحة تنشأ في أي موضوع ... لأن الأفكار»
«العامة للسلوك في أي علم طبيعي تستخدم كأدوات ذهنية للحكم»
«على حالات خاصة كما تنشأ الأفكار الأخرى، إنها في الواقع،»
«أدوات توجه وتيسر تمحيص الأشياء في الواقع العيني (التجريبي)»
«بينما هي أيضا متطورة وتم اختبارها عن طريق نتائج تطبيقاتها»
«في هذه الحالات» (نظرية التقويم، ص 44).

وفي المجلد التاريخي الهام عن «الأخلاق» Ethics الذي كتبه ديوى وجيمس هـ. توفتس James H. Tufts⁽¹⁹⁾، نجد أنهما ميّزا بين الأخلاق «التأملية» Reflective و «العرفية» Customary أما اهتمامنا في هذه الصفحات (الصحف) فإنه سيكون منصّباً على العبارات الأخلاقية التأملية، ولكن طالما كانت العبارة المقتبسة الأخيرة واضحة، فإنه لا يمكن إنكار الغايات الأخلاقية العامة والمبادئ، ويشملها المبادئ الأخلاقية «العرفية»، كما إنه ليس من الضروري إنكار صحتها ولأمكان استخدامها كأدوات (وسيلية) their instrumentality p. 94، وعلى الأقل فإن بعضها يمكن حتى إعتباره «قبلياً من الناحية الاجرائية أو العملية Operationally a priori بمعنى أن هذا العنوان قد استخدم من قبل، ولكننا سنظل نعتبرها ناشئة. الاهتمام بمسائل (مشكلات) أخلاقية محددة، ولكونها قد قننت (مسيقاً) فإننا نستطيع أن نواجه بها مسائل أخلاقية أخرى محددة.

(19) نشر كتاب كل من جون ديوى وجيمس توفتس عن «الأخلاق» Ethics عام 1908، وظل لعدة سنوات أحد الكتب الهامة ذات الأثر البعيد في الفلسفة الأمريكية.

7 - النظرية السياسية : الديمقراطية كتصور أخلاقي

إن تفاعلات الأشخاص فى أى عملية خاصة بالتفاعل الإجتماعى المباشر - أخلاقى أم غير أخلاقى - تتضمن بطريقة مباشرة التأثير على أشخاص آخرين، وهؤلاء الأشخاص الآخريين هم «الجمهور» a Public . ففى أى عملية خاصة بالتفاعل الاجتماعى المباشر يوجد «جمهور» مكون من أشخاص غير أولئك الذين اشتركوا فى التفاعل المباشر ، ولكنهم متأثرون بهذا التفاعل ، فكل عضو فى المجتمع هو فى الواقع جزء من الجمهور ، وله علاقة بالتفاعلات الإجتماعية المباشرة بالأعضاء الآخرين فى المجتمع . ويطور أعضاء المجتمع - كجمهور - القواعد أو المعايير norms أو المقاييس الخاصة بالتفاعل الاجتماعى المطبقة على جميع أعضاء المجتمع لكى يتم التحكم فى المؤثرات العامة للتفاعل الاجتماعى ، والأبعد من ذلك فإن هذه المؤثرات التى ذكرناها تنشئ بالضرورة مجموعة من القوانين ، والأشخاص الذين يطبق عليهم هذه القوانين هم أعضاء فى المجتمع السياسى ، والأشخاص الذين يقومون بتنفيذ هذه القوانين يكونون الحكومة. إن النظرية السياسية هى الدراسة العامة للمجتمع السياسى .

وتعتبر الفقرة السابقة نقل بتصرف إلى حد ما لموقف ديوى (الذى نشره) فى كتابه «الجمهور ومشكلاته» The Public and its Problems⁽²⁰⁾ ، وقد قدمناها باعتبارها الأساس لتفسير ديوى للديموقراطية الأمريكية وعلاقته بها.

(20) يمكن أن نلاحظ وجود فرق بين «النظرية السياسية» التى وردت فى كتاب «النظرية الأخلاقية» وبين العبارات المحددة عن المجتمعات السياسية، وبينهما وبين التقويم من حيث وصفه للمجتمعات السياسية ، فإن الفكر السياسى والاخلاقى لدى ديوى يحتوى على كلا العنصرين المذكورين معاً آنفاً.

ويتضح للقارىء فى الحال أن كتاب «الجمهور ومشكلاته» يتناول العلاقة ذات الصلة بالموضوع⁽²¹⁾، (وبلاحظ) أن ديوى لا يكتب كعالم سياسى يحاول أن يصف المؤسسات السياسية فى الولايات المتحدة، ولكنه يكتب كأحد الأشخاص الذين يدينون الديمقراطية الأمريكية، ناقدًا بشدة فى أعماله ما وجده حوله ولكنه معنًى بتحسين هذه المؤسسات السياسية ونشرها . ولم يعرف ديوى الديمقراطية فى عبارات تاريخية، أو سياسية، أو وفق أنظمة اقتصادية (معينة) ، فالديموقراطية بالنسبة اليه كانت تصور أخلاقى Moral Conception بصفة أساسية .

وكان هذا واضحًا منذ البداية ففى عام 1888 ألقى بحثًا فى جامعة ميتشجان The University of Michigan بعنوان : «أخلاق الديمقراطية» The Ethics of Democracy ، تصور فيه الديمقراطية على أنها الأخذ بالمنهج الأخلاقى عند تناول المشكلات الاجتماعية، والمنهج الأخلاقى - كما فسره مؤخرًا بالتفصيل - كان - كما رأينا - تطبيقًا للبحث (وبصفة أساسية كما يبدو فى العلم) لحل مشكلات القيمة التى تنشأ فى المواقف الاجتماعية . فالديموقراطية - فى تصور ديوى - تُستمد من التوجه الأخلاقى (ليشمل هذا التصور) المشكلات السياسية . إذن ستصبح المشكلات السياسية مشكلات أخلاقية . وبما أن الغاية بالنسبة لديوى لحل أى مشكلة تختص بالقيمة، فإنها تتبلور فى تعبيرات الوسائل المتاحة، والوسائل المتاحة تحدد قيمتها بتعبيرات تشمل مدى مناسبتها للغاية الناشئة (حتى يكون اختيار الوسائل والغاية قد تقررا معًا) والفعل

(21) أنظر كتب ديوى «التزعة الفردية Individualism ، و «القديم والجديد» Old and New ، و «التزعة التحررية والفعل الاجتماعى Liberalism and social Action ، و «الحرية والحضارة» Freedom and Culture ، و «مشكلات الناس» Problem of Men .

الأخلاقي - إذن عند هذا الحد - هو فعل سياسي يجب أن يستخدم وسائل أخلاقية لمحاولة بلوغ الغاية الأخلاقية .

وهناك طريقة أخرى للتعبير عن هذا الموقف وهي أن نقول أنه بالنسبة لديوى (وجيمس وميد) فإن وجهة النظر الأخلاقية تعتبر أن كل شخص يقف في موقف تقييمي إشكالي يعتبر (هذا الموقف) غاية في ذاته وليس وسيلة ، وتدخل هذه الصياغة ضمن التراث الكنطي ومن ثم المسيحي ، وسيكون قبول الديمقراطية كتصور أخلاقي نتيجة لإتساع هذا الموقف ليشمل مشكلات المجتمع ككل .

وهناك نقطة إضافية يجب أن نركز عليها طالما أنها تبين أكثر الإسهامات المتميزة للبرجماتية الأمريكية (في هذا المجال) ، فإن بيرس بتوجهه نحو المجتمع العلمي وعمليته الاجتماعية للبحث ينزع نحو التقليل من شأن النزعة الفردية. ولكن جيمس - على العكس - ركز على الأشخاص كأفراد مجداً الفرد ، بعد أن كتب موافقاً على أن «الجماعة أقل شأنًا من الفرد» ^(*) ، وكتب يقول : «دعونا نشعر بالغبطة ونحن نطلب الديمقراطية ، فإن هذا لن يخنق الفرد ، وهذا هو كل شيء» .

وعلى الرغم من ذلك فإنه بالنسبة لديوى وميد نجد أن الفرد والمجتمع متلازمان تلازمًا كاملاً، وكتب ديوى أن الفرد هو «مركز التجديد بالنسبة للمجتمع» ^(**) ، أما ميد فقد سلم بأن الفرد المفكر ، الواعي لذاته Self-Conscious والأخلاقي ، يوجد فقط من خلال العملية الاجتماعية، إلا أن

(*) The group is inferior to individual.

(**) The reconstruction center of society.

تمثيل الفرد بدوره يجعل المستويات الأكثر تعقيداً واختلاقاً للمجتمع الإنساني ممكنة . ولذلك فإن المجتمع الانساني بالنسبة لديوى وميد ليس نسيجاً فسيفسائياً a mosaic من أفراد مستقلين ، وليس كل "عضوى بحيث يعتبر الفرد دخيلاً عليه . وهكذا فإن تصورهما للديمقراطية يعد خليطاً شاذاً من استحسان للعبارة المشهورة ، «دعه يعمل» Laissez faire والأنظمة السياسية التي تحتكر السلطة (الاستبدادية) totalitarian ، ويبسّدو لى أن هذا الإدراك للمنفعة الكاملة لكل من الفرد والمجتمع هو أحد الانجازات الهامة للحركة البرجماتية .

97 p . 8 - علم الجمال والمظهر الجمالي للخبرة

ليس هناك دليل على أن التفسير العام للبرجماتية كفلسفة عملية Practically وانتهازية opportunism وتجنح للتنزعة التعالمية scientism أفضل من المكانة العالية التي نالتها الخبرة الجمالية aesthetic experience (وبالتالى ما وصل اليه الفن والفنانين من مكانة عالية) منحها إياهم البرجماتيون الأمريكيون . حقاً ، هناك المظهر الجمالي للخبرة التي يجب أن يستند إليه المعنى فى سبيل بلوغ أعلى منزلة لهذه الحركة الفلسفية .

وعلى الرغم من أن المؤلفات (الصادرة) فى علم الجمال ليست مركزة، فإنه لا يوجد عرض مناسب ممكن فى صحف قليلة⁽²²⁾ . وسوف نركز الانتباه على

(22) هناك بحث لميد بالإضافة الى ما ذكره ديوى فى كتابه «الفن كخبرة» وبعض الفصول فى كتابه

«الخبرة والطبيعة» Experience and Nature بعنوان «طبيعة الخبرة الجمالية» The

Nature of Aesthetic Experience (وقد تم إعادة طبعه مع بعض الحذف فى ==

وجهات نظر ديوى منذ أن بدأ عمله (وعلى وجه الخصوص «الفن كخبرة Art as Experience) وهو ذو أهمية رئيسية فى هذا الموضوع .

كتب ديوى فى كتابه «التجديد فى الفلسفة» :

«حقاً ، لا يوجد تساؤل دال أمام العالم أكثر من التساؤل عن إمكانية»
«ومنهج التوفيق بين إتجاهات العلم العملى والادراك العالى للجمال» . (23)

وقد صدر كتاب «الفن كخبرة» عام 1934 (وبعد 14 سنة) أجاب ديوى على هذا التساؤل ، فقد وجه ديوى فى هذا العمل الإنتباه لما تتضمنه الممارسة اليومية للحديث عن «الخبرة» :

«(نقول) أننا حصلنا على الخبرة عندما تجرى المادة المختبرة فى مجراها»
«إلى غايتها، عندئذ وعندئذ فقط تتكامل داخل مجرى الخبرة العام»
«المحدد عن الخبرات الأخرى. وقد إنتهى جزء من العمل بطريقة مُرضية،»
«فالمشكلة تجد لها حلاً ، لقد انتهت المباراة ، إن الموقف - سواء أكان»
«تناول طعام ، أو ممارسة لعبة الشطرنج ، أو إجراء محادثة، أو كتابة»
«كتاب ، أو الاشتراك فى حملة سياسية -، إنها (جميعاً) تقترب من»
«الكمال وليس من التوقف ، إن مثل هذه الخبرة كاملة وتتسم بفرديتها»
«الخاصة المتفردة واكتفائها الذاتى . أنها الخبرة»

p . 98

== كتابه «فلسفة الفعل» فى الصفح 454 - 457 . والفصول 14-15 فى كتاب لويس «تحليل المعرفة والتقويم» ، وكتاب «الفن والحرية» (فى مجلدين) لهوراس م . كالين Horace M. Kal-
len وكتاب «مقدمة فى علم الجمال» An Introduction to Beauty بقلم «قان ميتر آمز»
Van Meter Ames.

(23) جون ديوى ، «التجديد فى الفلسفة» ، ص 127 .

(الفن كخبرة ، ص 35) .

(و يضيف قائلاً) :

«وفى الخبرة الجمالية المتميزة صفات تخضع لخبرات أخرى مهيمنة ،»

«تلك الخبرات التابعة أعنى بها (خبرات) ضابطة، فالصفات التى»

«توجد فى الفضيلة والتى تتكامل فى الخبرة هى خبرة متكاملة»

«بمعناها الخاص» .

المصدر السابق ص 55

(ثم يضيف أيضا قوله) :

«إن الموضوع الخاص المتميز والمسيطر هو موضوع جمالى ، ينتج عنه صفة»

«الاستمتاع التى ترتبط أبادراك الحسى الجمالى ، وعندما تعلو العناصر»

«التى تحدد أى شيء- وهى ما يمكن أن نسميها الخبرة الجمالية التى تسمى»

«على الإدراك الحسى المجرد وتعلن عن نفسها» . (المصدر السابق ص57)

وعندما تتميز الخبرة الجمالية بهذه الطريقة فإنه يصبح من الواضح أن الجمال

ليس نوعاً واحداً خاصاً من الخبرة يختلف اختلافاً بيناً عن الأنواع الأخرى منها ،

ولكنها مسألة درجة تأخذ فيها الخبرة صفة الإكتمال . ومن ثم يصبح لدينا خبرة

جمالية، ومثل هذه الخبرة هى موضوع علم الجمال ، ويعتبر الفن جزءاً من هذا

الموضوع فقط ، حيث أن الفن كنتاج إنسانى يمكن النظر اليه باعتباره من انتاج

موضوعات تكونت على وجه الخصوص لكى تسمح بوجود الخبرة الجمالية وتؤكد

عليها .

وطالما أن الانتاج والادراك الحسى فى الفن أنشطة إنسانية (وهى بالنسبة

لديوى أنشطة إنسانية متشابهة تماماً) ، وطالما أن الحصول على خبرة جمالية -

p . 99 حتى عندما يثيرها العمل الفني - تتضمن نشاطاً متكاملأً، فإنها جميعاً تتسق مع التوجه الفعلى للبرجماتية في علم الجمال عند ديوى . ولا ينتفى القول بالوسيلة instrumental فى فكر ديوى فى هذا التحليل ، أما بالنسبة للأعمال التى ينتجها الفنانون فإنها تعد كوسائل فى عملية التغيير ، وإضافة لبيئة الإنسان لكى يمد سيطرته على جميع نواحي التكامل فى خبرته .

إذن أين يوجد العنصر «التأملى» Contemplative فى «التقدير الجمالى» aesthetic appreciation ؟ هناك مصدران على الأقل عند ديوى لهما علاقة بهذه النقطة. أحدهما يتمثل فى إدراكه أن الخبرة وجهان : فهى موضوع معاناة undergoing ، فضلاً عن أنها عمل ، فإن ما يعانيه الإنسان نتيجة لعمله يمكن أن يكون هو ذاته رد فعل وبالتالي يصبح موضوعاً (أو عنصراً جوهرياً) للخبرة الجمالية . فتوجه ديوى نفسه توجهاً قوياً لدرجة أنه يعد توجه عالم الأخلاق الذى لا يؤكد تأكيداً مناسباً دائماً فى كتاباته على «المعاناة» الناشئة عن الخبرة ، ولكن هذا الإهمال يصح فى علم الجمال لديه وليس فى علم الأخلاق .

(والموضوع) الأكثر أهمية أن ديوى يتيح فى علم الجمال التأكيد البرجماتى العام على علم العلامات (السيمياء) ، بينما يجد أنه من غير الضروري أن يفعل ذلك دائماً ، فإنه يمكن أن يعبر عن «الخبرة» وبهذا يكسب نوعاً من الاتجاه التأملى إلى جانبه . إلا أن الدلالة الأكبر هى أنه فى الحقيقة حتى إذا لم تكن جميع الأعمال الفنية علامات (سيمائية) (وهذه نقطة مثار خلاف) ، فإن كثيراً منها يعد علامات أو أنها تتضمن علامات ما .

وفى كتاب «الفن كخبرة» نجد أقوالاً كثيرة لديوى فيما يتعلق «بالمعنى» الخاص بالفن، وعلى وجه الخصوص فى الفصل الخاص «بالموضوع المعبر» ..

The expressive object وقد ميّز بين التعبير والبيان : «إن العلم يقرر المعانى ،
والفن يعبر عنها » . (*) (ص 84) ، والنص التالى يوضح هذا التمييز:

« يختلف الشعر عن النثر، وفن الجمال يختلف عن العلم، ويختلف » p . 100

«التعبير عن التقرير، ويوجد فى هذا الاختلاف شيء ما مختلفاً فيما
«يؤدى إليه من خبيرة ، إن المسافر الذى يتبع
«العبارة أو الاتجاه الذى تشير اليه اللوحة يجد نفسه فى المدينة
«التي تشير اليه. وبالتالى فإنه يحصل من خبرته الخاصة على
«شيء من المعنى الذى يخص هذه المدينة. فبإمكانه أن يحصل عليها
«إلى الحد الذى تعبر به المدينة عن نفسها بالنسبة إليه ، كما عبّرت
«مدينة تينترن أبای Tintern Abbey عن نفسها فى قصيدة
«ورد ورث Wordworth فإن قصيدة وردورث تختلف فيما
«تمنحه تينترن أبای (من معنى) بالنسبة لجامع الآثار والتحف .
«فالقصيدة .. لا تحدث أثراً ملائماً بالحجم الصحيح الذى فى العبارة
«الوصفية ولكن بما يوجد فى الخبرة نفسها. فالشعر والنثر، والتصوير
«والرسم تعطى أثراً ملائماً من خلال وسائل مختلفة لكى تصل
«إلى غايات مختلفة. فالنثر يتناول قضايا ، ومتنطق الشعر قضايا
«عليها، حتى عندما يستخدم ما يسمى نحوياً بالقضايا . قالثانية
«لها قصد ، فالفن هو تحقيق مباشر للقصد
(الفن كخبرة ، ص 85) .

(*) "Science states meanings; art express them".

وعلى الرغم من أن ديوى لا يستخدم المصطلحات الواردة فى علم العلامات الذى ورد في كتابات بيرس ، فإنه يمكننا أن نرى من هذا النص (ومن إشارات المتكررة إلى الرسومات Paintings فى الفن كخبرة ، أن عمل الفن غالباً ، وربما دائماً ، ما يعتبر علامة صورية an iconic sign (فالصورة) هى النظرية التى تقوم بدور رئيسى فى أعمال بيرس المختلفة إلا أن لها إشارات معبرة عن علم الجمال⁽²⁴⁾ . (وتتمثل) خصوصية العلامة الصورية فى أن ما تشير إليه متضمن فى العلامة الأداة ذاتها ، ولهذا فإذا كانت تشير إلى خبرة متكاملة فإن جزء من تلك الخبرة المتكاملة يكون متضمناً فى العلامة الأداة ذاتها⁽²⁵⁾ . وهذه ليست القصة الكاملة لكيفية تفسير تصور ديوى عن «المعنى المعبر» expressive meaning ، ولكن هذا يوضح أن مصادر نظرية العلامات (السيمياء) متاحة لإيضاح تصور ديوى المشار إليه .

p. 101 9 . - الدين والقيم الإنسانية.

كتب جيمس : «إن الدين مهما كان ، هو مجموع ردود أفعال الانسان بإزاء

(24) أنظر : ماكس هوكت ، Max O. Hocott ، «الاسس المنطقية لعلم الجمال عند بيرس»

The Logical Foundations of Peirce's Aesthetics.

(25) قام مؤلف هذا الكتاب بتطوير هذا الموقف فى عدد من الدراسات . أنظر : الفصل الخامس

(الفن والعلامات والقيم Art, Signs, and Value) فى كتاب : المعنى والمعنى Signifi-

cation and significance . للاطلاع على مناقشة الموقف العام والإشارات للمقالات

الأخرى . وهناك تحليل مصطلح «معبر» Expressive فى كتاب «الإشارات» ، واللغة

والسلوك Signs, Language, and Behavior ، ص ص 67 - 71 .

الحياة»⁽²⁶⁾ . ولم يعتقد جيمس نفسه أن هذا يعتبر معياراً كافياً عن الدين، كما لم يعتقد بيرس نفسه ذلك ، فبالنسبة اليهما فإن الاعتقادات الاضافية موجودة (فى شىء آخر) (مثل الاعتقاد فى قوى إلهية مقدسة يتعاون معها الشخص فى درب الحياة) . ولكن بالنسبة لجيمس فإن هذه الاعتقادات الدينية على وجه الخصوص تختلف اختلافاً بيناً بين الأفراد والحضارات ولذلك تأتى بمعنى ثانوى بالنسبة لوظيفة الدين الشائعة للإنسان الجديد فهى مجرد «مجموع ردود أفعال الانسان بإزاء الحياة» .

وعلى الرغم من أنه لم يكتب أحد من البرجماتييين ، أو لديه كتابات من هذا النوع ، مثل اللاهوتيين التقليديين، فإنهم تعاطفوا بلا استثناء مع الدور العام الذي يؤديه الدين فى الحياة الإنسانية . وكان لكل من بيرس وجيمس اعتقادات قريبة مما تحتوية المسيحية اللاهوتية التقليدية، بينما نظر كل من ميد وديوى إلى الدين نظرة طبيعية. وطالما أنه من المستحيل التعامل مع موقف كل هؤلاء الرجال عن الدين فى هذا الفصل ، لذلك فإننا سوف نركز هنا بطريقة عشوائية على نحو ما على فكر ميد⁽²⁷⁾ .

(26) وليم جيمس . . «تنوع التجربة الدينية» - The Varieties of Religious experience ، ص 35 .

(27) بالإضافة إلى المراجع التى تم ذكرها ليد فى هذه الفقرة فهناك مراجع أخرى هامة تمثل وجهات نظر البرجماتييين فى الدين منها : بيرس «مجموعة الأبحاث» Collected Papers ، المجلد التاسع، الفقرات 395 - 556 ، وليم جيمس «تنوع الخبرة الدينية» The Varieties of Religious Experience ، ديوى «الايان الشائع أو الفطرى» A common Faith إدوارد سكريبينر أمز Edward Scribner Ames «علم النفس الخبرة الدينية والصلوات والتأملات والدين» The Psychology of Religious Experience Prayers and Meditations, and Religion وهو راس كالين «العلمانية هي إرادة الإله» Secularism is the will of God . وهناك كتابان لى (مؤلف هذا الكتاب) لهما علاقة بالدين والقيم هما «دروب الحياة : مقدمة الى عالم الدين» Paths of Life: Preface to a world Religion و «تنوع القيمة الانسانية» .

Varieties of Human value salvation

وقد اعتقد ميد أن بعض فروض المسيحية «على درجة كبيرة من الأهمية في العالم الغربي» (فلسفة الفعل ص 466) ، وكان أحد هذه الفروض يتناول معقولية العالم The intelligibility of the world ، وقد منح هذا الفرض الرجل الغربي ثقة في أنساقه الذهنية (سواء) الفلسفية أو العلمية . (بينما) ساعدت نظريات أخرى مثل تلك النظريات (الخاصة) بأبوة الإله The fatherhood of God وإخوة الإنسان Brotherhood of man الرجل الغربي على الثقة في أنساقه العلمية ، وقامت بدور هام في الحركة الخاصة بالديموقراطية السياسية .

p . 102 رميَ ميد بين وجهين من أوجه الخبرة الدينية : الوجه الصوفي Mystical و «الحاجة إلى الخلاص» The need for salvation . وحاول أن يميز بينهما باستخدام تعبيرات علم النفس الإجتماعي .

أما الوجه الصوفي للخبرة الدينية «فإنه ذلك الاتجاه لشعور الشخص نحو كل الناس وكل شيء عن أنفسنا» . (العقل والنفس والمجتمع ، ص 275) - واعتبره تعميمًا كاملاً عن الدور المنوط به role - taking نحو الأشخاص والأشياء :

«إن اهتمام الشخص هو اهتمام بكل الناس ، وهناك توجه كامل نحو»

«الأفراد ، ويوجد التحام بين ضمير المتكلم me وضمير الفاعل I «أخل»

«الفرد» ، (المصدر السابق ص 274) الموقف " الاجتماعى يسود فوق "

«جميع العالم» (المصدر السابق ص 275) .

واعتبر ميد أن «الحاجة إلى الخلاص» أهم وجه من وجهي الخبرة الدينية (المذكورين آنفًا) وتناوله بشيء من الاسهاب (فلسفة الفعل ص ص 475 - 78) واعتبر الحاجة إلى الخلاص «ليست خلاص الفرد ولكن خلاص الذات كموجود اجتماعي» (ص 476) لأن النفوس الاجتماعية - طبقًا لرأى ميد - (تتمثل

فى) «أنا دائماً ما نحمّل نظاماً اجتماعياً مثالياً لا يوجد فى الحالات التى نعيش فيها» . (ص 475) . وكلما كان التناقض كبيراً، كلما كانت الحاجة للتغير الاجتماعى ، والأكثر انتشاراً الحاجة للخلاص» (ص 477). «وتعود خبراتنا الدينية الى إمكانية تطوير المجتمع لكى نحقق تلك القيم التى تمتلكها الكائنات الإجتماعية» (ص 476)، ويسأل (ميد) بطريقة خطابية هذا السؤال : «أليس أكبر عبقرية فى مجال الدين شخص يحمل بمعنى ما معين فسى نفسه نظاماً إجتماعياً أعلى (حيث اعتبر) نظامه المباشر أكثر علواً (من غيره)؟ (ص 477).

p . 103 ويجب أن نلاحظ أن ميد لا يستعمل التفسير النفسى الاجتماعى -Social Psychological بديلاً عن الخبرة الدينية بطريقة الميتافيزيقا الدينية التى استخدمها به كل من بيرس وجيمس ، فهو يقول :

« لا توجد طريقة فى الوقت الحالى نستطيع بها مع وجود أى ضمان
«أن نصل تاريخ الإنسان والقيم التى ظهرت فى المجتمع بتاريخ»
الكون الفيزيقي» .
(فلسفة الفعل ، ص 478) .

«كما لم ينظر ميد إلى اللاهوت Theology على أساس التقويمات»
«التي نحتاجها لمجابهة المشكلات الاجتماعيه والفردية . وقد تناول»
«هذه الكتابات فى بحثه النزعة التجريبية كفلسفة للتاريخ»
« Experimentalism as a Philosophy of History »

(فلسفة الفعل ، ص ص 494 - 519) .

ويقال أن ميد فى هذا المقال بيّن الفرق بين «الفلسفة الأوغسطينية عن

التاريخ The Augustinian Philosophy of History التى (ترى أن) جميع القيم محددة وثابتة عن طريق السلطة» وبين «فلسفة التاريخ الجديدة» The New Philosophy of History (الناجحة) عن التطور الاجتماعي. (ص 504) فى هذه الفلسفة الجديدة للتاريخ التى يفضلها ميد بوضوح ، يواجه الانسان مشكلاته الاجتماعية كما تبدو له (دون تغيير يذكر). ويعترف ميد أن بعض الملاحظات عن القيم «تحدث بعيداً جداً عن بداية الخبرة الفكرية» (ص 504) ولكنه يعتقد - متفقاً مع النظرية الأخلاقية البرجماتية التى ناقشناها بالفعل - أن منهج العلم يجب أن يستخدم الآن لمواجهة مشكلاتنا الاجتماعية (ص 509) و (رأى) ميد هنا واضح للغاية فهو يؤكد على تطبيق المنهج العلمى ولا يطلب من العلماء أو «العلم» (أن يحددوا له) «ماذا يفعل» فلا الميتافيزيقا ، ولا اللاهوت ، ولا العلم يستطيعوا أن يحلوا محل نشاط التقويم الاخلاقى .

فإذا كانت فلسفة التاريخ للشخص من النوع التطورى ، فإنه يجد معنى p . 104 الحياة فى تنظيم جميع القيم التى تتضمنها مشكلات التصرف (السلوك) Conduct والتفسير، والبحث عن إعادة بنائها بناءً يتفق مع السلوك الذى أدرك جميع الاهتمامات الموجودة بداخله» (فلسفة الفعل ، ص 512) .

وخلاصة القول ، فإنه يمكن أن يقال أنه اذا كان جميع البرجماتييين قد تعاطفوا مع ملامح بذاتها فى الدين ، واذا كان كل من بيرس وجيمس - عكس ميد وديوى - أنفسهم يتمسكان بشكل اللاهوت المسيحى ، فإن التأكيد المميز للبرجماتية كان على الدين كعنصر يعمل على التوجيه الكلى للإنسان وليس

على الدين باعتباره نسقاً من المعتقدات اللاهوتية .

10 - تعقيب على علم القيم البرجماتي

إن إسهام البرجماتيين الأمريكيين فى نظرية القيمة هو أحد انجازاتهم الفلسفية الكبرى . فمكانة ديوى الرائدة فى مجال القيم واضحة للعيان . كما أن عمل جيمس أيضاً موجه نحو القيمة وله أهمية خاصة فى موضوع الدين ، ولكنه لم يتناول بطريقة فنية أكبر الكتابات الأكسيولوجية، ولا الموضوعات الأكسيولوجية على تنوعها، بنفس الطريقة التى تناولها به ديوى . وعلى الرغم من أن كل فلسفة بيرس يتخللها نظريات خاصة بالقيمة ، إلا أن تناوله المحدد لموضوعات أكسيولوجية جاء فى أخريات حياته ، وعُنى أكثر بمكانة العلوم المعيارية فى بنائه الفلسفى أكثر من تحليله المفصل لتعبيرات (مصطلحات) القيمة والتقويم . أما تصور ميد عن المرحلة المتكاملة للفعل وتحليله لدوره، فهو على درجة وثيقة بالمشكلات الأكسيولوجية ، غير أنه لم يجعل عرض هذه الصلة محور اهتمامه. ويظل ديوى فيلسوف القيمة (الأكسيولوجي) المؤيد البارز للحركة (البرجماتية) ومن ثم كان اهتمامنا منصباً أولاً على هذا الفكر .

وما فعله البرجماتيون بوجه عام عند تناولهم لنظرية القيمة هو وضعهم لمكانة القيم داخل سياق حياة الكائن الانسانى الحى فى علاقته بعالمها، ومكانة التقويم داخل النظرية العامة للبحث . وهكذا أصبحت الأكسيولوجية (علم القيم) علماً تجريبياً، ومن ثم أصبح توجه علم القيم نحو النزعة التجريبية والسلوكية .

والقيم كظاهرة تتم بالملاحظة عزلت كل ما يتعلق بالسلوك ، وعلى الرغم من ذلك فقد تم ذلك بالتفصيل : لأن هذا الذى تم اختياره أو سيتم اختياره يدعى «للأعجاب» (بيرس) ، ولأنه يمثل صفات الموضوع الذى يسمح بتمام الفعل (ميد) ، ولأنه يشبع «الاحتياجات» (جيمس) ، ولأنه يتصل بموضوعات الأشياء

الجديرة بالتقدير، أو بمعنى أدق ، بتلك الأشياء الجديرة بالتقدير والتي تحدث بعد مشاركتها لتلك النتائج الجديرة بالتقدير (ديوى) .

والشائع عن هذه النظريات هو تصور أن الفعل غرضي purposive أو موجه نحو غاية ما Telic ، أو موجه نحو هدف ما Goal - Oriented ، وهي تعبيرات تحتاج تطبيقاتها إلى أن تكون لديها القدرة على تعزيزها عن طريقة الملاحظة . ولا يتضمن هذا أن جميع الأفعال ذات «هدف» أو أنها تهدف الى غاية end-in-view . وما يتعلق (مثلاً) بكلب «ذاهب الى البيت» ، فإن دوافعه هي أن هناك موقفاً بعينه فقط سيسمح له بأن تكتمل غايته ، وأن حركاته ستؤدي به الى الوصول الى هذا الموقف ، وهذا لا يتطلب أن يكون هدف الوصول إلى البيت بالنسبة للكلب هو نهاية المطاف ، وعلى سبيل المثال ، إن ما يحدد الهدف - وهذا التحديد بالذات - يتم تحديده على الأقل بطريقة جزئية عن طريق حركاته الفعلية . وكثيراً من أفعال السلوك البشرى (على الرغم من أنه قد يكون كله) يهدف الى غاية بطريقة رمزية .

ويمكن النظر الى التقويم (وعلى وجه الخصوص عند (ديوى) كبحث يحدد ما p. 106 هو جدير بالتقويم في موقف إشكالي يختص بالقيمة Value-problematic situation ، وذلك في موقف أصبح فيه التقدير إشكالياً. ومثل هذا البحث يتشكل من خلال النزوع نحو نهاية المطاف ، واختباره بعبارات تتناول قدرته على حل المشكلة التي يقصد حلها . ويمكن أن يكون بحث التقويم (وبالنسبة لديوى يجب أن يكون) نفس النموذج العام للبحث الموجود في العلم ، ويمكن الفرق في نوع المشكلة (وعلى سبيل المثال فالقيمة أو مشكلة الإدارة) هي ما تحدد ضرورتها . وبالمثل ، يمكن أن يكون هناك أنواع خاصة من مشكلات القيمة ، وستعكس الفروق بينها الفروق الخاصة بالتقويم في البحوث الأولية سواء أكانت

فى طبيعتها أخلاقية أو سياسية أو جمالية .

وسيحادث نفس الشيء فى كل تلك البحوث وفى أى حالة خاصة (محددة) فى سياق لا إشكالى ، وهو لا إشكالى بالنسبة لذلك الموقف . وستقيم نتائج البحوث الناجحة المختلفة صرحاً معرفياً (تأكيدات مبرهن عليها بالنسبة ليدوى) كما ستستخدم مثل كل النظريات التعميمات كأدوات (وليس كإعتقادات dogmas) عند تناول مشكلات جديدة خاصة بالقيمة .

ويوجد هناك إتفاق معقول فى القيم الاشكالية العامة لدى البرجماتيين المختلفين أنفسهم وهى هامة بالنسبة للمنهج العلمى ، والديموقراطية ، والأخلاق. ولم يمنع هذا بالطبع من وجود فروق معينة بينهم. وهذا المفهوم سيتضح اذا ميزنا فيه بين النظرية فى طبيعة القيم العامة للشخص والتقويمات وبين القيمة الشخصية والتقويمات الفردية للشخص .

ويبدو لى أن الصعوبات الفنية الرئيسية فى علم القيم البرجمائى تكمن فى الواقع فى أن البرجماتيين لم يطوروا ، كما لم يطبقوا نظرية عامة فى العلامات (السيمياء) على تحليل الجمل والعبارات الاكسيولوجية وغير الاكسيولوجية، ولهذا فليس من السهل أن نتأكد من العلاقة بين «أحكام الواقع» Judgments of facts و «أحكام الخير» Judgments of Good وأحكام العادة Judgments of Practice p . 107 ببعضها البعض أو بعلاقتها بالقضية البرجمائية.

وفى بعض الأحيان ميزوا بين الحكمين الأخيرين ، وفى أحيان أخرى لم يميزوا بينهما كما أن العلاقة لأحدهما أو لكليهما «بحكم الواقع» لم تكن واضحة دائماً، وكنتيجة لهذا فإن علاقة البحث الاكسيولوجى وغير الاكسيولوجى أصبحت علاقة غامضة. وقد لاحظنا منذ البداية أن علم العلامات (السيمياء)

البرجماتى - وهو هاماً كما يبدو - ظل علماً غير مكتمل في تطوره ، ويتضح مرة أخرى علم الاكتمال هذا في النصوص البرجماتية التى تناولت علم القيم .

أما التقويمات فإنها تحتوى على «محتوى معرفى» Cognitive content عبقرى أو على «معنى ذهنى» intellectual purport (وليس فقط تعبيرات عن الانفعالات او محاولات للتأثير على الآخرين) فإن هذه التقويمات تدل على وجود ملامح هامة فى علم القيم البرجماتى . وهذه النظرية تناولها جميع البرجماتيين على المشاع . فهى نظرية محورية فى نسقهم ككل .

الفصل الخامس

الكوزمولوجيا (علم الكون) البرجماتية

p.110 I. - «الكوزمولوجيا أو الميتافيزيقا :

كان من الممكن أن نعنون هذا الفصل بعنوان « الميتافيزيقا البرجماتية »
وإذا فعلنا ذلك نكون قد أخذنا حقاً بمصطلح بيرس⁽¹⁾ وقد تساءل بيرس ماذا
يتبقى من الفلسفة إذا قبلت القضية البرجماتية، تلك التقنية التي تحدد الفروض
المسموح بها من تلك التي تقبل التحقيق، وكانت إجابته كالتالي : -

«..... إن ما يتبقى من الفلسفة هو سلسلة من المشكلات القابلة للبحث»
«باستخدام مناهج الملاحظة الخاصة بالعلوم الحقيقية.... وبهذا نصتبر»
«البرجماتية نوع من الوضعية الأصيلة: Proper-Positivism، ولكن ما يميزها عن»
«الأنواع الأخرى هو أولاً: احتفاظها بالفلسفة الخالصة، ثانياً: قبولها التام»
«للأساس الرئيسي لمعتقداتنا الجوهرية، وثالثاً: إصرارها الهائل على صدق»
«الواقعية المدرسية Scholastic realism .. رافداً، فبدلاً من مجرد السخرية»
«من الميتافيزيقا مثلما فعل أصحاب الوضعية الأصيلة الآخرون، بإطلاق»
«الضحكات الساخرة الطويلة، فإن البرجماتية يستخرج منها [الميتافيزيقا]»
«ما هيته ثمينة، مما يمكن استخدامها ومنحه الحياة والقاء الضوء على»

(1) يعتبر بيرس كل من الانطولوجيا (علم الوجود) Ontology والكوزمولوجيا (علم الكون)
Cosmology والدين قروع من الميتافيزيقا (انظر المجلد الأول . الفقرة 192) .

«الكوزمولوجيا والفيزيكا ، وفى نفس الوقت فإن التطبيقات الأخلاقية للنظرية»
« ستكون إيجابية وفعالة ، وهناك استخدامات أخرى كثيرة ليس من السهل»
«تصنيفها» (المجلد الخامس الفقرة 423) .

p.111 ويعتقد هنا بيرس أن البرجماتيقية Pragmaticism تستخلص « ماهية
ثمينة» من الميتافيزيكا ، تخدم « الكوزمولوجيا والفيزيكا » وما تبقى Resi-
due منها هو الميتافيزيكا التقليدية التي سادت لفترة طويلة وتقوم على
الملاحظة - ومن ثم فإنها ستصبح «ميتافيزيكا علمية» Scientific
metaphysics ، وبهذا المعنى ستكون الميتافيزيكا بالنسبة لبيرس جزءاً من
الفلسفة - ونظرية فى الواقع ، أما الأجزاء الأخرى فستكون ظاهرة
Phenomenology (دراسة ما هو ظاهر) ، والعلوم المعيارية (علم الجمال،
والأخلاق) والمنطق . وسنلقى الضوء على ملامح ميتافيزيكا بيرس فى التو
والحال .

ومع ذلك ، فإذا كان عنوان هذا الفصل « الكوزمولوجيا البرجماتية »
فإنه يبدو أن العنوان المفضل هو « الميتافيزيكا البرجماتية » . وغالباً ما كان
بيرس ذاته يبدى ملاحظات سلبية على الميتافيزيكا التقليدية . أما ديوى -
الذى استخدم المصطلح (كما فى كتابه : الخبرة والطبيعة) - فقد اعتقد أن
المصطلح يكون غامضاً إذا ما طبق على نظرياته . واستخدم ميد المصطلح بوجه
عام بنوع من الاستخفاف . وبالنسبة لمعظم^[1] كتاب [تاريخ الفكر الفلسفى فقد
كانت « الميتافيزيكا » معارضة للعلوم التى تقوم على الملاحظة . أما بالنسبة

لكتاب معاصرين كثيرين فما زال هذا الموقف صادقاً⁽²⁾ . ومن ثم فالأسباب بالنسبة للحركة البرجماتية - سواء أكانت أسباباً داخلية أم خارجية - فيبدو أنه من المرغوب فيه أن نتحدث عن « ميتافيزيقا برجماتية » في هذه المناقشة الحالية ، ولهذا فإن التعبير « كوزمولوجيا » استخدم على الرغم من خلفياته [الخاصة] مثل الحقيقة التي تقول أن علم الكون عند بيرس عبارة عن جزء فقط من الميتافيزيقا) وعلى أية حال ، فإن الإهتمام هنا سينصب على نظريات البرجماتية عن « العالم » أو « الكون » The Universe أو الكون Cosmos شاملاً مكانة الإنسان في هذا الكون .

ويجب أن يكون مثل هذا الكون - بالنسبة للبرجماتي - موجود علي أساس الخبرة ، ويجب أن يكون نافعاً مبدئياً ، ومنسجماً مع ذاته ، وستختلف نتائج p.112 العلوم الخاصة عن العلوم فقط في تعبيراتها ومصطلحاتها بصفة عامة . لهذا يجب أن يكون [الكون] موجوداً ، وأن يتم إختباره على ضوء المدي الكلي للخبرة⁽³⁾ ولكن لأن نقول هذا فإننا نجابه مشكلة أساسية مره أخرى وهي : ما هو تصور البرجماتي عن الخبرة ؟

(2) وهذا هو الغالب عند بعض البرجماتيين ، فالميتافيزيقا لدى سي ، آي . لويس تتكون من جمل وعبارات تحليلية ولكن بدون محتوى كوزمولوجي . (أنظر : الفصل الأول من كتابه : العقل ونظام العالم Mind and world - Order وقد بينت فكرة مشابهة إلى حد ما في كتابي « العلامات واللغة والسلوك » ص ص 175 - 178 وهكذا تم التمييز بين الكوزمولوجيا والميتافيزيقا .

(3) يتسق هذا النقد مع عدد من الفروض حول الكون Cosmos ، وفي الواقع توجد عدة اختلافات بين البرجماتيين عند تناولهم لعلوم الكون Cosmologies ، وبالتالي فلا توجد « كوزمولوجيا برجماتيية موحدة » يمكن أن تخرج بها من هذه المناقشة . بل إن الفروق البادية في وجهات النظر الخاصة بالكوزمولوجيا متسقة تماماً مع الواقع بالنسبة للمعنى والمنهج . تماماً كما يتفق عدد من علماء الطبيعة على استخدام المنهج العلمي ، ولكنهم في ذلك يختلفون في نفس الوقت عند تناولهم للفروض طبقاً لذات المنهج ، ومثال ذلك الفروق العلمية المعاصرة فيما يختص بأصل القمر ونشأته .

2- الخبرة كمحتوى :

لقد ناقشنا باستفاضة في الفصل الثانى النظرية البرجماتية فى الخبرة وعلاقتها بالبحث ونظرية المعرفة ، وسوف نتناول هنا الخبرة وعلاقتها بالكون. وقد ثار جدل شديد فى الحركة البرجماتية بإزاء هذه المشكلة الموروثة فيما يخص قبول تراث الفلسفة التجريبية الإنجليزية من جهة ، وقبول النظرية التطورية البيولوجية من جهة أخرى ، أما بخصوص الفلسفة التجريبية الإنجليزية فإن «الخبرة» كانت موضوعاً يشتمل محتواه على مثل هذه التعبيرات : إاحساسات Sensations ، الانطباعات الحسية impressions الصور الذهنية images ، الأفكار ideas والآراء [الأفكار] Thoughts ، وتم وصف هذا المجال الفكرى ككل بعبارات مثل : الفردية individual والخصوصية private والذاتية subjective والذهنية mental والوعى بالشعور conscious ، ومن ثم المشكلة التاريخية لعلاقة الخبرة بالعالم ككل .

وبالنسبة للبرجمائين فقد كان جيمس أقرب الى التجريبيين الانجليز ، وكان من بين الفروق الرئيسية التى يختلف فيها عن [التجريبية] التقليدية إدراكه الأوسع لمحتويات الخبرة ، وهى تشمل العلاقات فضلاً عن الجزئيات Particulars التى تربطها بعضها ببعض الآخر ، والاستمرارية فضلاً عن عدم الاستمرارية Discontinuities ، وهذا يناسب أكثر الخبرة الفنية التى تعتبر p.113 موضوعاً للفلسفة ، وبهذه الروح صاغ نظريته فى « التجريبية الأصلية » Radical empiricism ، واحتوت النظرية فى جانب منها على المصادرة المنهجية ومؤداها : أن « الأشياء الوحيدة القابلة للمناقشة بين الفلاسفة أشياء معروفة بعبارات مأخوذة من الخبرة (4) » .

(4) أنظر مقدمة كتاب وليم جيمس « معنى الصلح » The Meaning of Truth ، ص ص - xii
xiii ، حيث تجد الصياغة الكاملة للنظرية التجريبية الأصلية والنص المقتبس هنا من ص xii

وكان موقف جيمس من الكوزمولوجيا قريباً للغاية من هذه المصادرة المنهجية ، أعني أن الواقع « الكون » ذاته يتم فهمه من خلال تعبيرات أو مصطلحات تأتي عن طريق الخبرة ، وسمى هذا الجزء من نظرية التجريبية الأصلية « فلسفة الخبرة الخالصة » ⁽⁵⁾ Philosophy of Pure experience . ومن المهم أن نلاحظ عند الأخذ بهذا التصور بعين الاعتبار أن هناك إختلافاً آخر هام لجيمس عن تصور الخبرة الانجليزية التقليدية ، فلم تعد الخبرة مفهومة كمجال ذهنى خاص ، أو حتى لوعى أو شعور بمحتويات معينه ، ولكن « الخبرة » أخذت ببساطه كإسم للمحتويات ذاتها ، وتستطيع هذه المحتويات أن تدخل في علاقة فردية معطاء a given individual مما يكسبنا « المعرفة المباشرة » Knowledge by acquaintance ، وبعضها يمثل نفس المحتويات ، مثل موضوعات الإدراك المباشرة التى يمكن أن تصبح مؤشرات لمحتويات أخرى تؤدى إليها ، ويستعد الفرد لقبولها ، وأن يقوم مقامها ، وعند هذا الحد ، فإنها تكسبنا « المعرفة » وهى [بمثابة] محتويات أخرى ، والكون ككل يصبح ببساطة مجموع « الخبرة الخالصة » Pure experience ⁽⁶⁾ .

(5) وليم جيمس . // مقالات فى التجريبية الأصلية « Essays in Radical Empiricism » نشره « رالف بارتون بيرى » ص 193 . وقد ذكر جيمس فى ص 195 أن فلسفة الخبرة الخالصة لا تشمل الفروض التى تتخفى الواقع التجريبية the hypothesis of transempirical reality وذكر فى ص 193 أن الخبرة ككل تملئ بذاته Self . Containing ولا تعتمد على شئ [خارجها] Experience as a whole is self - Containing and leans on nothing

(6) « لا توجد مادة عامة » مطلقة « تتكون منها الخبرة بمعناها الواسع ولكن توجد مواد كثيرة طاماً أن هناك طبائع natures للأشياء التى تقع تحت خبرتنا .. إن الخبرة ما هي إلا إسم جمعى A collective name لكل هذه الطبائع المحسوسة .. »
« أنظر مقالات فى التجريبية الأصلية ، ص 26 - 27 . ¹ لاحظ أن جيمس من الفلاسفة القائلين بالتعدد ولا يأخذ مبدأ الواحدية [المترجم .

وبعد هذا من الناحية التاريخية خطأ جديداً في الفكر ، وربما أظهر جيمس من خلاله جرأته التأملية إنها النزعة التجريبية الخالية من العوائق الذهنية والذاتية والتي احتوتها الكوزمولوجيا . وقد فتحت هذه النظرية من الناحية التاريخية الطريق الى فلسفة أمريكية واقعية جديدة ، بالإضافة إلى نظرية وظيفة الشعور .

أما من ناحية العبارة الموهمة للتناقض ، فإن تساوي الطبيعة (أو الواقع p.114 أو الكون) مع الخبرة ينبثق عنه مصطلح « الخبرة » بأي معنى من المعاني⁽⁷⁾ فهو يبدو على الأقل في لب معنى القضية البرجماتية . فإذا كان كل شيء في ذاته ومن ذاته « خبرة » إذن فإن مصطلح « الخبرة » يفقد قوته الذهنية أو الإدراكية ، (ومع ذلك فربما أمكن الاستعانة بهذا الاستخدام على أسس أخرى) فإذا قلنا أن « x » (إكس) عنصر من عناصر الخبرة فلن يوجد هناك مجال لأن نقول أي شيء آخر عنه مهما كان . ومن الواضح أن جيمس نفسه يعتقد في تجريبيته الأصلية (في شكلها الكوزمولوجي) والبرجماتية كنظريات مستقلة . وقد ذكر أنه ليس من الضروري بالنسبة للبرجماتى أن يعتنق التجريبية الأصلية (8) .

3 - الخبرة كتفاعل : -

يبرز تصور الخبرة كنوع خاص من [التصورات] المحتوي الذاتي للفلسفة

(7) وجه بيرس خطاباً لجيمس فقال له : « إن ما تسميه الخبرة الخالصة ليس خبرة على الإطلاق . » (المجلد 1 لثامن الفقرة 301) ورغم ذلك فإن بيرس لا يتكرر محاولة جيمس ، ولكنه يريد فقط أن يقول أن الخبرة هي الاسم الصحيح Proper name .

(8) قال جيمس : « لا توجد علاقة منطقية بين البرجماتية ، كما فهمتها ، وبين نظرية أتمتها حديثاً تعرف بأسم « التجريبية الأصلية » فالأخيرة مستقلة تماماً . فالشخص يمكن أن يرفضها تماماً ويظل برجماتياً » (المقدمة في البرجماتية ، ص ix) .

الغريبة في مرحلة ما بعد العصور الوسطى ، فهو يناوئ، بالضرورة إذا قبله الشخص - كما فعل البرجماتيون - نظرية التطور البيولوجية لأن هذه النظرية تصبح لا معنى لها إذا وجد الشخص عالماً يتضمن كائنات حية تنقسم عند تفاعلها ، وعلى هذا قد يقبل مصطلح « الخبرة » قبولاً ظاهرياً إذا ما اشارت الخبرة الى أنواع معينة من العلاقة بين الكائنات الحية وبين عالم الطبيعة الرحب وتستبسر هذه الكائنات جزءاً منه . إن « الخبرة » تدل على نوع خاص من التفاعل أكثر من دلالتها على نوع خاص مما تحتويه هذه الخبرة « فالخبرة » تصبح حدثاً داخل الكون (9) - وبناءً على هذه النظرية فإن الخبرة لن تصبح محتوياً يختلف في نوعه عن بقية الكون ، كما أن الكون لن يصبح « عالماً من الخبرة الخالصة » .

وقتل النظرية بهذا الأسم موقف ديوى بوضوح كما صاغه في الطبيعة الثانية (1929) من كتاب « الخبرة والطبيعة » Experience and Nature إذ يقول في ص 49 :-

p.115 « إن الخبرة هي شيء ما بالاضافة إلى أنها [موجودة] في الطبيعة . »
« وما لم نمر به فهو ليس بخبرة ، أما الطبيعة فهي الحجرة ، والنبات ،
«والحيوانات ، والأمراض والصحة ، ودرجة الحرارة والكهرباء الخ .. »
« فالأشياء التي تتفاعل معاً بطرق معينة هي ما نسميه بالخبرة : إنها ما نمر به »
« أي ما خبرناه في الحياة .. »

(9) إذن فإن الأمر بالنسبة ليد هو أن المرور بالخبرة يعتبر عملية طبيعية وعلى نفس مستوى الواقع مثل كل العمليات الطبيعية الأخرى .
(فلسفة الفعل ص 517 ، 423 ، 06 - PP 405) (C F .

« الواقع - أي الطبيعة [إنها الإرتباط بطرق أخرى معينة مع موضوع «طبيعى آخر - الكائن البشرى - كما تبين لنا أيضا كيف تتفاعل الأشياء . » لاحظ فى هذه الصياغة أن الخبرة مساوية للأشياء التي تتفاعل بطرق معينة» ، ولم يحدد ديوى هنا هذه « الطرق » ولكنه قال فقط أن الخبرة « تحدث فقط فى حالات تعتبر على درجة عالية من التخصص ، مثل تلك التي توجد فى الكائنات العضوية الراقية والتي بدورها تتطلب بيئة متخصصة . ولا يوجد دليل على أن الخبرة تحدث فى كل مكان وكل زمان » (ص 30) وتوجد هناك مشكلات أخرى مثل كيف نحدد هذه الحالات . كما لا تعتقد مدارس فلسفية معينة (مثل فلاسفة الظواهر Phenomenologists وبعض فلاسفة الثنائية Dualists) فى أن هذه الحالات يمكن وضعها فى مصطلحات خاصة تمثل « النزعة الطبيعية » عند ديوى . وعلى الرغم من ذلك ، فإن تلك المشكلة لا تهمنا فى هذا الموضوع .

ومن المهم أن نتذكر أنه بإزاء الخبرة وعلاقتها بالطبيعة ، فإن الكوزمولوجيا لدى جميع البرجماتيين (على الرغم من وجود بعض الفروق الأخرى) وهم - منذ البداية - ليسوا ديكارتيين non - Cartesian ويقال الأمر هنا بمعنىين : أن الخبرة ليست عالماً « ذهنياً » not a mental realm يختلف فى نوعه عن بقية الكون ، كما أن الخبرة ليست شيئاً خاصاً Private أو « شخصياً » Personal موروثاً (على الأقل فهناك بعض الأشياء التي يمكن أن نختبرها بأكثر من مختبر واحد experiencer) . وهكذا فإن جميع البرجماتيين الأربعة يقبلون نظرية الخبرة « الإجتماعية » أو « العامة » ولكي نتأكد من هذا فانه يوجد خبرات خاصة « ولكن تلك الخبرات يمكن أن نميزها فقط بوضعها أمام الخبرات العامة .

p.116 إن النظرية البرجماتية في الخبرة ، برغم إختلافها عن التصورات الديكارتية والتجريبية الإنجليزية والذهنية^[العقلية] فهي تشبه من عدة وجوه التصور الإرسطوطاليسي للخبرة ، غير أن النظرية البرجماتية لها بعض الملامح المعينة وهي تمثل وجهات النظر الخاصة والذاتية في الخبرة ، كما أنها تتضمن في طبيعتها الأهمية التي تلح عليها الفلسفة الأوربية إلحاحاً شديداً⁽¹⁰⁾.

إذن فالخبرة بالنسبة لبيرس وميد وديوى هي جزء من الكون ، وتقع داخل الكون ، وطالما أن الكوزمولوجيا في هذه الفلسفة يجب أن توضع على أساس الملاحظة ، فإن الكون كخبرة مكتسبة هو الأساس الذي يجب أن تقام عليه المقولات الكوزمولوجية العامة والنظريات. وأن يتم إختبارها^[على نفس الأساس] . وقد كتب ديوى : « إن الخبرة ليست فعلاً a verb يقوم بطرد الانسان من الطبيعة ولكنها وسيلة لتثيته باستمرار في قلب الطبيعة » (11) .

4- المقولات الثلاثة . عند بيرس :

إن الفلسفة بالنسبة لبيرس هي علم يقوم على الملاحظة ، وتختلف عن

(10) ذكر ميد بالتفصيل المعنى الذي يمكن أن يقال على أساسه أنه حدد وجهات نظر محددة للمرور بخبرة العالم على أنها خبرة خاصة وذاتية وسوف نشير إلى هذا فيما بعد وأعتقد أنه يجب أنه نلاحظ أن البرجمانيين استراحوا لقولهم بنظرية الخبرة على الرغم من أن بعض نقاط هذا الفصل تبدو صحيحة ، والدليل القوي على ذلك الفروق التي ظهرت في الفصول الأولى بين عامي 1925 ، 1929 والتي أوردها ديوى في كتابه « الخبرة والطبيعة » . والمحاولة الفردية لجيمس في قوله بالخبرة الخالصة دليل آخر . وهناك فروق كثيرة في قول بيرس بالخبرة. أما . لويس فقد أنكر بشجاعة تعريف الخبرة وربطها بالسلوك وهو تعريف يعتقد فيه لويس أن برجمانيين آخرين يذهبون إليه « فالخبرة » و « النزعة التجريبية » لم يعودا بالتأكيد عبارات ومصطلحات لا إشكالية Unproblematic Terms .

(11) ديوى « الخبرة والطبيعة » طبعة 1929 ، ص iii .

العلوم الخاصة في أنها « تمتلئ بذاتها بملاحظات يمكن أن تكون في متناول خبرة كل إنسان عادي » (المجلد الأول ، الفقرة 241). والملاحظة تقوم على نوعين : ملاحظة ظاهرية Phenomenological observation بمعناها العام (الظاهرية تتناول « كل ما يبدو ¹ يظهر بأي معنى [«] ») وملاحظة العلامات observation of signs . ويعتقد بيرس أن الملاحظة الظاهرية تكشف على (لأقل) ثلاثة أنواع من الظواهر : الكيفيات qualities ووردود (الفعل الفجة الساذجة Brute reactions بين شيئين لشيء ما مع شيء ما آخر، ورد الفعل الاعتيادي Habitual reactions . وقد استخدم بيرس مجموعة من المصطلحات المتعددة للتعبير عن أنواع الظواهر الثلاثة وهي « الكيف - Quali- ty ، ورد الفعل Reactions ، والوسيط Mediation (المجلد الأول الفقرة 530) ؛ ¹ وكذلك [« الكيف » ، و « الواقعة » Fact ، و « القانون » law ، p.117 و ¹ كذلك [« الإمكان » possibility و « الوجود » existence و « العادة » Habit ، وأكثر الأسماء عمومية هي « الشعور » Firstness و « الإرادة » Sec- ondness و « الاعتقاد / المعرفة » Thirdness. « الشعور » يوصف بأوصاف متعددة منها « الكيف » و « الإمكان » و « الصدفة » chance ، والتلقائية Spontaneity ، و « الإرادة » التي تعرف برد الفعل ، والواقعة ، والوجود ؛ و « الاعتقاد / المعرفة » وبالوسيط ، والقانون ، والعادة والكلية Universality ، والعمومية generality ، والاستمرارية Continuity ، وهذه هي مقولات (*) بيرس الثلاث ، ويقول عنها بيرس « ربما لا يكون من الصحة أن نسمى هذه المقولات تصورات ؛ فهي غير محسوسة لدرجة أنها تعتبر كنغمات

(*) لاحظ استخدام بيرس للمصطلح الكنتي وذلك لعمق تأثير فلسفة كنت في بيرس وسوف نعني بمصطلح Firstness | شعور ونرمز له بالحرف (F.) ، ومصطلح SECONDNESS | الإرادة ونرمز لها بالحرف (S.) والمصطلح THIRDNESS | الاعتقاد / المعرفة ونرمز لها بالحرفين (Th.) . المترجم

أو آثار خفيفة للتصورات » (المجلد الأول ، الفقرة 353) .
واعتقد بيرس أن دراسة العلامات تدعم التحليل الثلاثي للظاهرة ، فقد
وجد ثلاثة أنواع رئيسية فقط للعلامات وهي (الصورة icon ، والدليل index
والرمز symbol) . وثلاثة أنواع فقط من القضايا ، تعتمد على عدد
الموضوعات التي تحتاجها المحمولات Predicates لتكوين قضية كاملة
(ويسمى القضية الواحدية monadic ، والقضية الثنائية dyadic والقضية
الثلاثية triadic ، ويوضحها « س أحمر » ، و « س يضرب ص » ، و « س
يعطى ص لواو » . وقد عدّ بيرس هذه الأنواع الثلاثة من العلامات والقضايا
درجات لثلاثة مقولات عامة ومنذ أن إعتقد أن هذا التحليل كشف عن ثلاثة
أنواع فقط من العلامات وثلاثة أنواع من أشكال القضايا اعتبر أن هذا دليل
قوى على وجود ثلاث مقولات فقط للواقع وفي الواقع .

وعلى الرغم من ذلك فإنه من الملاحظ أن بيرس لم ينكر في بعض الأحيان
أنه قد توجد تصورات أخرى عامة مثل المقولات الثلاث التي اعتبرها أساسية
(المجلد الأول ، الفقرة 526) . كما يلاحظ أيضاً أنه بينما يجب أن تكون
المقولات [التي استخدمها] بيرس في فلسفته بمعنى محدد إن يتم اختبارها ،
فإن هذا لا يعني أنها موضوعات خاصة « بالإدراك الحسى » Perception ؛
لأن « تصور الخبرة أوسع من الإدراك الحسى » (المجلد الأول ، الفقرة 336)
p.118 وأخيراً فإنه بالنسبة لصعوبة تطبيق قضية بيرس البرجماتية على تحليل معنى
المقولات ذاتها ، فإنه يجب أن نتذكر أن بيرس لم يطبق المعنى بدقة على
المعيار الذي عبّر عنه في صياغته المبكرة للقضية البرجماتية .

إن علم المصطلح والتحليل عند بيرس إذا قورنا بالمقولات فإتھما لا
يقومان بدور بارز في كتابات أي برجماتي آخر . ومع ذلك فإنني أعتقد أن

البرجماتيين الذين ننظر اليهم هنا بعيد الاعتبار مهما كان علم المصطلح لديهم ، فإنهم نسبوا الصفات التي ذكرها بيرس في مقولاته الثلاث للكون . وطالما أن بيرس كان يعنى أن الفيلسوف الإسمي nominalist^(*) هو أي إنسان ينكر واقعية المعرفة Thirdness ، فإنه ينتج عن هذا أن أي فيلسوف من الفلاسفة البرجماتيين يعتبر فيلسوفاً إسمياً بالمعنى الذي قصده بيرس .

وليس من الصعوبة بمكان أن نجد أثراً لمقولات بيرس في كتابات ديوى ، وسوف نركز اهتمامنا على كتابه « الخبرة والطبيعة »⁽¹²⁾ حيث تحدث فيه ديوى عن « اختلاط كل من الكلية والفردية Singularity والصدفة » في الطبيعة (ص 48) فكانت معارضته للنزعة الإسمية واضحة (ص ص 84 - 85) : وكتب أن « الطريقة المستمرة للفعل المنظم ليست دقيقة » (ص 196) وأن « كل معنى هو معنى عام أو كلي » (ص 187) وتقوم نظرية الكيف في فلسفة ديوى بدور هام فهو يقول في كتابه « الخبرة والطبيعة » « أن جميع الموجودات .. لها كيفيات خاصة بها » (ص 108) وأنه يوجد شيء ما لا يمكن التنبؤ به ، تلقائي ، غير مصاغ ، وفوق الوصف ... في أي موضوع نهائي " (ص 117) . وكتب ديوى ذاته مقال يتعاطف فيه^[1] مع بيرس [بعنوان

(*) الإسمية Nominalism . من اللاتينية nomina مذهب يتبنى أصحابه وجهة نظر معاكسة للمذهب الواقعي حول طبيعة المفاهيم العامة ويرى أصحاب الأسمية المتطرفة أن المفاهيم العامة مجرد أسماء للأشياء الواقعية ، وليس لها ما يقابلها في الواقع اليشري كما قال بيرس أويلار (1079 - 1142) وسميت بإسم التصورية Conceptualism وبلغت أوجها عند وليم أوف أوكام . (المعجم الفلسفي المختصر) - ص ص 33 - 34 [1] المترجم [.

(12) - صدرت الطبعة الأولى من كتاب « الخبرة والطبيعة » عام 1925 والطبعة الثانية عام 1929 . وكان الترقيم في الطبعتين واحداً ماعداً أجزاء من الفصل الأول .

« نظرية بيرس في الكيف » (*) أما بالنسبة « للإرادة » (S)، فإن تصور ديوى الضيق للخبرة جعلها « أفعال وإخضاعات لعمليات ما » (**) (أو إخضاع لخبرة ما undergoings (ص 358)، وذكر معبراً عن ذلك أنه « لا يوجد فعل بدون رد فعل » (***) (ص 73)، وأن " الفعل والتفاعل فقط يمكنهما أن يغيرا أو يعيدا صنع الأشياء " (ص 158) وهناك تحليل مشابه يمكن أن نحلل به أعمال ميد .

p.119 ويبدو أن جيمس يمكن أن يكون الاستثناء المحتمل لوجهة النظر القائلة أن جميع المقولات الثلاث لدى بيرس موجودة لدى جميع البرجماتيين ، وبالتأكيد فقد ركز جيمس على « الشعور » (F) (مثل الإمكان والكيف والوسيط indeterminateness) أكثر من تركيزه على الإرادة . (S.) (مثل رد الفعل) أو الاعتقاد / المعرفة « (Th.) (مثل القانون أو العمومية) ، وكتب جيمس أن « الخبرة الخالصة هي اسم آخر للوجدان Feeling أو الإحساس Sensation " (مقالات في النزعة التجريبية الأصيلة ، ص 94) ويعنى « الجوهر Substance أن مجموعة من الإحساسات سوف تتكرر » (بعض المشكلات في الفلسفة ، ص 62) . وبالتأكيد فإن « الأشياء الملموسة » في « رد الفعل الفج أو الساذج ليست واضحة وضوحاً كاملاً لدى جيمس كما هي لدى بيرس أو ميد ومع ذلك فإن تركيز جيمس المتواصل على التعددية Pluralism (وهي النظرية التي تقول أن الاجزاء المختلفة للواقع يمكن أن تكون لها علاقات متخارجة) (كون متعدد A pluralistic Universe ص 321)

(*) Peirce's Theory of Quality .

(**) Doings and Sufferings .

(***) قانون نيوتن لكل فعل رد فعل مساوٍ له في القوة ومضاد له في الاتجاه . [المترجم] .

ويمكن أن لا يستثنى منها إمكان حدوث ردود الأفعال بين هذه الأجزاء (والتي توجد بالتأكيد) ، وعند ذلك الحد¹ تكون أقوال جيمس [متسقة مع قوله بالإرادة . (S.) . ومن الواضح أن جيمس أدرك² المقوله الثالثة] وهي الاعتقاد / المعرفة (Th.) ، فقد أصر على الاستمرارية continuities داخل الخبرة ، كما أصر في ذات الوقت على اللااستمرارية Discontinuities ، ويسمى هذه النظرية « تعددية الإتصال » Synechistic pluralism ، وهو يعزوها لبيرس (ولبرجسون) كما يعزوها لنفسه (13) .

5 - الكوزمولوجيا عند بيرس : النزعة المثالية التطورية :

الكوزمولوجيا البرجماتية كوزمولوجيا تطورية مطردة : [بمعنى أن] الكون أمكن تصوره من خلال الحركة البرجماتية كعملية متطورة ، ولكن داخل هذا الاتساق العام يوجد إختلاف³ [أو فروق] بين النزعة المثالية التطورية عند بيرس وبين النزعة الطبيعية التطورية عند ديوى وميد ، فقد أطلق بيرس على كوزمولوجيته « مثالية من طراز مثالية شيلنج a Schelling fashioned idealism التي اعتبر الموضوع أو الشيء مجرد موضوع أو شيء متخصص p.120

(13) أنظر جيمس ، « كون متعدد » ص 395 FF ، وينفى التفسير الذى قدمه جيمس انتمائه إلى الاتجاه الإسمى nominalistic ، حيث ربط بين المذهب الواقعى المنطقى وبين التفكير التجريبي . وأنظر كذلك « بعض مشكلات الفلسفة » ص 106 . وهناك أيضا إشارة لمقولات بيرس بما فيها « الاعتقاد / المعرفة » (Th.) أشار إليها جيمس وذكرت فى كتاب « رالف بيرى » R. B. Perry « فكر وشخصية وليم جيمس » The Thought and character of William James . (المجلد الأول ، ص 325) .

ومعزول عزلاً جزئياً عن ادراك العقل⁽¹⁴⁾ (المجلد السادس ، الفقرة 102) ؛
وكتب مييد عكس ذلك ، « إنني أرغب في تقديم العقل مثل النشؤ في
الطبيعة، والذي يبلغ ذروته في المجتمع وهو المبدأ وصورة الإرتقاء » (فلسفة
الحاضر ، ص 85) . ففي الحالة الأولى يعتبر نشؤ الكون ذهنياً من الناحية
الجزهرية ، وفي الحالة الثانية يعتبر العقل كشيء ناشئ داخل الطبيعة
المتطورة. والكتابات [كما تبدو] معقدة ، إلا أننا نستطيع أن نلقى بعض
الضوء على سبب وجود هذه الفروق الكوزمولوجية .

قدّم بيرس تصويره عن الكون المتطور في نص شهير تحتويه هذه الكلمات:-
«إنه من مثل هذه المواد نستطيع بناء نظرية فلسفية بصفة رئيسية ، لكي
»نعيد تقديم صورة المعرفة التي خلفها لنا القرن التاسع عشر. ودون أن نتعمق
»تساؤلات هامة أخرى عن النسق الفلسفي . نستطيع أن نتنبأ بسهولة ما هي
»نوع الميتافيزيقا التي نكونها بطريقة مناسبة من هذه التصورات وسوف تشبه
»من ناحية بعض التصورات القديمة فضلاً عن إحتوائها على تصورات حديثة
»من ناحية أخرى ، ومنها سيكون لدينا «فلسفة وكونية . وسيفترض منذ البداية»

(14) علق جالي W . D. Gallie في كتابه « بيرس والبرجماتية » على كوزمولوجية بيرس
باعتبارها صورة العالم « World picture أي يمكن اعتبار العالم علامة صورية an iconic
sign بالمعنى الذي ذكره بيرس في عبارته . وقد اشار بيرس ذاته الي أنه لم يطور تصور
الصورة icon مثلما طور تصور الرمز. ومن الصدق أن تقول أن بيرس استخدم نظرية الصورة
The notion of icon بطرق هامة في فلسفته الرياضية والجمالية ، إلا أن تصور الصورة
يمكن أن يكون له صلة بالنسبة لتفسير بيرس ذاته . وقد اقترح « جالي » النظر الى نظرية
الصورة من ناحية أهميتها في فهم أفكار الكوزمولوجيا بما فيها الكوزمولوجيا عند بيرس ،
وهي جديرة باهتمامنا .

« وهو فرض بعيد بعداً مطلقاً - وجود عما من الوجدان غير الشخص ، وهى »
« بلا رابط أو إنتظام وسيكون وجودها لا كما ينبغى أن تكون. هذا
الوجدان » ينتقل الى هنا وهناك انتقالاً خالصاً كيفما شاء ، وسينشأ عن
النزوع والميل » « نحو التعميمات ، وستزول حركاته الأخرى ، ولكن بعد أن يكون
قد ترك أثراً » « متزايداً وهكذا يبدأ النزوع نحو العادة ، ومنها ومع مبادئ
التطور الأخرى ، » « ستنشأ كل أنظمة الكون . وفى هذا الوقت سيعود للحياة
عنصر الصدفة » « الخالصة - على الرغم من ذلك - وسيظل موجوداً حتى
يصبح العالم » « صحيحاً صحة مطلقة ، عاقلاً عقلاً مطلقاً ، ومنسقاً تنسيقاً
متماثلاً » « وسيتبلور فيه العقل أخيراً على المدى البعيد فى المستقبل » (
المجلد السادس ، الفقرة 33) .

وعلى الرغم من أن بيرس لم يشر فى هذا النص الى مقولاته ، فإنه ليس
p.121 من الصعوبة بمكان أن نفسر النظرية التى عبّر عنها فى تلك العبارات " عما
الوجدان غير الشخص و « فى البعيد بعداً مطلقاً » « وبداية فهو » الشعور »
(F.) (الكيف ، الوجدان ، الإمكان ، التلقائية) . و « العادة » أو الاتجاه نحو
التعميم فهو الاعتقاد / المعرفة » (Th) (الاتصال ، العمومية ، العادة ، الفكر ،
العقل) . وهذا « الاعتقاد / المعرفة » يظهر فى الوجود عن طريق التطور
التدرجى (الإرادة) (S.) والعالم هو العقل « متبلور » والذى سيكون
صحيحاً على المدى البعيد فى المستقبل بل و « صحيحاً صحة مطلقة » ، عاقلاً
عقلاً مطلقاً ، ومنسقاً تنسيقاً متماثلاً .

وهكذا فإن (الاعتقاد / المعرفة) و (العقل) يحول الشعور (الإمكان)
إلى أشكال محددة من الإرادة (الوجود) . وطالما أن « المادة » matter
والإرادة المعطاه تعطينا صفة محددة للعقل بصفة أساسية ، فإنه يمكن اعتبارها
« عقلاً متخصصاً ومعزولاً عزلاً جزئياً »¹ « أو بناءً عليه » فإن العملية ككل

التي يتم فيها تبلور العقل ذاته في عالم محدد تصبح عملية كوزمولوجية لحقائق معقولة الذات Concrete reasonableness ، وهذه هي « النزعة المثالية الموضوعية » objective idealism عند بيرس .

ولا يوجد فيلسوف برجماتي آخر ذكر مثل هذا النوع من الميتافيزيقا المثالية . وهناك من النقاد من ناقش فكرة أن ميتافيزيقا بيرس¹ وهي خليط من الأفلاطونية Platonian ، وفلسفة شيلنج Schellingean ، والهجبية Hegelian لا تسبق من الناحية الزمنية الفلسفة البرجماتية لدى بيرس فقط ولكنها لا تتسق معها . وبالتأكيد إذا ركز شخص ما على « لب » hard - Core القضية البرجماتية فإنه يستطيع أن يتبين الصعوبات التي تواجهه في تفسير الكوزمولوجيا المثالية باستخدام مجموعة من العبارات مثل إذا تم القيام بأفعال كذا وكذا ، فإننا سنحصل على نتائج كيت وكيت القائمة على الملاحظة ، ولكننا رأينا من قبل أن بيرس لم يأخذ في إعتباره تفسير هذا « اللب » على أنه نتاج نظري كامل له رموزه ذات المعنى . وقد فكر بيرس بالتأكيد في فلسفته البرجماتية التي تركز على كوزمولوجيته المثالية الشرطية hypothetized idealistic cosmology (« وهي شرطية » طالما أنه لم ينكسر كل دعاوي فلاسفة الدوجماتية الغائية Finality) بدلاً من معارضتها .

p.122 ويؤكد بيرس باستمرار على الطريقة التي تتغير بها أي حالة موجودة بالفعل في الفكر الانساني . وهكذا فالشخص يفتح النافذة المغلقة لكي يغير الهواء ا لفساد في الحجرة ، وهنا أمكن تصور أن « الإمكان » هو (النافذة المغلقة التي تم فتحها) وتؤدي فكرة الحصول على هواء نقي في مثل هذه الظروف إلى فعل هو فتح النافذة بالفعل ؛ وبهذا تتحقق (الإرادة) في عملية الفكر و

(الاعتقاد / المعرفة) كما تحقق الإمكان (الشعور)⁽¹⁵⁾ ، وأصبحت الظاهرة الملحوظة ظاهرة مقرّوة على نطاق واسع read large أصبحت نموذجاً طبق الأصل لعلم الكون عند بيرس . ولكن ما هو البرهان على هذا المدّ الكوني المتمثل في التصرف الإنساني المميز ؟ يجيب بيرس : " أن المبدأ أو قضية الإتصال التي ينبغي علينا أن نفترض أن الأشياء الموجودة متصلة¹ ومستمرة [بقدر ما نستطيع ... (المجلد السادس ، الفقرة 277) . والكون الذي يمكن تصوّره يتصل بالكون الذي يمكن أن نلاحظه « بقدر ما نستطيع » * إذن فعملية الفكر الإنساني صورة من الفكر الكوني، ويستطيع الإنسان أن يثق في هذا الاستدلال طالما أنه على المدى البعيد يتطابق أو يتفق مع طبيعة الأشياء . ويمكن تدعيمه بحيث تصبح فكرة المعقولية Reasonableness أنموذجاً للحياة ، لأن الحقائق العقلية الذاتية هي حقائق الواقع الكوني .

ويمكن تحديد علاقة برجماتية بيرس بنظرياته الكونية تحديداً قاطعاً إذا تذكرنا أن مفسّر الرمز سُمي في المرحلة المبكرة بالفكره Thought ، وقد وصفه في تحليله الأخير بعبارات¹ تدور حول [عمومية « العادة » Habit وقد تأثر بيرس تأثراً كبيراً بحقيقة واضحة مؤداها أن مفسّر الرمز يتجه بدوره لكي يصبح هو ذاته رمزاً له مفسّره الخاص، مثلاً على الإستمرارية . وأخيراً فإن واقعية الرمز تتضمن عمومية العادة ، تتوقف على القانون أكثر ما تتوقف على مجموعة من ردود الفعل الفردية . وقد تأثر بيرس بالعلاقة الضيقة لتصورات الرمز ، والفكر ، والعادة ، والقانون ، والعمومية ، والإستمرارية ،
p.123 حقاً ، لقد تأثر بهم لدرجة أنه استخدمها بالتبادل وجمع كليهما لكي تكون معاً

(15) يرجد المثال الذي يذكره بيرس عن النافذه المفتوحة في المجلد الخامس في الفقرة 431 -

(*) As far as we can .

مقولة (الإعتقاد / المعرفة) (Th.) ويمكن أن نسمي الإعتقاد / المعرفة باسم العقل واعتباره كموجه لتحقيق الإمكان ، وكانت النتيجة أن ظهرت النزعة المثالية الموضوعية عند بيرس . وعلى الرغم من مطابقة العقل للإعتقاد / المعرفة⁽¹⁶⁾ فإن هذه المطابقة تقوم كما رأينا - على اتجاه بيرس الذي يساوي بين الفكر والرمز والعادة والقانون كنتيجة لطبيعية لاعتماده الكامل على مبدأ الاستمرارية . ولكن إذا أخذ مبدأ عدم الاستمرارية بجديّة مثل مبدأ الاستمرارية فإنه سيكون من الممكن ألا تساوي بينهما ، مثال ذلك ، تساوي الفكر بالعادة أو القانون ، وهكذا فإنه سيسمح بالإعتقاد / المعرفة باعتبار أنها صورة مطلقة للكون دون أن يعتنق ميتافزيقا النزعة المثالية الموضوعية ، و « سينشأ العقل » عندئذ في وجود ظروف طبيعية معينة ، بدلاً من أن يكون هو نفسه مصدر الوجود «Fountain of existence» ومثل هذه النزعة الطبيعية التطورية تصورها جيمس من قبل ، وطوّرها ميد تطويراً كبيراً .

6- إنكار جيمس لوجود الشعور :

أراد وليم جيمس في كتابه « مبادئ علم النفس » Principles of Psychology أن يقدم علم نفس متقدم بإعتباره علماً تجريبياً ، وحاول أن يتجنب بقوة كتابات أساسية معينة تنسب إليه كفيلسوف رصادر ببساطة) أو افترض في هذا الكتاب دون مناقشة وجود عالم العقل والأفكار Thought

(16) إن تعبير « نفسى » Psychical تعبير واسع قضااض بالنسبة لاستخدام بيرس له ، أكثر من « العقل » Mind حيث يشمل الشعور والإعتقاد / المعرفة ، بينما يعتبر العقل (وهو مناط التفكير) هو الاعتقاد / المعرفة ، والنفس كشعور تشتمل بوجه عام على كل من النفس والعقل والفكر ، ولكنها (النفس) لا تحتاج لان تفعل هذا .

(أنظر بيرس ، المجلد الخامس ، الفقرتين 365 - 366)

والشعور (Feelings) وعالم الأشياء الخارجة عن الذهن ، وأن تلك العقول تعرف مثل هذه الأشياء الخارجة عن الذهن ، وقد قبل جيمس هذه « الثنائية المنهجية » Methodological Dualism من أجل علم النفس ثم من أجل إقامة نظرية عامة عن وجود وقائع نفسية أو ذهنية معينة بصفة جوهرية .

p.124 وقد لاحظنا من قبل ، عند مناقشة تصور الفيلسوف البرجماتي للخبرة ، أن جيمس كفيلسوف تعدى هذا الموقف الثنائي الذي افترضه بصورة مؤقته في « مبادئ علم النفس » ولم يعد يفكر في المحتويات التي تم اختبارها كموجود في الطبيعة النفسية أو الذهنية . وعلي سبيل المثال ، فاللون البني الذي يمكن أن يعتبر « فيزيقياً » إذا نظرنا إليه في علاقته بالمكتب ، إذا كان هذا هو لونه ، و « ذهنياً » إذا نظرنا إليه في علاقته بالسيرة الذاتية لشخص ينظر الي المكتب البني . وبهذا يصبح اللون البني لا ذهنياً ولا فيزيقياً .

وقد أخذ جيمس خطوة ثانية حاسمة عندما برهن على أن التفكير في شئ ما (الشعور بمعنى يشعر به) ليس نوعاً خاصاً أيضاً من " الوجود " أو " الكيان Entity " أو " المادة الخام " stuff (*) ولكنها مسألة وظيفية لبند واحد في التجربة المقدمة كبديل لوظيفة أخرى وذلك عن طريق توجيه التصرف (السلوك) وذلك في مقابل البديل . ولم يستفيد جيمس ذاته كثيراً من مصطلحات العلامات (المصطلحات السيميائية) Semiotic Terminology ، ولكن ليس من العدل أن نقول في هذا التحليل ، أن الشعور بمعنى الشعور بشئ ما (هو توظيف العلامات و أن أى شئ يفهم يمكن أن يوظف كعلامة . « فالعقل بهذا المعنى

(*) اطلق برتراند رسل في كتابه « تحليل العقل » The Analysis of mind و « تحليل المادة » the Analysis of Matter على المادة Stuff لفظ المادة المحايدة Neutral وهي التي تدخل في تركيب نسيج العالم بشقيه المادي والمعنوي . [المترجم] .

هو عملية العلامة a Sign process . وهذا الجانب في فكر جيمس أمكن
تصوره من قبل في فصل التصور (17) .¹ وما صاغه جيمس أقي « مبادئ
علم النفس » صاغه بوضوح في مقاله عام 1904 بعنوان « هل الشعور
موجود » . Does Consciousness Exist ?

وكانت إجابة جيمس على هذا السؤال البلاغي قاطعه « لا » ، الشعور
(كفكر) ليس نوعاً من الوعي الخالص : " أن الأفكار في الواقع مصنوعة من
نفس مادة الأشياء . " (١٤) (ص 37) ، فالتمييز بين الفكر والشئ ، بين العارف
P. 125 والمعروف ، هو تمييز وظيفي ينشأ من الخبرة . وإذا سمينا الشئ الموجود في
الخبرة « مدرك حس » a percept إذن فإن التصور هو مدرك حسي بديل لمدرجات
حسية أخرى تقوم بتوجيه السلوك إليها ، التي « تعنيها » . وعندما يتم
الحصول على هذا الموقف الوظيفي فإننا نقول في هذا التحليل أن لدينا شئ
« في العقل » . " فالشعور يدل على نوع العلاقة الخارجية ، ولا يدل على مادة
بمعناها أو وسيلة لمعرفة الوجود » (ص 35) .

وكتب بيرس لجيمس معلقاً على مقال « هل الشعور موجود ؟ » في
نفس شهر ظهوره (أنظر المجلد الثامن ، الفقرات 279 - 85) . ومن الواضح أن
بيرس لم يفهم ما كان يهدف إليه جيمس . وكتب إليه يقول : " إن بحثك هذا
أصابني بالإرتباك منذ بدايته وسيظل [المقال] أمامي حتى أستطيع أن
أكتشف ماذا تهدف من وراءه » (المجلد الثامن ، الفقرة 279) . ورد عليه
جيمس بخطاب¹ ذكر فيه [أنه يهدف إلى إقامة نظرية مؤداها أن الشعور

(17) يذكر ميد أن الفصل ١ الذي كتبه جيمس عن التصور يمثل موقفه الأخير من البرجماتية ومصدر
أفكاره الثرية التي اعترف كل من رويس وديوي أنها معزوة له .
إنظر فلسفات رويس وجيمس وديوي في إطارها الأمريكي ، ص 223 .
(*) Thoughts in The concrete are made of the Same stuff things are

يعنى « المبدأ الأساسى لكل خبرة أو كما تبدو فى بعض الوظائف أو العلاقات بين أجزاء معينه من الخبرة » (اقتبسها الناشر فى الحاشية 31 من المجلد الثامن الفقرة 285) . وقد عبّر جيمس فى تحليله للشعور ووظيفته والعلاقة بينهما عن نظرية مغايرة لنظرية بيرس والتي تفيد أن الذهن علامة مطلقة تعبر عن الواقع ولن يؤدي موقف جيمس الي كوزمولوجيا ذات نزعة مثالية موضوعية وكان من المفهوم من الوجهة الإنسانية لماذا لم يفهم بيرس إلما يهدف جيمس بدور العلاقة والوظيفة فى تحليله للشعور .

إن هذا الاختلاف الهام لا يجب أن يقف حجر عثرة أمام حقيقة مؤداها أن جيمس وبيرس اتفقا فى اعتبار العقل (" كالتفكير فى " ، أو « الشعور بـ » كعملية للعلامة أو الرمز . وإن الاختلاف بينهما يكمن فى البعد الكونى الذى اعطاه كل منها للعمليات الخاصة بالعلامة .

7 p.126 - ميد Mead : اللغة والعقل والنفس :

أشرت فى الفصل الذى تناولت فيه نظرية العلامات (السيميائية) البرجماتية إلى أن أعظم اسهام ميد Mead فى نظرية العلامات كان تحليله السلوكي للرمز اللغوى ؛ فاللغة الانسانية بالنسبة لميد دراسة محكمة [دقيقة] للإتصال الإشارى الحيوانى ، وفيه اكتسبت العلامات دلالة عامة (بأن لها مفسر سلوكي عام) لدى كل من تصدر عنه الإشارة [حالياً] أو مستقبلاً على حد سواء . واحتلت الأصوات المنطوقه Uttered Sound فى تحليله مكاناً رئيسياً هاماً لأن شخصاً ما سمعها من شخص آخر ينطق العلامة بنفس الطريقة التي ينطقها بها الآخرون ، ومن ثم اعتبرت اللغة المتكلمة نموذجاً طبق الأصل لكل أشكال اللغة الأخرى ، وقد افترض ميد مسبقاً أن اللغة عملية إجتماعية فى مظهرها ، ولكنها كونت بدورها وبعد ظهورها مجتمعاً إنسانياً

معتقداً ، وعقل انساني Mind ونفس Soul . وهكذا بحث ميد انطلاقاً من اقتناعه بالعملية البيولوجية الطبيعية سبب ظهورها أشكال أعلي من المجتمع الإنساني ، ومن الشخص [ذاته] .

وعرف ميد العقل على أساس اقتناعه التام بأهمية الرموز التي تتعلق بوظيفة اللغة باعتبار أن العقل ليس عالماً نفسياً داخلياً ، وكذلك المخ في الكائن الحي ، ولكنه موطناً من السلوك يتفاعل عن طريقه الأفراد فيما بينهم ومع العالم المحيط وذلك من خلال وسيط من الرموز اللغوية (18) ورغم ذلك فالعملية اللغوية إجتماعية من الناحية الداخلية internalized (19) بمعنى أن الانسان يستطيع أن يتحدث إلى نفسه صامتاً أو بصوت عال ، سواء أكان وحده أم في وجود آخرين . وإن الفكر بالنسبة لميد هو عملية داخلية جوهرية p.127 تستخدم فيها الرموز اللغوية ؛ إنه تفكير منعكس عندما يتجه لحل مشكلات التي يجابهها في السلوك ويمكن تعزيز الفروض الموجودة عندما تعمل في العلن ، غير أنها قد لا تكون - في هذه الحالة سواء - لكي نقول أنها « ذاتية » تماماً ، في « العقل » in the mind ، ولكن تظل رموز اللغة عمليات تجري في الطبيعة حتي وإن كانت داخلية ، بل وحتى إن كانت (ذاتية) بهذا المعنى ؛ لان الكائن الحي هو جزء [لا يتجزأ] من الطبيعة .

(18) يقول ميد في كتابه « العقل و النفس و المجتمع ما يلي في ص 133 : -
« لا تكمن العمليات الذهنية في الكلمات بقدر ما يكمن ذكاء الكائن الحي في العناصر المكونة للنظام العصبي المركزي . فكلاهما جزء من عمليات تحدث بين الكائن الحي والبيئة ، وتؤدي الرموز دورها في هذه العملية مما يجعل الاتصال غايه في الأهمية وإذا استبعدنا اللغة فالاتصال بالرموز يحدد مجال العقل ومن السخف أن ننظر ببساطة الى العقل من منظور الكائن الإنساني الفرد ، على الرغم من وجود مركزه هناك ، انه ظاهرة إجتماعية بصفة جوهرية .
(19) يتحدث بيرس عرضاً عن « العالم الداخلي » The inner World بإعتبار أنه ينشأ بوضوح عن العالم الخارجي ، outer (المجلد الخامس ، الفقرة 493 ، ويتحدث عن الفكر بإعتباره شكلاً من أشكال الحوار dialogic in form (المجلد السادس لفقرة 338) وقد ناقشت هذه الأفكار وما شابهها عند ميد في مقال مبكر بعنوان « بيرس وميد والبرجماتية » .

إن موقف ميد أيضا سَوَّغ استخدامات معينة للتعبير « الخاص » Private ؛ لأن الإنسان يستطيع إلي حد ما أن يلاحظ ذاته و يلاحظ صفاته الذاتية وسلوكه (بما فيها علامة السلوك) التي لا يستطيع أن يلاحظها مباشرة عن طريق الآخرين . فالخصوصية هنا موضوع يتعذر الحصول عليه ليتم ملاحظته عن طريق الآخرين ، ولكنه مثل هذه الخصوصية ليست موضوع الولوج الى شئ ما « ذهنى » بصفة جوهرية . كما أن هذه الخصوصية لا تتطابق مع ما هو « داخلى » inside ، وهو ما يعتبر حدود الكائن الحى ، لأنه من الممكن أن يكون هناك شخص يلاحظ شيئا ما ، مثل ملاحظة زهرة معطاة ، مثلما يلاحظها عالم نبات منعزل .

وهكذا استطاع ميد في تناوله لموضوع السلوك أن يجد دلالة (معنى) لمثل هذه المصطلحات مثل « الذاتية » و « الخصوصية » وقد استطاع ذلك حتى دون حل مشكلة الثنائية الديكارتية الذهنية والفيزيقية التي تدخل ضمن تحليله .

ما هي النفس التي جاءت فى تحليل ميد والتي تستطيع أن تتخاطب مع ذاتها ؟ (20).

(20) لإلقاء مزيداً من الضوء على النفس أنظر كتاب ميد « العقل والنفس والمجتمع » وعلى وجه الخصوص الصفحات 135, 226 وأيضاً مقاله « أصل النفس والرقابة الاجتماعية » The genesis of the self and social Control . وقد أشار جيمس الى أن الانسان يختلف عن سائر الحيوانات الأخرى بما اسماه الشعور بالذات self consciousness أو المعرفة المنعكسة عن ذاته ككائن مفكر Reflective knowledge of himself as a thinker ، وذلك فى كتابه « مبادئ علم النفس » المجلد الثانى ص 359 ، ولكنه لم يفسر قوله هذا فى مصطلحات أوتعميرات لغوية محددة . ويمكن أن نقول نفس الشئ بالنسبة لعبارة بيرس التي يقول فيها :
لقد أصبحنا على وعي بأنفسنا عندما أصبحنا على وعي بالانفس not - Self
we become aware of ourself in becoming aware of the not - self .

إعتبر ميد أن الصفة الجوهرية للنفس هي وعيها بذاتها -Self Consciousness بمعنى أن لديها القدرة أن تكون شاعرة (على وعى) بذات الشخص كموضوع . وقد وجد مثل هذا الوعي بالذات فى اللغة وهي سبب الخاصية الاجتماعية للرموز اللغوية ، فالشخص يستدعى فى نفسه الاتجاهات التي p.128 تستدعيها الرموز اللغوية لشخص آخر لدى الآخرين ، ومن ثم فالرموز التي تدل على ما فى عقل الشخص ذاته ، يستجيب لها شخص آخر كما يستجيب له الآخرون ، ومن ثم يصبح الموضوع بالنسبة لشخص ما أصبح شاعراً بنفسه - يصبح نفساً وهكذا فإن النفس هي ذلك الكائن العاقل الذي أصبح على وعى بذاته ، وبهذا المعنى أعتقد ميد أن الحيوانات بخلاف الانسان ليست نفوساً ، طالما أنها تفتقر إلى التقنيات اللغوية التي تجعل وعيها بذاتها ممكناً فى رأيه .

وقد ذكرنا فى هذا الملخص النقاط الرئيسية لنظريات ميد فى العقل البشرى الخاصة بعملية الرمز اللغوى . وفى النفس الانسانية ككائن عاقل قادر على وضع ذاته فى إطار دلالاته الرمزية إذن ما هو الملجأ والمعنى الكوزمولوجى لإنسان شديد الإقتناع بذاته ؟

8 - النسبية الموضوعية . فى عالم الكون عند ميد .

تتضمن الخبرة بالنسبة لميد وطبقاً لوجهتي نظر البرجماتية التجريبية والبيولوجية، تفاعلاً ديناميكياً بين الكائن الحى النشط وبين الموجودات المحيطة به فى العالم ، وهو تفاعل حساس . وفى هذه العملية التفاعلية فإن كل من الكائن الحى كخبير والعالم كخبير آخر يتبادلان عملية التفاعل . وقد اعتبر ميد أن مثل هذه العلاقة الديناميكية هي كما تتبدى للعقل من زاوية معينة ،

وعكسنا قال ميد بمعنى شامل عن التعبير الاستعمالي أن مظهر الموضوع كما يبدو للعقل هو مظهر اجتماعي : فطبيعة شيء ما كما تبدو للعقل محددة (على الأقل في جانب منها) بطبيعة الأعضاء الآخرين الذين يشتركون معه في p.129المظهر (21) . ولكن ما هو هذا الشيء الذي يتبدى للعقل وسيكون له تأثير بدوره

(21) أنظر : ميد " فلسفة الحاضر " ص 77 حيث استخدم فيها مصطلح « النسق » بدلاً من المنظور perspective ، وعلاقة هذه التصورات هي إحدى المؤلفات التي استخدمها الطلاب بعد ذلك عند تناولوا فكر ميد الكوزمولوجي . وقد استقبل عمل ميد باعتباره عالم نفس اجتماعي وعلى هذا الأساس وجهت إليه العناية والتصفيق ، غير أن أحد لم يتناول فكرة الكوزمولوجي بعد ، وهو على نفس الدرجة من الأهمية . وعلى طلاب المستقبل أن يحاولوا بعناية استكشاف العلاقة بين فكر ميد وميتافيزيقا هوايتهد White head ونظرية النسبية في الطبيعة . وأرد أن أسجل هنا نقطتين ذكرهما لي هوايتهد في أكتوبر 1933 الأولى : إنه اعتقد أن فكرة جسد كل أفكار البرجماتية الرئيسية ، الثانية : اعتقاده بأن الحركة البرجماتية يمكن أن تقوي بدرجة عظيمة إذا طورت تصور¹ مفهوم الكوزمولوجيا .

ومن رأيه أن الكوزمولوجيا التي تناولها هو نفسه يبدو أنها كانت من النوع الذي يحتاج إليه الناس . وذكر هوايتهد في ملاحظته أنه قرأ لثوره كتاب ميد « فلسفة الحاضر » مما جعله يضع ميد في مرتبة عالية ، غير أن موت ميد غير المتوقع على أثر أزمة قلبية heart attack عام 1931 منعه من تطوير الكوزمولوجيا التي يعد كتابه « فلسفة الحاضر » جزء منها فقط . كما منعه من مقارنة كتاباته مع كتاب هوايتهد « العملية والواقع » Process and Reality الذي ظهر بعد فترة قصيرة من موت ميد ، كما تناولت مناقشات ميد لأفكار هوايتهد أعماله المبكرة فقط ، ورغم ذلك فقد كان لهذا العمل تأثيره على تطوير ميد خاصة في بحثه الهام الذي قدمه بعنوان « الواقع الموضوعي للمنظورات The Objective Reality of Perspectives » عام 1926 ونشره عام 1927 في : Proceedings of the Sixth International Congress of philosophy وأعيد نشره في كتاب « فلسفة الحاضر » (الصحف - 161) 75 وكذلك في كتاب A.J. Reck بعنوان « كتابات مختارة لجورج هربرت ميد » .

selected Writings of George Herbert Mead .

عندما تدخل منظورات أخرى فى النظر الى العقل ، إن هذا هو المعنى الثانى للتعبير « إجتماعى » وهكذا يمكننا أن نميز بين معنيين لهذا الإستخدام الواسع لتعبير إجتماعى : يشير المعنى الأول الى التأثير المتبادل لكلا العنصرين داخل النسق ، بينما يشير الآخر الى تأثير شئ ما فى النظام على شئ آخر فى نظم أخرى . وهذا ما يمكن أن نسميه تفاعل النظم أو الأنساق intraperspectives or systems الإجتماعية وتداخل النظم أو الأنساق الإجتماعية intersystemic or intersystemic على الرغم من أن ميد ذاته لم يستخدم هذه التعبيرات .

وعندما يتحد المعنيان الاجتماعيان مكونان ما اسماء ميد « المبدأ الإجتماعى » (22) The Principle of sociality فإنه يسمى الخواص الجديدة أو الغريبة والتي تنشئ شئ ما عندما يدخل عليها نسق جديد بالخواص « المنبثقة » أو « الناشئة كنتيجة طبيعية أو متداخلة » emergent properties .

ويمكن إيضاح المبدأ الإجتماعى على المستوى الانسانى بحالة صبى نشأ فى مجتمع صغير يدخل الجامعة مما ينتج عن اتصاله بالآخرين فى المجتمع الصغير ملامح [وصفات] معينة فى شخصيته ، " فهو صبى من مدينة صغيرة " ، كما ستؤثر ملامح شخصيته هذه بدورها ردود أفعاله داخل مجتمع الجامعة ، إلا أن ملامح جديدة ستنبثق فى شخصيته بسبب تفاعله مع الآخرين

(22) أنظر « فلسفة الحاضر » ، ص ص 51 - 52 ، و ص ص 76 - 77 ويوجد بها عبارتان عن المنظورات perspectives كالاتى : أ - إن النظام هو العالم فى علاقته بالفرد وعلاقة الفرد بالعالم ، فلسفة الفعل ص 115 .

ب - إن النظام هو العلاقة المستمرة لبناء (أو تكوين) structure / لطبيعية التى تتضمن التغير فى تكوينها (المصدر السابق ص 118) .

فى الجامعة ، وستستمر هذه العملية فى كل موقف إجتماعى مقبل يعيشه ، وبالقطع فإن ما ذكر يتطبق على أى شخص آخر يتفاعل معه الصبى من مدينة صغيرة فى الجامعة .

فالفرء فى جانب منه هو ما هو عليه بسبب المنظورات التى كان عليها وهو عضو فيها ، قطبيته تختلف عن شخص خارج كل هذه المنظورات ، ومع ذلك p.130 فلن نستطيع أن نذكر طبيعته بطريقة شاملة بتعبيرات [مصطلحات] تبين موقفه من هذه المنظورات ، كما لن نستطيع - بالطبع - أن نذكر فى تعبيرات [تشمل] مجموعة من المنظورات المحددة (طالما أن ملامح جديدة لشخصيته تنبثق عنها إذا دخل فى مواقف نظمية جديدة) .

والآن نطرح سؤالاً كوزمولوجياً مزداه : هل يمكن مدّ هذا النوع من التحليل [ليشمل] صفات الكون ؟ من الواضح أن ميد كان مقتنعاً بإمكان مدّه . " فلا توجد ناحية فى الكون ليس لها منظوراً " Perspective . (فلسفة الفعل ، ص 495) (23) . وقد مَيّز بين ثلاثة مستويات رئيسية تنظم المنظورات ، وهى المستوى غير العضوى The inorganic ، والمستوى العضوى the organic والمستوى الذهنى the mental (24) ، وناقش فى مواضع عدة كيف أن موضوعات كل مستوى هى موضوعات إجتماعية بمعنى أن كل منها مستوى

(23) فى مناقشة جرت بينى وبين أينشتين Einstein حول هذا الموضوع ، وجدنا أن رأيه كان بالنفى ، فالنسبية الموضوعية objective relativism معروفة للعالم عن طريق « العلم » Science وليس عن طريق الميتافيزيقا .

(24) أنظر : هيرت ميد " فلسفة الفعل " ، ص ص 606 - 07 .

نفسه ذاته] بسبب علاقتها بالأعضاء الأخرى لكل منها . ومعها جميعاً المنظورات التي تدخل فيها . وعند كل مستوى يتم تنظيم المنظور من خلال الحقيقة [التي مؤداها] أن الأعضاء في منظور دائماً تحدث في المنظورات الأخرى أيضاً . ولكن المستويات الثلاثة هي نفسها منتظمة في علاقتها ببعضها البعض عن طريق نفس المبدأ الاجتماعي Principle of sociality ، وهكذا فالحياة هي إنشاق * يحدث تحت ظروف معينة من مستوي غير عضوي ، وكذلك المستوي الإنساني (أو الذهني) ينشأ بدوره عن مستوي عضوي تحت ظروف معينة . وينظم المبدأ الاجتماعي هذا الكل المعقد من المنظورات ، وبشكل الكون .

وليست هذه هي المناسبة لكي نحاول أن نرسم فيها الخطوط الكبرى بالتفصيل ، أو أن ندافع عن هذه الكوزمولوجيا التطورية المنبثقة . ولكن يمكن أن نلاحظ العديد من الملامح المميزة .

أولاً : ففي هذه النظرية نجد الكون هو (كما كان عند جيمس) " واحداً " One في بعض النواحي و " كثير " Many في نواح أخرى ، ويستمتع الكون بالوحدة Unity بمعنى أنه لا يوجد مكون واحد منظم معزولاً [عن الآخرين] وعلى سبيل المثال ، فإذا كانت بعض أجزاء الكون تبدو مفقودة أحياناً ، فإننا نجدتها في p.131 المنظورات الأخرى ، ومن ثم فالكون " واحد " كوحدة منتظمة من المنظورات as an organized system of perspectives ، ولكنه ليس واحداً بمعنى أن [هناك] منظور واحد [فقط] هو الذي يشمل الكون - inclusive perspective a single all - tive . فكل شيء على علاقة نظامية ببعض الأشياء الأخرى ، ولكن ليس

(*) نرى نظرية الانشاق Emergent Theory أن العقل الانساني يكتسب خصائص جديدة عن انشاقه وشأنه عن الجسم خلال تطوره البيولوجي ، وهي تختلف عن خصائص الـ بدن بعيدة عن تناول دراسات علم وظائف الأعضاء . د . محمود زيدان ، في النفس والجسد ، ص 189 .
[المترجم]

بجميع الأشياء الأخرى (أو يمكن أن نقولها بطريقة أخرى ، لا تشمل جميع النظورات جميع الأعضاء ، على المشاع) . ومن ثم فالتعددية Plurality أساساً كالوحدة Unity ففكر ميد ، مثل فكر جيمس ، له مكان لعدم الإستمرارية dis-continuities والإستمرارية Continuities .

ثانياً : إن الموقف هو موقف نزعة طبيعية تطورية an evolutionary naturalism أكثر منه (كما عند بيرس) نزعة مثالية تطورية an evolutionary idealism . ويعتبر العقل بالنسبة لميد ، منبثقاً عن شيء ، ومن ثم فهو على مستوى واحد من تنظيم النظورات ، ولا يعني هذا أن ميد ليس لديه مكان لقولة بيرس في الاعتقاد / المعرفة (Th.) ، وبعد المبدأ الإجتماعي حقاً أساساً للكون ككل ، ولكنه في حد ذاته شكل من أشكال الاعتقاد / المعرفة : ماذا ستكون م M في علاقتها النظرية مع ل L والتي تعتمد في جزء منها على ما تكونه م M في علاقتها النظرية مع ن N . ولكن حيث أن بيرس يتجه لمساواة العقل بالإعتقاد / المعرفة ، فإن نظرية ميد في الواقع تعالج العقل كصورة منبثقة عن الإعتقاد / المعرفة وليس كصورة متطابقة معه . ويتبع هذا أنه لن يوجد شيء في نظرية ميد متطابق مع تصور بيرس عن الكون مثل عملية معقولة الذات .. As aprocess of "Concrete reasonableness" والتي ينشأ عنها الإعتقاد / المعرفة (مثل العقل) . والشعور (F) الخالص (مثل الإمكان) عالم محدد وإرادة عاقلة A world of determinate and rationalized secondness (مثل الوجود أو التحقيق) فجميع مقولات بيرس تجد لها مكاناً في نظرية الكون لميد . ولكن في الإطار العام لكوزمولوجيا ميد فكل مقولة من هذه المقولات يجب أن تكون متضمنة في الأخريات . ومن ثم فلن تكون هناك احتمالات Possibilities دون تحقيقات ، ولا توجد وقائع فعلية (تحقيقات) Actualities

دون إعتقاد / معرفة متضمن في المبادئ الإجتماعية - وهكذا فإن الإنشاقات emergents p.132 هي احتمالات للتحقيقات ، والتحقيقات هي ما تكونه فقط من خلال اشتراكها في عدد من العلاقات المنظرية مع التحقيقات الأخرى) . فعند ميد (وكذلك عند ديوى) تظل مقولات بيرس صفات للواقع ، ولكن تحولت النزعة المثالية التطورية عند بيرس إلى نزعة طبيعية تطورية [عند ميد] .

وطالما أنه في مثل موضوع الكوزومولوجيا فإن صفات أي شئ هي صفاته بمقتضى علاقته المنظرية بالأشياء (الموضوعات) الأخرى ، فيمكن أن يقال عن الصفات أنها " نسبية بطريقة موضوعية " objectively relative ، ويمكن أن نسمى علم الكون الذى يعمم هذا المبدأ علم كون النسبية الموضوعية . وفى القسم التالى سوف يتم تطوير ومناقشة هذه النظرية باستفاضة أكبر وسيشور السؤال الخاص الذى يدور حول علم الكون البرجماتى ككل باعتباره علم نسبى موضوعى تطورى An evolutionary objective relativism

9 - - تعقيب على الكوزومولوجيا البرجماتية (" الميتافيزيقا")

وضع بيرس ميتافيزيقاه باعتباره نظرية عامة عن الواقع على أساس المعلومات التى أمكن الحصول عليها من علم الظواهر (المنطق) وتم مراجعتها بإستخدام نتائج العلوم الخاصة . فالميتافيزيقا التى يمكن تصورها هي علم يقوم على الملاحظة ويختلف فقط فى درجة العمومية عن العلوم الخاصة . تصور يختلف عن تصور النظريات الميتافيزيقا " التأملية " أو " العقلية " والتى تتميز عنها بقوة من حيث المنهج وصحة نتائجها عن العلوم التى تقوم على الملاحظة . ونادراً ما يستخدم البرجماتيون - ما عدا بيرس - مصطلح

" الميتافيزيقا " وإن استخدموه فباستخفاف ، ومن ثم فإننا استخدمنا مصطلح علم الكون Cosmology فى هذا الفصل ^[1] بدلا من الميتافيزيقا .

p.133 وينفرد علم الكون البرجماتى بلامح خاصة مثل التصور اللاديكارتى عن الخبرة ، ومقولات الشعور (F.) و الإرادة (S.) ، الإعتقاد / المعرفة (Th.) ، ونظرية العلامات (السيميائية) عن العقل ، والنسبية الموضوعية التطورية ، ويبدو لى أن هناك إتفاق جوهرى بين البرجمائين الأربعة على الملامح الثلاثة الأولى .

وتعتبر الخبرة مجالا خاصا تماما ، لكن ليس في كل موضع كما يختلف ما هو ذهنى اختلافا واضحا ذهنى بصفة أساسية مختلفة بقوة عن بقية الكون ومن خلال تطورها ^[2] الخبرة أصبحت البرجماتية توضع فى مقابل هذا النوع ^[3] الخاص من الثنائية وعلى العكس ، فقد اعتبر مجال الخبرة كجزء من الكون ومتصلة به . ^[4] أما الاتجاه الرئيسى فهو التأكيد على إعتبار الخبرة متضمنة فى تفاعل الكائن الحى مع بقية العالم - وعلى وجه الخصوص تعتبر عودة الى تصور ارسطور طاليس ("ولغة كل يوم ") وفي نفس الوقت هناك إدراك لبعض نواحي خاصة أو ذاتية للخبرة ، وفى هذا المقام فعندما حاولت البرجماتية تناول الخبرة حاولت أن تكون عادلة أمام الخواص المسيطرة للديكارتية التقليدية الحديثة The Cartesian - inspired - modern tradition .

وعلى الرغم من ذلك لم يستفد أحد من البرجمائين الآخرين من مقولات بيرس : الشعور والإرادة والإعتقاد / المعرفة ، فجميعهم أدرك ملامح المقولات الخاصة بالواقع ("الإمكان ") و " الواقعية " (الفعلية) actuality و " العمومية " (بشكل أو بآخر .

وقد تناول كل البرجمائين الكبار العقل بمصطلحات خاصة بعملية

العلامات. ورغم ذلك فقد وُجدت فروقاً كبيرة في التأكيد على أهمية العقل ومداه الذي تصوره ، مثلما نجد في الفروق بين النزعة المثالية التطورية لدى بيرس والنزعة الطبيعية التطورية لدى ميد .

p.134 أما الصفه الرابعة البارزة وهي - النسبية الموضوعية التطورية - فإنه قد ثار سؤال منطقي حول ما إذا كانت الوجهة النسبية الموضوعية (ولو أنها ليست وجهة تطورية) يمكن أن تعتبر بحق قد طبقت على علم الكون البرجماتي ككل. ويجب أن نعترف في الحال أنه لا يوجد فيلنسرف برجماتي آخر طور بوضوح وعمومية شكل النظرية كما ينسب لميد. ولكن هناك أمثلة كثيرة وتحليلات محددة لدى البرجماتييين الآخرين تبدو لي أنها دخلت في أصل النظرية . وهكذا كتب بيرس :

" ... إن كل شيء بيننا هو بيان ظاهري عن أنفسنا . وهذا لا يمنع إمكان وجود ظاهرة لشيء ماء بدوننا، تماماً مثل قوس قزح Rainbow الذي يعد اعلاتنا فورياً عن كل من الشمس والمطر " .
(المجلد الخامس ، الفقرة 283) (25) .

و أكثر من ذلك فقد كتب بيرس هذه العبارة الأكثر اتصالاً بالموضوع : -
" والنظرية التي تتناول وجود مثل تلك الأشياء الأخرى يجعلنا في مثل " هذه المكانة البارزة في حياتنا مما يقنعنا أن الأشياء الأخرى توجد أيضاً بفضل "ردود فعلها مع بعضها البعض " .

(25) لاحظ أيضاً مناقشة بيرس الهامة عن " الألوان النسبية بالنسبة لعضو أو حاسة الإبصار وبالتالي فهي علاقة « خارجية » External . (المجلد السادس لفقرتان 327 - 328) .
و توجد في المجلد الخامس الفقرة 457 مناقشات كثيرة مشابهة . وفي كتاب جورج ميد " فلسفة المحاضر " ص ص 73 - 74 ، وهي مناقشة عامة " للصفات لثانوية " Secondary qualities .

(المجلد الأول ، الفقرة 324) .

وأسهب جيمس في عباراته التي قال فيها " كل شيء له بنية في الحقيقة ولا مهرب من ذلك " (كون متعدد ص 319) ، وقال : -

" إن عالمنا المتعدد Multiverse هو الذي يجعل الكون مستمراً ، فكل جزء " بالرغم من أنه يمكن ألا يكون ، وأن له علاقة واقعية أو مباشرة ، إلا أنه مع " ذلك يتحرك في بعض علاقاته الممكنة أو المباشرة مع كل جزء آخر من خلال " الحقيقة القائلة أن كل جزء يرتبط مع الجزء الذي يليه مباشرة بطريقة متلاحمة " لا سيبل إلى الخلاص منها " (المصدر السابق ، ص 325) .

بينما ذكر ديوى ، الذي أخذ موقفاً سَمَاء " آرثر مورفى " Arthur E . Mur- phy " النسبية الموضوعية " objective relativism ، ذكر في موقفه هذا أن " p.135 أي شيء يتغير طبقاً لمجال التفاعل الذي يدخل فيه " (الخبرة والطبيعة ص ، 285) .

ولم يطبق ميد نفس العبارة بالضبط على موقفه هذا الخاص " بالنسبية الموضوعية " ، ولكن هناك مواضع كثيرة استعمل في كل منها عبارات " الموضوعي " objective و " العلاقة " Relation في نفس الجملة :

" تماماً مثل شيء موضوع على مسافة وهذا الشيء له قيمة منظورة تعتمد على علاقة العين بخطوط الضوء التي قبيل إلى الالتقاء عند نقطة واحدة .. لذلك فإن ما يسمى الصفة " الحسية للشيء يمكن أن تتم رؤيته على مسافة تنبثق كنتيجة لعلاقتها بالضوء الحاس أمام الشيء ، وهذه الصفة هي صفة موضوعية كما أنها صفة منظورة ، مثال ذلك ، إختصاص شيء بشئ آخر برغم وجوده على مسافة ما "

(فلسفة الفعل ، ص 283) (26) .

إن علم الكون النسبي الموضوعي هو بمعنى ما تعميم دا هو متضمن في التفسير البرجماتي للخبرة ، الموجود في العلاقة بين الكائنات الحية وبين العالم الذي يكون الخبرة وبين كل من العالم والكائن الحي مما يمكن من تحقيق صفات لا يمكن تحقيقها بطريقة أخرى . وتم تعميم هذه الحقيقة الأخيرة عن علاقات الخبرة ولكنه الغى الحاجة التي يحصل عليها دائماً الكائن الحي الحساس تحت ظروف خاصة يمكن معها الحصول عليها ، والنتيجة هي : علم كون نسبي موضوعي . ويبدو لي أن علم الكون البرجماتي - بالإضافة الي كونه بوجه عام عملية أوكوزمولوجيا مؤقتة فإن لديه نواة النسبية الموضوعية التي تحقق تطورها الكامل لدى ميد عند معالجته للخبرة كنظام أو معالجة إجرائية Transactional .

P. 136 وتتلائم النسبية الموضوعية مع ملامح أخرى كثيرة للفكر البرجماتي ، مثل معالجة القيمة في علاقتها بالفعل المكتمل ، وتناول نظرية العلامات التي تدل فيها العلامات فقط من خلال الوسيط على فعل المفسر . ولهذه الأسباب فإن النسبية الموضوعية تبدو محدداً مناسباً لكوزمولوجيا برجمانية أكثر تميزاً .

(26) قارن هذه العبارة التي وردت في ص 330 من كتاب « العقل والنفس والمجتمع ومزدها أن " الأشياء تكون ملونة ، وذات رائحة سارة أو مؤلمة ، بشعنة أم جميلة ، وذلك في علاقتها بالعضر الحساس " . وكتب ميد في موضع آخر " إن حاسة الذوق المحفوظة والأعضاء المنفصلة (أو التي تعاني) موجودة بنفس المعنى مثل المدركات الأخرى أو الأشياء . في أصل نشو الذات والرقابة الاجتماعية " ص 257 .

" The Genesis of the self and social control . "

الفصل السادس البرجماتية فى الوقت الحالى

p.141 -1 فى وحدة الحركة البرجماتية :

بيّنت المناقشات السابقة أنه على الرغم من أن فلسفة البرجماتيين الأمريكيين ليست فلسفة مغلقة ^[1] على ذاتها وأحادية النسق ، إلا أنه يوجد قدر كبير من الإتفاق ^[المشترك] بين بيرس ، وجيمس ، وميد ، وديوى ، وقد حدث هذا فى جميع مجالات الفلسفة التقليدية ، فإذا لم تكن البرجماتية " نسقاً " بالمعنى التاريخى ، فإنها مصاغة بصورة أكثر نسقية من أن يدركها ^[الناس] على وجه العموم. إنها فلسفة مفتوحة كحركة جماعية فريدة تقريباً فى تاريخ الفكر الفلسفى . ولا يكون أعضائها مجموعة من المريدين ^[الحواريين] المخلصين حول سيد مفكر واحد ، ولكنهم مجموعة من المفكرين المبدعين المتفاعلين الذين قاموا بتطوير صرح فلسفى عام من أوجه متعددة ، وكانت النتيجة الكلية هى إحدى الانجازات العقلية العظيمة خلال المائة سنة الأخيرة .

وقد تم استعراض الموضوعات العامة الرئيسية لهذه الحركة الفلسفية والتي ركزت على الانسان ككائن نشط يبحث بذكاء عن القيم - لكي يستطيع أن يتحكم فى مستقبله . واتخذت نظرية العلامات (السيميائية) السلوكية p.142 أساساً لها . كما قامت هذه النظرية مقام " الأورجانون Organon للحركة . وعلى هذا الأساس ، ويتأثير منهج العلم القوى ، إتخذت نظرية المعرفة التقليدية (الإبيستمولوجيا) شكلاً جديداً فى نظريات البحث . وتم تفسير المنطق والرياضيات داخل نظرية البحث التى أتخذت النظرية السيميائية أساساً لها . وعولجت نظرية التقويم كشكل خاص لنفس نوع البحث العام الموجود فى العلم ،

وأصبحت محور المشكلة فى هذا البحث ، وتناولت هذه الحالة الخاصة الشئ الذى يستحق التقدير فى موقف أصبحت فيه عملية التقدير مسألة إشكالية ، هذا النوع من نظرية القيم (الأكسيولوجى) يمكن أن يسمى النظرية الأكسيولوجية ، أى نظرية السلوك المفضل (على الرغم من أن هذه العبارة لم يستخدمها الفلاسفة البرجماتيون أنفسهم) . وأكبر الفروق بين الفلاسفة البرجمatischen تجددها فى نظرياتهم التى عالجت علم الكون (أو الميتافيزيقا) ولكن حتى هنا يوجد اتفاق على أن البحث الكوزمولوجى يجب أن يتم توجيهه واختباره عن طريق الملاحظة observation ، وأن العالم الذى تم اختياره بكل ثراؤه يجب أن يعتبر كجزء وقسم من الواقع الكلى الذى أمكن إدراكه بكل أبعاده وأكثر من ذلك ، فطالما أن كل البرجمatischen الكبار يساوون بين العمليات الذهنية وبين عمليات العلامة . فإن هناك اتفاق عام على ما يمكن أن نسميه نظرية سيميائية (أو علامائية) للعقل .

إذن ، هذه الموضوعات العامة تميز الفلسفة البرجمatische فى جوانبها الفنية وتعطيها دورها المميز ، نظرية علامات (سيميائية) سلوكية a behavioral Semiotic ومنطق يتم تفسيره على أساس سيميائي ، ونظرية معرفية موجهة نحو دراسة البحث ونظرية فى القيم معنية بدراسة السلوك المفضل (وهو الشئ الجدير بالتقدير prizing وتعيين أو تحديد قيمة شئ ما Appraising) ونظرية فى الخبرة تعد مكملة للكون ، ونظرية سيميائية فى العقل . وهذه هي الموضوعات العامة الكبرى ، وهى حصاد جديد بالفعل .

p.145 وليس [معنى] هذا أن ننكر وجود الفروق بين بيرس ، وجيمس ، وميد ، وديوى - الفروق فى شخصية كل منهم ، وفى نوعية المشكلات التى تناولوها ، وحتى فى نوعية الحلول المقترحة لها . فكل منهم فيلسوف على طريقته الخاصة ،

وكل منهم يمكنك قراءته والاستفادة من قراءته دون أخذ الآخرين في الاعتبار. حقاً ، وحتى الآن فإنها حركة برجماتية واحدة ، " واحدة في كثير " One in many . وسأناقش فقط هذه البرجماتية oneness لأنها هامة كالكثرة many-ness ، ومن بعض الوجوه ، فإن جميع الكثرة يكون " الواحدية " . وعلى سبيل المثال ، ما قاله بيرس عن العلامات وما قاله صيد عنها مختلف، نجد الاختلاف حقاً ، ولكنهما لا يناقضان بعضهما البعض ، وكلاهما أسهم أسهماً كبيراً في نظرية العلامات بطريقة مؤثرة . أو يمكن أن نقول على سبيل مثال آخر ، إن تركيز بيرس الشديد على المجتمع The Community وتركيز جيمس الشديد على الفرد ساعدت على إقامة علاقة تبادلية غنية بين النزعتين الفردية والاجتماعية والتي تركت تأثيرها بقوة على ميد ودبوي ⁽¹⁾ . وإذا بحثنا في البرجماتية عن إطار يشمل مجالات الفلسفة التقليدية ، فإننا سنعتبر عمل جميع الرجال الأربعة عملاً متكاملاً بوجه من مآل الرجوه .

وفي الفصل التمهيدي حاولت أن أعدد أربعة عوامل في الموقف الثقافي الذي وضعت البرجماتية أصوله والتي قبلها البرجماتيون على أنها عوامل لا إشكالية . أعتقد أنه واضح الآن من التحليل السابق أن هذه العوامل الأربعة عملت معاً بهذه الطريقة : جميع البرجماتيين تجريبين ، وجميعهم يحترم العلم والمنهج العلمي ، وجميعهم شعر بتأثير علم الحياة (البيولوجيا) التطوري عليه ، وعمل جميعهم كإنسانيين داخل إطار المثل الديمقراطية الأمريكية .

وكان عقد الثلاثينات ⁽²⁾ (من هذا القرن) فترة ذات أهمية خاصة في تاريخ الفلسفة البرجماتية الأمريكية . وفي نهاية هذه الفترة كانت كل الأعمال

(١) : أنظر ديفيد ل . ميلر David L Miller " النزعة الفردية : التقدم الشخصي والمجتمع المفتوح " Individualism : Personal Achievement and the Open Society .

الكبيرة لمؤسسى الحركة البرجماتية متاحة : المجلدات الستة الأولى لبحوث بيرس (Collected Papers) : المجلدات الأربعة تضم أعمال ميد ؛ وكتب ديوى " الفن كخبرة " و " نظرية التقويم " و " المنطق " و " الايمان الشائع " A common Faith ، والحرية والثقافة [أو الحضارة] ، اكتملت جميعها خلال السنوات الخمس التي ظهر فيها هذا الانتاج الملهوظ .

ولكن شهد عام 1939 بداية الحرب العالمية الثانية ، وتميزت هذه الحرب بظهور عهد جديد فى الثقافة الأمريكية . وكان من المستحيل أن نتناول بنفس العمق فى هذه الفترة العصبية الحصاد الغنى لأعمال بيرس وميد وديوى التى كانت متاحة خلال فترة الثلاثينيات .

وأكثر من ذلك فقد جوبه الفلاسفة الأمريكيين خلال تلك الفترة بالحركات الفلسفية الأوربية القوية : الوضعية المنطقية . Logical empiricism الفلسفة التحليلية ' الانجليزية المتأخرة Loae British ansaytic Philosophy الظواهرية Phenomenology ، والوجودية Existentialism ، فضلاً عن تركز معظم جهود الفكر الفلسفى فى الولايات المتحدة خلال الثلاثين سنة الأخيرة حول هذا التحدى . وبدأ لبعض المفكرين أثناء تلك الفترة أن البرجماتية أصبحت ذات أهمية تاريخية فقط .

وعلى الرغم من ذلك فقد برهن الموضوع على أنه ليس بمثل هذه البساطة . فبالنسبة لبعض المفكرين الأمريكيين ، وغالباً من هم على أجنحة الفكر وليسوا تحت دائرة الضوء على المسرح الفلسفى ، عملوا بجد خلال السنوات الأخيرة ، وقد استوعبوا الأحداث من حولهم وأحياناً ما كانوا يقومون بتطوير اللب التاريخى للفكر البرجماتى من بعض نواحيه .

وثبت أيضاً أن الحركات الأوربية الأربع المذكورة فى الفلسفة لها علاقة

ببعض أوجه الفلسفة البرجماتية بطرق لا تقبل الشك على المدى البعيد. واضطروا أن يتعاملوا إلى حد ما مع عادات ثقافية مختلفة ومع مشكلات p.145 مشابهة . و أحياناً مع نفس النتائج (وإن عبروا عنها بطرق مختلفة) . وهذه البداية يجب أن نعيها ، كما أننا يجب أن نقوم بعقد بعض المقارنات منذ البداية، وكان من نتيجة هذا العمل أن عادت الي الظهور بعض أفكار بيرس وجيمس وميد وديوى الى بؤرة الاهتمام ، وأصبحت أفكاراً " معاصرة " Contemporary مثل أي أفكار أخرى في فلسفة اليوم .

2 - البرجماتية في الولايات المتحدة في الوقت الحاضر :

يدور العمل الرئيسي في البرجماتية الآن في الولايات المتحدة وبصفة مبدئية (ولكن ليس بطريقة شاملة) حول التفسير Interpretation والتقدير (التقويم) Assessment وتناولت أعمال بيرس الجزء الأكبر من هذا النشاط بلاشك . وقد أضاف الناشر آرثر بوركس Arthur W. Burks مجلدين آخرين لبحوث بيرس (Collected Papers) صدر عام 1958 ، فأصبح إجمالي عددها ثمانية (2) (*) . وأصبحت مخطوطات بيرس علي الميكروفيلم متاحة الان في

(2) أنظر : بيرس ، المجلد السابع " العلم والفلسفة " Science and philosophy ، والمجلد الثامن " مراجعات ورسائل وثبت بالأعمال " - Bibliography .

(*) نشرت المجلدات الست لهذه الابحاث بالأسماء التالية (وهي من وضع الناشرين وليست من وضع بيرس) :-

- 1 - المجلد الأول : مبادئ الفلسفة (1931) vol. I Principles of philosophy
- 2 - المجلد الثاني : عناصر المنطق (1932) vol. II : elements of logic
- 3 - المجلد الثالث : المنطق الصحيح (1933) =vol.III : Exact logic

مكتبات جامعة هارفارد . وأسفرت جهود محبى بيرس عن إنشاء جمعية تشارلز ساندروز بيرس Forum هسام تدور فيه المناقشات حول فلسفته وغيرها . وظهر حديثاً عدد من الكتب عن بيرس ، وقد أشرت إلى بعضها فى الحواشى السابقة من هذه الدراسة ، وأنهى ماكس فيش Max H. Fisch فى هذا الوقت قائمة طويلة - طال انتظارها - عن أعمال بيرس .

واستمر إدراك أهمية فكر ميد فى الإزدياد ، وأجرى توم كليفتون كين Tom Clifton Ken دراسة مفصلة عن أعمال ميد الفلسفية والاجتماعية والنفسية (3) . ولم يحظ كتابيه " فلسفة الفعل " و « فلسفة الحاضر » بالاهتمام الفلسفى الذى يستحقانه وهما يمثلان الأفكار الكوزمولوجية الكونية p.146 - الطبيعية [عند ميد . وبعد هذا جزءاً هاماً من فكر ميد المتأخر حيث وضع فلسفته عن الفعل فى مكانها الكوزمولوجى . وسوف يتناول ديفيد ل. ميلر هذه الموضوعات فى الدراسة التى يجريها الآن عن ميد .

4 = vol . IV : The simplest Mathematics (1934) : أبسط الرياضيات
5 - vol. V Pragmatism and Pragmatis- : البرجماتية والبرجماتيقية
cism (1934)

6 - vol VI :Scientific Metaphysics(1935) : الميتافيزيقا العلمية
ثم نشر بوركس عام 1958 المجلدان السابع والثامن بعنوان :
Pierce C.S.Collectd Papers
(vols . 7 - 8)
(Edited by : Burks, A.W., U.S.A., 1958).

أنظر د / عزمى إسلام ، المتطق الصحيح . تراث الانسانى العدد 2 المجلد السابع (بدون تاريخ)
ص 149 . [المترجم] .

(3) أنظر توم كليفتون كين " النظرية الاجتماعية للمعنى والخبرة عند جورج هيربرت ميد "
George Herbert Mead's Social theory of Meaning and Experience

أما الإهتمام الأكبر المتزايد الذي منح لوليم جيمس مؤخراً فقد كان قليل العناية بجيمس كفيلسوف برجماتي ووجهت [الدراسات عنه] نحو الاتجاهات الفينومينولوجية في كتابيه : " مبادئ علم النفس " و " مقالات في التجريبية الأصلية " وكذلك تضحيناته الوجودية في كتاب " تنويعات الخبرة الدينية " (4) . وعلى الرغم من ذلك فإن الإهتمام بجيمس لم يقف عند حد هذه الكتابات ، بل إن هناك مقتطفات أدبية عديدة حديثة لفكره ككل (5) ويعد تركيزه على الحرية والنزعة الفردية والتعددية الموضوع الثابت لتلميذ جيمس وصديقه " هوراس كالين Horace Kallen خلال عمله الوظيفي الطويل والتميز معه .

وهناك دراسة بدأت تصدر [الآن] بعنوان " مشروع ديوى : بحث جماعي عن كتابات ديوى " وتركز هذا المشروع في جامعة إلينوى الجنوبية Southern Illinois University ، وشمل مجلس إدارة الناشرين من بين أعضائه : جورج اكستل George E. Axtelle ، وجو آن بويد ستون Jo Ann Boydston ، و موريس إيامز S. Morris Eames ، ولويس وهان Lewis E. Hahn ، ووليم ليز William A. Leys (6) ، كما أصدرت هذه المجموعة عام 1967 نشرة بعنوان " نشرة ديوى " A Dewey News letter [بينما] قدم

(4) أنظر : جون وايلدلد John wildلد " التجريبية الأصلية عند وليم جيمس " The Radical Enpiricism of William James.

(5) أنظر : " كتابات وليم جيمس The writing of william James أصدره جون ماك درموت John J. Mc Dermott " ومقدمه لوليم جيمس Introduction to william James

James ، أصدره اندرو ريك Andrew Reck

(6) كان س . موريس إيامز S. Morris Eames ضمن هذه المجموعة وكتب عدداً من المقالات عن ديوى . وكان المجلدين الأول والثاني قد صدرتا عامي 1968 / 69 ويحتويان على الأعمال المبكرة لجون ديوى ، وقد أصدرتهما مطبعة جامعة إلينوى الجنوبية Southern Illinois University Press.

سيدنى هوك " Sidney Hook الطريقة التي فكّر بها ديوى بنشاط (ملحوظ) (7) ودافع عنها بثبات . واحتوت " مجلة الفلسفة " Journal of Philosophy خاصة على العديد من المقالات عن الخبرة مما مكن من استمرار تأثيرها ربما أكثر من نظرياته الإجتماعية في ذلك الوقت . ونأمل أن يصدر جورج داينخوزن George Dykhuizen ثبت بالمقالات الممتازة التي أصدرها ديوى خلال حياته العملية الطويلة .

ولن نحاول أن نصف التأثير بعيد المدى للبرجمانيين الكبار على الفلاسفة p.147 الأمريكيين المعاصرين ، أو على الفلاسفة الأوروبيين الذين جاءوا للإقامة في الولايات المتحدة . فهذا التأثير له دراسة قائمة بذاتها . ويمكنك أن تجد المادة التي لها علاقة بهذا المبحث في عدد مختارات " الفلسفة البرجماتية " - Prag-matic Philosophy التي أصدرتها " أميلي رورتى " Amelie Rorty ، وفي مجلة الفلاسفة الأمريكيون الجدد " The new American Philosophers التي أصدرها " اندرو ريك " وفي " نحو إعادة الاتحاد في الفلسفة ، Toward Re-union in Philosophy التي أصدرها " مورتون هوايت " Morton G.White ، وفي مقال " موري مورفي " « أتباع كنط : برجماتيو كمبريدج » Kant's Children : The Cambrigre Pragmatists.

ويلقى الآن فكر لويس C . I . Lewis عناية كبيرة ، ويمكن الإشارة الى أحدث المجلدات التي تحتوى على مقالات لويس الفلسفية بعنوان " فلسفة س . آى . لويس « The Philosophy of C . I . Lewis التي أصدرها بول آرثر شلب

(7) توجد المصادر في ثبت مراجع كتاب " سيدنى هوك والعالم المعاصر " Sidney Hook and the contemporary world . الذي أصدره بول كورتز Paul Kurtz وصدرت كذلك مجموعة حديثة عن أعمال هوك بعنوان " البحث عن الوجود " Quest for Being

، وقد بقيت بعض الكتابات التي لم يصدرها قبل وفاته عام 1964 ، ثم ظهرت تحت عنوان : " القيم والأمور الإلزامية " Values and Imperatives التي أصدرها جون لانج John F. Lange .

3 - البرجماتية والفلسفة الأوروبية المعاصرة :

أما فيما يتعلق بالعلاقة العامة بين البرجماتية وبعض الحركات الأخرى في الفلسفة المعاصرة (مثل التجريبية أو الوضعية المنطقية ، والفلسفة التحليلية الإنجليزية المتأخرة ، والفينومينولوجيا ، والوجودية) ، فإنه من الملاحظ أن هذه الحركات الخمس تطورت مستقلة بعضها عن البعض الآخر على أسس مختلفة من التقاليد الثقافية ، فيما عدا بعض الدمج الذي حدث بين الفينومينولوجيا والوجودية فإنها لازالت حالة خاصة ، ذلك أن العاملين في أحدهما نادراً ما يعرفون ماذا تم في الحركات الأخرى . ومع ذلك فإنه بقليل من إعمال الفكر ندرك أن بين هذه الحركات عدداً من الملامح على وجه العموم ، وقد ساعد التحليل السابق للبرجماتية في معرفة إلى أي مدى كانت هذه الفروق المسموح بها صحيحة بل ومتكاملة إلى حد بعيد .

p.148 وتتشترك هذه الحركات الخمس في ملامح عامة منها ايجاد عدد من المفكرين المجادين وليس مجرد القيام بعمل هوامش على أعمال أستاذ واحد . وكانت لهم غايات لا نهائية وليس مجرد إقامة " أنساقاً " بالمعنى التاريخي . وصبغوا جميعاً بصبغة تجريبية متحررة في مقابل الحركات التحليلية التقليدية للخبرة والميتافيزيقا التأملية التقليدية . وعلى وجه الخصوص ذات الطابع الديكارتي Cartesian Type وكانوا جميعاً ذو توجه إنساني man - oriented فقد بدأوا جميعاً على الأقل من الإنسان كمحور أساسي - أفعاله ، وخبرته ،

ولغته وتكويناته اللغوية ، وتوجهاته التي تقسم بالإيمان بشئ ما Attitudinal orientations . وكانت مظاهر التوجه نحو الإنسان هي الصفة المصاحبة في مختلف هذه الحركات : لأن المشكلات التي عُنوا بها كانت جد مختلفة . وكان يبدو أن اعتبارات العداء المتكرر بين أعضاء الحركات المختلفة ، بالنسبة لما له من صلة بمشكلة ما قد لا يكون للآخرين نفس التقدير فلم يكن ليهود أن لها أهمية تذكر . ومع ذلك فإنه طالما أن المحور الأساسى ينصب على خيرة ونشاط الانسان ، فإنه يجب أن تكون هناك تأكيدات Emphases ونتائج للحركات المتباينة مكملة لبعضها البعض ولا ينفي بعضها البعض .

ويفترض التحليل السابق للحركة البرجماتية منظورا واحدا نستطيع أن نرى من خلاله هذا التكامل . فكل حركة من الحركات الأربع الأخرى المذكورة في الواقع تركز على إحدى المشكلات الرئيسية والتي أخذتها الحركة البرجماتية ككل .

وعلى سبيل المثال فقد ركزت كل من الوضعية المنطقية لجماعة فيينا - Vien na Circle على وجه العموم ومعها لفلسفة البرجماتية (ريرس على وجه الخصوص) على المنطق الصورى Formal Logic وعلى المحك التجريبي (الوضعي) للتصور العلمى ذات المعنى ، وعلى الفروض ، واتفقت الفلسفة التحليلية الإنجليزية في شكلها اللغوى الذى وضعه فتنجشتين Wittgenstein بطريقة عامة وفجة مع الفلسفة البرجماتية في ربط المعنى بالفعل . أما بالنسبة p.149 للفينومينولوجيا فإن لها مكانا بارزا في فلسفة بيرس وجيمس ، وفي كثير من كتابات ميد (كما في فلسفة الحاضر) حيث احتوت هذه الفلسفات على خواص فينومينولوجية وعنى الوجوديون (في صورة جد مختلفه) بالاتجاه أويطريقة الحياة المناسبة للإنسان الحديث . وأصبحت هذه المشكلة أساسية لدى

جميع البرجماتيين ، وعلى وجه الخصوص عند جيمس و ديوى . وهكذا فإن هذه الحركات الأربع كان لها اهتمامات واضحة اشترك فيها جميع البرجماتيين ، وحتى الآن فإذا كانت الحركة البرجماتية تعتبر تكويناً كاملاً ، فإن الحركات الأخرى فى الفلسفة المعاصرة يجب أن تبرهن أيضاً على تكاملها . وتعتبر الحركات الخمس جميعها كتخصصات (فلسفية) محاولات يدعمها الإنسان الحديث Present - day man لكي يفهم ذاته وأنشطته ¹ فضلاً عن أنها محاولات [لوضع الإنسان نفسه فى بؤرة هذه الحقبة الزمنية الخاصة بالتحول الأساسى فى التاريخ البشرى .

إن المحاولة الجادة فى النظر إلى الفلسفة المعاصرة وبهذه الطريقة ستكون عملاً كبيراً ، وسيتطلب الأمر دراسات للحركات الفلسفية الأخرى مثل تلك المحاولة التي تبذل فى الفلسفة البرجماتية . ثم تجرى دراسة مقارنة لمثل هذه النتائج لإكتشاف ما فى هذه الحركات المختلفة من اتفاق على وجه العموم ، ويقع مكمّن الاختلاف فى كشف المدى الذى وصلت إليه فى الواقع من الناحية التكاملية . ومن الواضح أن مثل هذه « الفلسفة المعاصرة المقارنة » بعيدة عن حدود هذه الدراسة .

وعلى الرغم من ذلك فهناك فروض كثيرة متشابهة بين الفلاسفة فى الحركات المختلفة . ¹ وعلى كل حال [فإن الحواجز المحددة قد تم إزالتها بالفعل ، ونتوقع أن يستمر هذا الوضع ¹ لفترة أخرى] ويمكن أن تدرك القوى والمصادر المتعددة للفلسفة المعاصرة فى علاقتها بالعمل الذى شمل كوكبنا على إتساعه The planet - wide task حتى يفهم الإنسان الحديث ذاته ويستعد لمستقبله .

4 p.150 - البرجماتية كتعبير عن الثقافة الأمريكية :

يتركز اهتمامنا الرئيسى بالبرجماتية باعتبارها مجموعة من الأفكار ، وليس باعتبارها منحى للتاريخ الثقافى (8) ولكننا لم نشر بعد إلى بداية ظهور المبدأ الملائم للبرجماتية ذاتها ، فالفلسفة تنشأ عندما يشعر أشخاص معينين بوجود مشكلات ما فى ظروف إجتماعية معينة . وبهذا المعنى فإن الفلسفة (وأى نوع اخر من العلامات) يمكن أن يقال عنها أنها " تعبير " عن قاليها [أساسها] الثقافى حتى ولو لم تشر بشكل خاص إلى ذلك القالب . وكما أشار ديوى فإن الفلسفة سواء (أكان ذلك ضمنياً أم صراحة) قد تنظر نظرة تفضيل إلى قاليها الثقافى أو قد تكون رد فعل فى مقابل الموقف الذى تم تطويره . إن الفلسفة البرجماتية تعبير عن الثقافة الأمريكية من وجهتين : فهى [أولاً] تقوم بتدعيم بعض النواحي المحددة لهذه الثقافة [وثانياً] تقوم بنقد جوانب معينة أخرى منها وهكذا يصدق على جميع البرجماتييين المؤسسين.

(8) يمكن الرجوع إلى كتاب « البرجماتية والثقافة الأمريكية » Pragmatism and American Culture الذى أصدره « جيل كيندى » Gail Kenndy ويحتوى على عدد من المقالات كتبها البرجماتييون ونقادهم وثبت بالمراجع ويحتوى كتاب هـ . إس تاير . H . S . Thayer « المعنى والفعل » Meaning and action على مناقشة لهذا الموضوع . وهناك كتب أخرى لها علاقة بنفس الموضوع كتبها هربرت شنيدر Herbert W. Schneider منها « تاريخ الفلسفة الأمريكية A History of American Philosophy »¹ له ترجمه عربية بقلم د / محمد فتحى الشنيطى وكتاب مورتون هايت Morton , White « الفكر الاجتماعى فى أمريكا » Social Thought in America وكتاب رايت ميلز Wright Mills « علم الاجتماع والبرجماتية » Sociology and pragmatism

واعتقد بيرس أن الإنجاز السياسى للولايات المتحدة تمثل فى اتحادها الإختيارى وفى إعتقاده أن هذا يمكن أن يكون أنموذجاً لتطور آخر لشكل المجتمع الانسانى⁽⁹⁾ . ولكن بيرس كان لا ذعاً عندما أدا « إنجيل النهم » Gospel of greed الذى يعرض أمريكا للخطر ، وفى المقابل عرض « إنجيل الحب » Gospel of Love . ورحب جيمس بالنزعة الفردية والتعددية معها ، ولكنه عارض بوضوح عبادة « إلهة النجاح The bitch goddess success » والسياسة الأمريكية الإمبريالية فى ذلك الوقت . وربما كان ميد أكثرهم تفاؤلاً بنتائج العمليات الناتجة عن العمل فى الولايات المتحدة ، ولكنه كان على وعى كامل بإمكان إعادة البناء الاجتماعى المستمر والمتمثل فى تزايد p.151 مطلب المثال الديمقراطى : [لذلك] ركز اهتمامه خلال حياته على مثل هذه الكتابات التى تدور حول الاستقرار الاجتماعى The social settlement والرافض ذو الضمير The conscientious objector ، والتعليم الصناعى industrial education ، وتحويل « الإحسان الإجبارى إلى هيئة إجتماعية impulsive charity to social reconstruction . وبينما كان دىوى يمثل الاتجاه البروتاجوراسى المتميز فى الديمقراطية الأمريكية ، كان نقده للامع كثيرة فى المجتمع الأمريكى الحالى قاسياً إلى أبعد الحدود . وعلى الرغم من النقد التفصيلى اعتبرت الفلسفة البرجماتية تعبيراً ايجابياً أكيداً لبعض الممارسات التى وقعت فى التاريخ الأمريكى ، بوجه عام فى الديمقراطية عندما يتم النظر إليها وتفسيرها تفسيراً أخلاقياً .

(9) أنظر : مقال « رولون ويلز » Rulon Wells « بيرس كمواطن أمريكى » Peirce as an American ، فى كتاب : « منظورات عن بيرس Perspectives on Peirce الذى أصدره بيرنشتين » R . J . Bernstein

إن الأمريكيين الأوائل الذين اعتبرناهم رواداً دخلوا أرضاً غنية غير نامية كانوا يتمتعون بالثقة في قدراتهم وفي نشاطهم البارع لمجابهة المشكلات التي يواجهونها ، ولبناء مجتمع يتناسب مع تطلعاتهم وأشطتهم . وأنه لحق أنهم دعموا ثقتهم في أنفسهم وتطلعاتهم ببعض النظريات السياسية والدينية المحددة التي جلبوها معهم من أوروبا . ولكن كان اعتمادهم الرئيسى على أنفسهم كأفراد ، وتدرجوا في حل مشكلاتهم الخاصة . وكمن تفردهم على التركيز على الموقف Situation ، وهذا التفرّد لم يستمدوه من ثقافتهم [تراثهم] التي ورثوها .

وعلى الرغم من ذلك فإن ميراثهم السياسى والدينى منحهم الثقة، إلا أنه لم يوضع لنا أويبرر سبب ممارستهم الفعلية [التي مارسوها بالفعل] . وبينما كان جيمس يبارك يناهض النزعة الفردية بصفة أساسية للممارسات الأمريكية ، كان بيرس وميد وديوى يركزون على الحاجة إلى تشريع اجتماعى للإلحاح البارع والأخلاقي لتلك النزعة الفردية . وبهذه الطريقة أعطت الحركة البرجماتية التعبير الفلسفى لهذه الممارسات [كما أوضحت] والمثل التي لم تصاغ في الثقافة المستوردة من أوروبا. وبهذا المعنى تعتبر البرجماتية الأمريكية التعبير الفلسفى الإيجابى عن الديمقراطية الأمريكية .

وتناول ميد هذا الموضوع في بحثه الثاقب عن « فلسفات روس وجيمس ، وديوى في مكانتها الأمريكية » ، والكلمات الآتية من الفقرة الأخيرة لهذا البحث ترسم حدود هذا الموقف بطريقة واضحة للعيان : -

« لقد أشرت الى ما يبدو لى أنه من الصفات الهامة للحياة الأمريكية ، الحرية هي الصفة التي تحتوى بداخلها على بعض القيود الصارمة للغاية ، منها العمل بعيداً عن السياسة والأعمال التجارية المباشرة [التي تتم] آلياً عن

طريق توقيف النظام الاجتماعي السابق في وجوده [على النظام الحالي] والذي يجب أن يحتل مكانه بداخلهم وتلك القيم التي يجب أن يحفظوها. ونشير هنا إلى تلك النزعة الفردية [التي ظهرت] ربما بطريقة غريبة ولكن دون خوف. وقد تجسدت في أفضل أشكالها لدى وليم جيمس، حيث صبغها بثقافة وطنية حقيقية. وتوجد الآن طريقة واحدة فقط يمكن أن تأتي بها مثل هذه النزعة الفردية لكي نتقدها نقداً بناءً، وذلك عن طريق وجود الفرد الذي يحدد غاياته وأهدافه في عبارات ذات معانٍ اجتماعية يمكن استخدامها. إنك لا تستطيع أن تأتي إليه بعلم الأخلاق من أعلى [ولكنك] تستطيع أن تصل إليه عن طريق أخلاق هي ببساطة ما يطرأ على فعله من تطوير واضح. إنني أعتبر مثل تلك البراعة الواضحة هي المسئولة عن تطويره الشابت وعن التكامل الاجتماعي الذي يحدث في المجتمع الأمريكي، ويقليل من القيادة [الواعية] وتقريباً دون أفكار البتة. وليس من الضروري [هنا] أن نشير إلى أن فلسفة جون ديوى التي تصر على صياغة الهدف في عبارات ذات معانٍ، هي المنهج المتطور لتلك البراعة الواضحة في العقل للمجتمع الأمريكي».

هذه هي الكلمات الواضحة، ورغم ذلك فإنني على ثقة من أن هذا الكتاب ككل يبين الفلسفة البرجماتية الأمريكية أكثر ما يبين الضرورة التاريخية لها.

* ملاحق *

1- جون ديوى معلماً (*)

P.157 عَرَفَ ديوي في كتابه الكلاسيكي « الديمقراطية والتربية » (الذي صدر لأول مره عام 1916) الفلسفة بأنها « النظرية العامة في التربية » (ص 383). فقد تصور ديوي التربية بطريقة فضفاضة ، أعنى باعتبارها « إعادة بناء أو تنظيم أو تجديد الخبرة التي تضاف الى معنى الخبرة ، والتي تزيد من القدرة على توجيه سبل الخبرة اللاحقة » (ص ص 89 ، 90) . وبناءً على هذا المعنى الواسع يمكن تصور ديوى الفيلسوف في النهاية على أنه معلم . كتب ديوى يقول : " إن عمل فلسفة المستقبل هو توضيح أفكار الناس لمواجهة صراعاتهم الأخلاقية والاجتماعية فيما يواجهون من أيام . فإن هدفها سيصبح إلى حد ما تمكين الانسان من التعامل مع هذه الصراعات (التجديد في الفلسفة ، ص 26) . فمن المؤكد أن ديوى تصور عمله في حياته الخاصة [فوضعه] في هذه p.158 العبارات ، ومعظم كتاباته الكبيرة تبدو معقولة إذا اعتبرناها محاولة أكيدة لتربية الانسان المعاصر .

واعتماد جيمس توفتس James H. Tufts أن يقول عن " الديمقراطية والتربية " أنه أحسن كتب ديوى . ولقد كانت بالطبع مثل تلك الأعمال الضخمة المتأخرة التي كتبها ديوى مثل « الخبرة والطبيعة » و « الفن كخبرة » و « المنطق نظرية البحث » من أكثر إهتمامات الفيلسوف المحترف . إلا أن لب هذه النظرية التي جاءت في كل هذه الكتب توجد في صورة أسهل في كتابه « الديمقراطية والتربية » . ويبدو لي أن هذا الكتاب يعرض بطريقة

(*) هذه الصفحات مقتطفة من محاضرة عامة بعنوان « جون ديوى معلماً » ألقيتها في جامعة شيكاغو في الثامن من أغسطس عام 1951 .

أفضل من أى عمل آخر وحدة فكر ديوى والدافع الأساسي لحياته .
ويعطينا عنوان كتاب « الديمقراطية والتربية » مصطلحين لثالث ديوى
التصورى ، وقد أوضحت فى المقدمة أن العلم هو الطرف الثالث [لثالث] .
وتوجد هنا فقرة دالة على هذا الثالث جاءت فى مقدمة كتابه جاء فيها : -
" تتضمن الصحف التالية محاولة للكشف وطرح الأفكار الموجودة فى "
"المجتمع الديمقراطى ، وتطبيق هذه الأفكار على النسق التربوى [ككل] "
"وتشتمل المناقشة على إشارة إلى الأهداف والمناهج البناء للتربية العامة كما "
"نراها من وجهة نظرنا هذه ، فضلاً عن تقويم نقدى لتطوير نظريات المعرفة "
"والأخلاق التى صيغت فى حالات [أوضاع] إجتماعية مبكرة ، إلا أنها "
"لا زالت سارية فى مجتمعات ديمقراطية إسمياً ، فهى تعيق الإدراك المناسب "
"للمثال الديمقراطى . وكما سيبدو من الكتاب نفسه ، فإن الفلسفة المذكورة "
"فى هذا الكتاب تتصل بنمو الديمقراطية مع تطور المنهج التجريبى للعلوم "
"والأفكار التطورية فى العلوم البيولوجية ، وإعادة التنظيم الصناعى ، كما أنها "
"تُعنى بالإشارة إلى التغيرات التى وقعت فى موضوع ومنهج التربية الذى "
"يشير إلى هذه التطورات "

ومن هذه الكلمات تتضح لنا مصداقيات ديوى [الآتية] : أنه يقبل فكرة
" المثال الديمقراطى " The democratic ideal ؛ ويقبل إتصال الإنسان بالطبيعة
p.159 وهو إتصال واضح فى البيولوجيا التطورية [علم الأحياء التطورى] ؛ ويربط
بين قبوله المنهج التجريبى للعلم وبين نمو الديمقراطية ؛ كما أنه يقبل مجتمعاً
صناعياً ولكنه يعتقد أنه فى حاجة إلى إعادة تنظيم ؛ فضلاً عن نظريته الى
التربية ؛ بإعتبارها القوة الرئيسية لإعادة بناء المجتمع الصناعى فى اتجاه المثال
الديموقراطى . دعونا الآن نرسم خطى هذا النسق فى أصغر وحداته - in - system

miniature وذلك عن طريق توسيع تصوراته الرئيسية .

إن التركيز على الديمقراطية باعتبارها مثال ideal له دلالة ؛ انه يعنى أن الديمقراطية فى فكر ديوى هي أولاً تصور أخلاقى . ففى بحث نشره عام 1888 بعنوان " أخلاق الديمقراطية The Ethics of Democracy نقرأ هذه الكلمات : إن الديمقراطية إجتماعية ^[1] أو مفهوم إجتماعى [بمعنى أنها تصور أخلاقى . وقد بنى علي دلالتها الأخلاقية دلالة أدارية Governmental ؛ إن الديمقراطية هي ذلك الشكل من المجتمع الذى يُعطى فيه لكل إنسان فرصة .. لكى يصبح شخصاً " . إن ديوى لا ينأى أبداً عن هذا التصور الأخلاقى للديموقراطية باعتبارها المجتمع الذى يعد فيه الشخص هو المركز - A person centered Society .

وظهر نفس التركيز في كتابه " الديمقراطية والتربية حيث يقول فيه : -

" إذا كانت الديمقراطية لها معنى أخلاقى ومشالى ، فإنه ينتج عن هذا " المعنى أن يكون لها عائد إجتماعى على الجميع ، وأن تقدم الفرص للجميع " "لتنمية القدرات المتميزة . (ص 142) ، و يقع إدراك أهمية الفروق الفردية " "فى الكتاب فى الصف 45 ، 87 ، 137 ، 153 . كما أن تقديره لأفلاطون " Plato وإشارته اليه باحترام ، واضح فى العبارة التالية : - أرسى أفلاطون " المبدأ الاساسى لفلسفة التربية عندما أكد على أنه من عمل التربية أن تكشف " "ما يناسب كل شخص ، لكى نقوم بتدريبه عليه كى يتمكن من السيطرة على " "الجانب الممتاز فيه لأن مثل هذه العملية التنموية تتضمن أيضاً الوفاء " "بالحاجات الإجتماعية بطريقة متناسقة تماماً ولا يمكن أن يقع خطأ ما فى " "مبدأه الكيفى Qualitative ، ولكنه يقع فى تصوره المحدود لمجال " الاستجابات الداخلية التى يحتاج اليها المرء من الناحية الإجتماعية ، كما أدت

"النظرة المحددة الى وجود رد فعل ، إلا أنه يبدو غامضاً في إدراكه لتنوع"
"القدرات غير المحدودة الموجودة لدى مختلف الافراد " . (ص 361) . و
نلاحظ هنا أنه ركز على الفرد كأساس ومصدر القيمة داخل النطاق الضيق
لتقاليد الثقافة الرئيسية للغرب .

وتظهر قيمة الابتكارات من خلال تركيز ديوى على العلم ، بينما يعتبر
ديوى العلم أحد الأسباب الأساسية لإضطراب المجتمع المعاصر، كما اعتبره
أيضاً الأداء الذهنية الرئيسية التي تمكّن من التغلب على هذه الإضطراب ،
ولكى نكون على يقين فإن هذا [يعنى] أيضاً استمرار الأخذ بالتقاليد . وقد
أشار فرنسيس بيكون Francis Bacon إلى هذا الاتجاه [من قبل] ، كما كان
لدى ديفيد هيوم David Hume الرغبة فى أن يمتد المنهج التجريبي إلى
الموضوعات الأخلاقية والاجتماعية إلا أن ديوى - لكونه يعيش فى حقبة
أصبحت فيها الدراسات السيكولوجية (النفسية والاجتماعية مذهب كبرى -
أكد أكثر من أى مفكر معاصر آخر على دور العلم فى تزويدنا بالمعرفة التى
نحتاج اليها عن الانسان ، وفى تزويدنا بمنهج [يساعدنا] على تناول مشكلات
المعرفة الكبرى . [وبوصلنا] الى هذه النقطة نجد أنفسنا فى خضم الجدل القائم
حالياً لأن مصطلح " العلم " Science ليس فقط اصطلاحاً غير محدد وغامض
ومضطرب ولكنه ، [أيضاً] أصبح محتوياً على اتجاهات كثيرة من الإستحسان
أو الإستهجان . وكتب ديوى فى عام 1938 فى كتابه " الخبرة والتربية " ما
يلى :-

" إنني على وعى بأن التأكيد الذى أكدته على المنهج العلمى قد يكون"
"تأكيداً مضللاً ، لانه قد تكون له نتائج محددة عند الأخذ بالوسائل الفنية"
"الخاصة للبحث المعملى فقط كما يسلكه المتخصصون . ولكن معنى التأكيد"

"على المنهج العلمى لا يعنى إلا قليلاً بالنسبة للوسائل الفنية المتخصصة " .
(ص 111) .

p.161 وفى كتابه « نظرية التقويم » الذى صدر أيضاً عام 1938 كان لدى ديوى ما يقوله عن « الاتجاه العلمى » The scientific attitude حيث قال : -
" وفى جانبه السلبى [يقصد المنهج العلمى] ، فإنه يبنى التحرر من رقة "
"الروتين والتعصب والاعتقاد Dogma ، والتقاليد غير المصححة والإهتمام "
"الذاتى المجرى SHEER SELF- INTEREST ومن الناحية الإيجابية فهو "
"الرغبة فى البحث وفى الفحص والتمييز لكى نصل إلى نتائج على الأدلة "
" [التجريبية] والتى نقوم بجمعها بمشقة لكى تكون جميع الأدلة متاحة "
"لنا (ص 31) .

وعلى ضوء مثل هذه العبارات نرى أن تركيز ديوى المبكر على العلم كمنهج أو اتجاه ، والعلم كمعرفة منظمة تتكون من تلك الأفكار التى ساعدت على إقامة مبدأ التحقيق كمنهج (الديمقراطية والتربية ص ص - 22
24) إذن فموقف ديوى هو « الثورة الكبرى » The Great Revolution
فى العلم بإعتبار أن العلم يكتنه من حل مشكلات الناس .

ولا يعنى هذا أن « العلم » يحل المشكلات الإنسانية ولكن يمكن استخدام المناهج العلمية والمعرفة عن طريق الناس عند حل مشكلاتهم . وكان ديوى محدداً تماماً فى هذه النقطة التى تتفق حقاً مع اعتناقه الروحى للمشال الديمقراطى . ويوضح الفصل الذى ورد فى كتاب « المنطق » بعنوان « البحث الاجتماعى » Social Inquiry هذا النزاع : -

" إن الفرق بين البحث الفيزيقي والبحث الاجتماعى لا يكمن فى وجود أو "
"انتفاء الغاية المصاغة فى عبارات عن النتائج الممكنة. إنها تتألف من "

"الموضوعات القيّمة التي تعمل على تحقيق هذه الأغراض ... وفي حالة"
"البحث الاجتماعي فإن الأنشطة المترابطة تتضمنها العمليات التي تؤديها"
"بطريق مباشر . هذه الأنشطة تدخل في مضامين أي حل مقترح . إلا أن"
"الصعوبات العملية التي تعترض طريق تأمين طرق التوافق في الترابط الفعلي"
" وهي [صعوبات] كبيرة [إلا أنها] ضرورية للنشاط المطلوب " (ص 502) .

لقد اعتبرت أن هذا الحديث إنما يأتي وفقاً للمثال الديمقراطي ، لذلك فإن
البحث الاجتماعي الذي يجري على أشخاص [يواجهون] شيء ما [ويعد هذا
p.162 الشيء] مشكلة بالنسبة اليهم - يجب أن يشتركوا هم أنفسهم في البحث ،
ويجب أن يصلوا إلى اتفاق بشأن الأهداف والوسائل ، ويجب أن يختبروا
بأنفسهم الحل المقترح في عبارات لها تأثيرات تمس حياتهم وإذا كان ذلك
كذلك، إذن فإنه عند قبول المنهج العلمي الذي يتحدد مع المثال الأخلاقي
لليدوقراطية ، فإن العلم عندئذ لا يكون وسيلة فقط لمعالجة [مشكلات]
الناس ببراعة (كما في المجتمع الديكتاتوري Totalitarian society) ولكنه
سيكون أيضاً [وسيلة يمكن للناس بها أن يحلوا بطريقة أكثر رضاً مشكلاتهم
الخاصة سواء الفردية أم الجماعية .

بهذا الفهم لتصورات ديوي للديموقراطية والعلم نعود ، الآن [نفترض]
بإختصار تصوره الأساسي الثالث : التربية . أدرك ديوي أن المدارس تختلف
بإختلاف المجتمعات : لهذا فإن المسألة هي أن نجد نوع النظام التربوي المناسب
للمجتمع الديمقراطي ، وتتبع اتجاهات ردوده من افتراضاته السابقة الأساسية .
فإذا كان المجتمع الديمقراطي واحداً يشترك فيه جميع الأشخاص - طبقاً لمدى
قدراتهم - في [إصدار] قرارات تساعد على تنمية المجتمع ، وإذا كان منهج
البحث العلمي هو الصيغة (الشكل) المؤثرة والتي تناسب أكثر الذكاء الذي

أوجده الإنسان لحل مشكلاته ، إذن فإن عمل المدرسة الديمقراطية هو إيجاد أشخاص¹ يتمتعون [بعقل تجريبي وبالخاصية الأخلاقية التي يمكن لها أن تتعاون مع الأشخاص الآخرين في عمل جماعي¹ مشترك] يتناسب مع المثال الديمقراطي . وإيجاد مثل هؤلاء الأشخاص فإن المدرسة تصبح هي الوسيلة الرئيسية لتحريك حالة الإثارة للديموقراطية في اتجاه مثال الديمقراطية باستمرار . فالتربية التي يتصورها هي « تحرير قدره الفرد عن طريق تطويرها على نحو مطرد تجاه الأهداف الاجتماعية » (ص 115) وعمل¹ التربية هو « الحفاظ على الاتجاه الحلال والبناء حياً » (ص 231) لإطلاق الذكاء الانساني والعاطفة الانسانية » (ص 269) .

p.163 دعونا الآن نأخذ في اعتبارنا بعض ردود الأفعال النقدية التي أثارها فلسفة ديوي في التربية . لقد كانت ولا زالت مؤثرة¹ ولكنها ليست بالطبع موضعاً للشك . لقد شكلت مدارس الحضانة والمرحلة الأساسية ، وكانت تمثل قوة أساسية في تنمية تعليم¹ تربية¹ البالغين ، كما أثرت على المدارس المهنية والتعليم الفني ، ولكن كان لها بالمثل خصومها منذ البداية وحتى اليوم . وتركز معظم النقد على بعض الممارسات التربوية في مدارس كثيرة رفعت فوقها لواء « التربية التقدمية » Progressive education وكانت كثير من هذه الانتقادات صحيحة ، ولكن لم يكن¹ هناك من ناقد أكثر قسوة في نقده لكثير من المدارس التي استخدمت إسمه من ديوي ذاته . حيث حذر من طرق تطبيق الديمقراطية والتربية والخبرة والتعليم بل وتنصل من مثل هذه الممارسات ، ونستطيع أن نستغنى هنا عن التحليلات التفصيلية التي ثار حولها الجدل .

وكثير ما يقال أن ديوي كان كثير التساؤل عن (مكانة) الطالب ودوره

فى إرساء دعائم الأصالة ويجب دى عن هذا التساؤل بما بلى : -

" لقد أقمنا نظرية العقل الحر ونظرية المنهج العقلى لتطبيقيهما على "
 "الجميع بنفس القدره ونحن نأخذ فى إعتبارنا اختلاف الأفراد فى مقدار العقل "
 "الذى لديهم ... ولكن نظرية العقل بوجه عام نظرية خيالية .. إن ما نحتاج "
 "إليه هو أن يكون لكل فرد منا الفرص لكى يوظف قواه فى أنشطة ذات معنى "
 ". ويعنى العقل ، والمنهج الفردى والأصالة (وهذه العبارات قابلة للتبديل)
 "الكيفية الغرضية The quality of purposive أو الفعل الموحد وإذا عملنا "
 "طبقاً لهذا الاقتناع فإننا سنضمن أصالة أكثر من حتى لو على المستوى "
 "الاتفاقي أكثر مما يوجد الآن . ونحن نفرض منهجاً عاماً واحداً مزعوماً لكل "
 "فرد تربى تربية متوسطة من حيث الجودة بوجه عام ولكن باستثناء خاص الى "
 "حد بعيد. وهكذا فإننا نحمد الصفة المميزة على الكثيرين ونحفظ على
 "حالات" "نادرة (مثل حالة دارون كما يقال) والتي تصيب بالعدوى العبقريات "
 "النادرة بالفساد (الديمقراطية والتربية " ص ص 200 - 03) .

وهناك شكوى أخرى متكررة وهي أن ديوى ركز تركيزاً شديداً على
 النشاط Activity فى ممارساته التربوية المقترحة ، أما كونه ركز على النشاط
 فإن هذا صادق بالتأكيد ، ولكنه هو نفسه قام بنقد بعض المدارس التقدمية
 على أساس أن " التأكيد كان متزايداً بدرجة كافية على النشاط بدلاً من
 التركيز على النشاط البارع أو الخلاق Intelligent activity مما يؤدى إلى
 مطابقة الحرية على موضوع الإشباع [الأداء] المباشر للدوافع والرغبات " التي
 يعترض عليها ديوى . (الخبرة والتربية ص 81) . إن النشاط البارع أو الخلاق
 الذى يدعو إليه ديوى " يختلف عن النشاط الذى لا هدف له باعتبار أنه يتضمن
 فى الحقيقة اختيار الوسائل - التحليل - Analysis بعيداً عن تنوع الظروف
 الموجودة - وترتيبها - التركيب - synthesis لكى نصل إلى هدف أو غرض

مقصود المصدر السابق ص 105 - 06) . إن النشاط البارع يتطلب نوع من الخيال ، والخيال كما يصر عليه ديوى هو "جزء عاوى ومكمل للنشاط الانسانى " .
(والديموقراطية والتربية ، ص 277) .

وهناك شكل [آخر من أشكال] النقد له علاقة بنفس الموضوع وهو أن تركيز ديوى على العلم أدى إلى إهمال أهمية إدخال العلوم الإنسانية فى التربية ، مهما كانت الحالة فى الواقع ، فإنه لا يبدو فكر ديوى يدعو إلى مثل هذا الإهمال . وتتضمن فلسفة ديوى بحق معنى أصيلاً - مثلما الحال فى فلسفة بيرس وفلسفة هوايتهد - تبلغ ذروتها فى مجال علم الجمال . ويعتبر كتاب « الفن كخبرة » [لديوى] هو أحد هذه الكتب التى لها إسهامات دالة بالتأكيد على علم الجمال والتى صدرت خلال هذا القرن . ويعبر الموضوع p.165 الرئيسى لهذا الكتاب عن المكانة العالية التى منحها لعلم الجمال كنموذج كامل للخبرة « ومثال الخبرة فى تكاملها » (الفن كخبرة ص 274) . ولا بعد التركيز على علم الجمال تركيزاً متأخراً ، ويتضح هذا الأمر إذا أمعنا التفكير وعدنا إلى عبارته المقتبسة آنفاً عن المعيار التربوى بإعتبار أنه المعيار "الذى يضيف [شيئاً] إلى معنى الخبرة ، والذى يزيد من القدرة على توجيه مجرى الخبرة اللاحقة " . فإذا ركزنا على الجزء الأخير فقط من هذا المعيار فإنه سيكون إجحافاً لديوى ، لأن التركيز على زيادة ثراء الخبرة ، لكى تصل إلى شكل جمالى أو شكل متكامل ، يعتبر شيئاً أساسياً بالنسبة لنظرية ديوى الفلسفية والتربوية ككل . " نحن نعيش دائماً فى الزمن الذى نعيشه وليس فى أى زمن آخر ، وعن طريق استجلاء المعنى التام فى كل لحظة حاضرة فقط لكل خبرة واقعة ، نكون على إثرها مستعدون لأن نفعل نفس الشئ فى المستقبل " (الخبرة والتربية ، ص 51) . وأشار [ديوى] إلى نفس النقطة فى كتابه " الديموقراطية والتربية ص 65 فيقول " يجب الاستفادة من طاقة الخبرة الحالية

على أن تكون غنية وذات دلالة بقدر الإمكان ، وعندئذ فإن الحاضر سيدمج في المستقبل دون أن نشعر ، فنحن نعتنى بالاستقبال " . وسنفتبس النص التالي من كتاب « الديمقراطية والتربية » وسنورده على طوله لبيان الدور الكبير للفن في مجال التربية : -

" إن هذا التعزيز للمصنفات هو الذي يجعل من أى خبرة عسائية . وخبرة " مغرية ومناسبة وقادرة على الاستيعاب الكامل وممتعة ولينة أولى للأدب " والموسيقى والرسم والتصوير الخ .. فى التربية . إنها ليست العناصر " الشاملة للتقدير بالمعنى الأكثر عمومية لتلك الكلمة ؛ ولكنها العناصر " الرئيسية لتقدير مكثف تم تعزيزه ، وبالمثل فإنها ليست ممتعة بصفة جوهرية " وبطريقة مباشرة فقط ، ولكنها تخدم غرضاً أبعد منها هى ذاتها إنه ذلك " الحكم " [ولكن] بدرجة متزايدة لكل أنواع التقدير للذوق الثابت . حيث تتكون " p.166 " المعايير من أجل تقدير الخبرات اللاحقة . إنها تشير عدم الرضا في الحالات " التى تقع داخل نطاق ¹ قدرتها [على القياس ؛ إنها توجد الحاجة للأشياء " المحيطة والتى ترتفع إلى مستواها . إنها تكشف عن عمق واتساع المعنى فى " مجال الخبرات التى قد تكون متوسطة / وعادية . إنها تمدنا بأعضاء للرؤية . " " وأكثر من ذلك فإنها تمثل فى تمامها التركيز على العناصر التى تستحق المتعة " "والتي تجعل أية خبرة ممتعة بطريقة مباشرة ، فهى ليست رفاهية التربية " "ولكنها تعبيرات مؤكدة تجعل من أية تربية شيئاً ذو قيمة " .

(ص ص 278 - 79)

وعندما نأخذ فلسفة ديوي ككل ، فإننا نراها فلسفة ذات توجه قيمي ، مكرسة لإبراز وتوجيه الخبرة الإنسانية . إن تأكيده على المنهج العلمى ، وقبوله للحضارة الصناعية التى أفرزها هذا المنهج ليس استسلاماً للعلم ،

والتكنولوجيا. لقد كان ديوي أولاً وأخيراً وعلاوة على كل ذلك ¹ فلييسوفاً [إنسانياً Humanist ، وكانت حياته كلها عبارة عن محاولة مدعمة لكى يجعل العلم والصناعة انسانين Humaning ، قابلين لتحويلها نحو غايات إنسانية . وكان اساس تفكيره الثابت هو الاخلاص للنزعة الخلاقة فى الشخص ، ² وكذلك] للمجتمع الديمقراطى والمدارس الديمقراطية وهو نوع من الإمتداد نحر الاتجاه الأخلاقى الذى يتفاعل من خلاله الأشخاص .

لقد صقلت الأحداث التاريخية منذ صدور كتاب " الديمقراطية والتربية " كتابات ديوى ³ [الأخرى] غير أنها لم تغير من قناعاته الأساسية . وقال ديوى فى كتابه الذى أصدر الجزء الأول منه عام 1946 بعنوان " مشكلات الناس " Problems of Men وكذلك فى كتابه « الديمقراطية والتربية » ، معترفاً بأن « الامال التى فكر فيها الناس بنظرتهم الكريمة » أوائل القرن الحالى تقريباً « قد أمكن ملاحظتها بصفة رئيسية من خلال مجريات الأحداث الفعلية التى حدثت فى الواقع ، ويقو فى الاتجاه المضاد » (ص 23) وما جعل الطريق الذى اقترحه الإنسان الحديث صعباً إذا اراد السير فيه بوضوح ، تزايد استخدام الانسان للعلم والتكنولوجيا التى تستعبد الناس ولا تحررهم ، وأن الأيمان بقدرة ⁴ [الإنسان] على التحكم فى الذكاء الخلاق قد ضُعب بدرجة كبيرة وخطيرة . إلا أن اعتقاد ديوى الشخصى بشأن الدلالة التى تخللت الديمقراطية والعلم ، والتربية لم يتبدل .

فهو يقول : -

« وليست هناك حاجة لأن نذكر الصعوبات الضخمة التى تقف فى طريق »
« الانتشار من المجال المحدود الى المجال الأوسع للعلاقات الانسانية وهو »
« التحكم فى الذكاء المنظم ، والعمل من خلال تحرير القوى والقدرات الفردية »

«الذي يوجه عبء التاريخ الماضي إلى جانب هؤلاء المتشائمين بشأن إمكانية
»تحقيق هذه الرغبة الإنسانية والعمل الإنساني الضروري . إننى لا أتنبأ بأن
»الانتشار سيكون مؤثراً الى الأبد فى الواقع الفعلى ولكننى أعلن أن مشكلة
»علاقة السلطة والحرية ، والثبات، والتغير ، إذا أمكن حلها ستحل بهذه
»الطريقة ، إن فشل المناهج الأخرى واليأس من الموقف الحالى سيكوننا حرجاً
»عشرة أمام البعض لكي يبذلوا ما فى وسعهم للقيام بعملية الانتشار الفعلى
»إنهم يعرفون قبل المحاولة أن النجاح مستحيل وأنه يؤدي الى اتهام
»الإنسانية بالتأرجح التافه والمدمر بين القوة السلطوية وبين الحرية الفردية
»غير المنظمة والتي نعزو اليها اسهامها فى معظم الآلام وهزائم الماضى إن
الموقف اليائس جداً كما فى هذه [المحاولة] يعد حرجاً «عشرة فى طريق
مساندة المجهود الشجاع » . (ص ص 109-10) .

لقد كتب ديوى هذا عندما كان فى السابعة والسبعين من عمره ، [ونلاحظ
أن إيمانه بقدرة الذكاء ، والعاطفة والنزعة الخلاقة فى الإنسان لم تتغير .

٢ - علاقة البرجماتية بالعلوم السلوكية *

p.168 تخيل جون ديوى عام 1920 فى كتابه « التجديد فى الفلسفة » Re-
construction in philosophy أن « العمل الذهنى فى القرن العشرين ، فيما
يتعلق بالعلم الحديث هو كما يلى : -

« لقد أكدّ القرن السابع عشر باختصار على تطبيقه فى مجال الفلك "
والكوزمولوجيا العامة ، والقرن الثامن عشر فى مجال الفيزياء والكيمياء ، "
والقرن التاسع عشر أخذ على عاتقه التطبيق فى مجال الجيولوجيا والعلوم
"البيولوجية » .

(١) هذه المادة العلمية جزء من بحث طويل كتب عام 1964.

ولكنه فى الوقت الراهن استمر على النحو التالى :

« يجب أن تتكون الأفكار الجديدة والمناهج المحلية فى مجال الحياة الأخلاقية والإجتماعية فهل سيؤخذ على عاتق العمل ذهنى خلال القرن العشرين القيام بهذه الخطوة الأخيرة ؟ عندما تؤخذ هذه الخطوة فإنه ستكتمل » حلقة التطوير العلمى ، ويتم التجديد فى الفلسفة » . (1) .

p.169 وكرر وجهة نظره هذه فى مقدمة طبعة كتابه « التجديد فى الفلسفة » عام 1948 حيث أكد على دور الفلاسفة فى القرن السابع عشر ، والثامن عشر ، والتاسع عشر فى توفير " المناخ الفكرى " Climate of opinion الملائم لتأييد البحث العلمى فى العلوم الفيزيائية . وعبر عن إقتناعه بأن الفلاسفة لديهم الآن " الفرصة والتحدى لأن يعملوا عملاً مشابهاً فى مجال البحث الأخلاقى مستقبلاً " (2) .

ويتضح من هذه العبارات المقتبسة أن ديوى كان يفكر فى إنتشار الافكار العلمية التقليدية والمناهج الخاصة بدراسة الإنسان ، ولا مشاحة فى أن العلوم الإنسانية تحتاج لأن تبدأ من مناهج علمية فريدة . ومن الواضح أيضاً أن ديوى لم يكن يتوقع ظهور علم وصفى للإنسان فقط ، ولكنه توقع أن تتقدم العلوم الانسانية أيضاً فى مجال " البحث الأخلاقى " Moral inquiry ، ومن ثم يصبح لها صلة بالجانب المعيارى normative ، وأخيراً إذا لم تكن العبارات المقتبسة واضحة ، فإنه من المؤكد أن ديوى كان يقصد أن يركز علم الإنسان الذى يتصوره على الواقع الفعلى وعلى الفعل والسلوك .

لقد ساعدت البرجماتية فى إيجاد مناخ مناسب لمثل هذه التطورات فى

(1) جون ديوى ، " التجديد فى الفلسفة " ، طبعة 1920 ، ص ص 75 - 76 .

(2) المصدر السابق ، طبعة 1948 ، ص xxxv . وأنظر أيضاً ص xxiii

مجال الفكر Opinion وقال ديوى فى ملاحظة له " إن مناخ الفكر أكثر أهمية من موضوع الأفكار ذاته ، إنه موضوع يحس العادات الثقافية التى تحدد الفكر فضلاً عن [تحديدها] للإتجاهات العاطفية والإرادية " (3) ، وتعتبر البرجماتية عن الإتجاهات العاطفية والأرادية والذهنية التى هيمنت على تطور العلوم السلوكية فى الولايات المتحدة .

وتأثر بعض المفكرين الأوائل ، وعلى وجه الخصوص فى القارة الأوروبية تأثيراً كبيراً جداً بالدور [الذى قامت به] الرموز Symbols ، والقيم Values فى الحياة الإنسانية والتى جعلت هناك هوة سحيقة للغاية بين العلوم p.170 «الطبيعية» Natural و " الثقافية " Cultural وبين المناهج المستخدمة فى هذين المجالين من الدراسة . وكانت تقف خلف وجهات نظرهم [أرائهم] ثنائية فلسفية هي فى الغالب ثنائية بين العقل والجسم ، والروح والطبيعة ، والفهم و المعرفة . إن مثل هذه الثنائية لم تظهر فى الفلسفة البرجماتية ، وربما كان هذا أحد الأسباب التى لم يجعلها تبدو أنها تتناول مشكلات أساسية لدى علماء النفس والإجتماع الأمريكيين .

على الرغم من ذلك فلم يكن البرجماتيون ردّيون* Reductionists أبداً ، ولا يوجد شئ فى تناولهم يتطلب إنكار إن الفعل الإنسانى يحتوى على تعقيد ما ، بل إنهم حاولوا أن يتناولوا الدور الرئيسى المسموح به [الذى] تقوم

(3) المصدر السابق ، طبعة 1948 الموسعة ، ص xix

(*) النزعة الرديّة (الإرجاعية) Reductionism نزعة ترى إمكانية رد الظواهر العليا إلى الظواهر الدنيا " الأساسية " وهى تقوم على الإعتراف بإمكان وجود مراتب معينة لياديين الواقع (بدءاً من مستوى الوقائع الأولية ، مثلاً ، وانتهاءً بمستوى الكائنات الحية والمجتمع البشرى) .

المعجم الفلسفى المختصر ، دار التقدم ، موسكو ، 1986 ، مادة الرديّة ، ص 238 [المترجم] .

فيه الرموز والقيم بدور في الحياة الانسانية وذلك [باستخدام] مصطلحات سلوكية . والكتابات هنا بالتأكيد معقدة ، غير أن العلماء السلوكيين يدرسون الان يلا تردد الحياة الرمزية والتقويمية للإنسان باستخدام مصطلحات سلوكية في جانب منها باعتبارها أنها تعود لمناخ الفكر الذي طورته البرجماتيون ، وفي جانب آخر باعتبار أنها راجعة للتحليلات التي أسسها البرجماتيون أنفسهم .

والآن أحب أن أقدم بعض المعلومات لكي نبين أن بيرس وجيمس وميد وديوى نشروا تأثيرهم الهام في الواقع على العاملين الأمريكيين في مجال العلوم السلوكية . وقد أرسل استبيان بسيط بين زملاء العاملين في مركز الدراسات المتقدمة للعلوم السلوكية ، يغطي السنوات 1954 - 55 وحتى 1962 63 - ، فضلاً عن علماء الاجتماع والنفس ، وشملت عضوية المنتسبين الي المركز بعض الفلاسفة ، والرياضيين والاحصائيين ، والبيولوجيين ، والمحامين ، والتربويين ، ونقاد الأدب وقليل من العاملين في التخصصات الأخرى .

تم إرسال عدد 335 إستمارة استبيان إلا أنها لم يشتمل على الفلاسفة و p.171 الزملاء الذين يعملون خارج الولايات المتحدة ، ومعظمهم - وليس جميعهم - ممن يسمون أنفسهم علماء نفس سلوكيين ، وشملت المعلومات الأساسية المطلوبة مجال عملهم الرئيسي ، وسواء أكان المفحوص قد تأثر بطريقة ما ، بيرس ، وجيمس ، وميد أو ديوى ، وإذا كان قد تأثر فبأيهم تأثر بواحد أو أكثر ، وإذا كان مدرسو المفحوصين قد أظهروا تأثراً هاماً بأحدهم أو بأكثر من الرجال الأربعة ، وكانت الدراسة غير رسمية ، حتى أن عدداً قليلاً منهم في الواقع كتب أنهم لا يرغبون في أن يشتركوا في هذا الاستبيان على الرغم من ذلك فإن النتائج الرئيسية كانت شيقة وذات صلة بأهداف البحث .

وقد سلم 52 % من المفحوصين بالتأثير الهام عليهم لواحد أو أكثر من

البرجماتييين الأربعة ، وكانت نسبة التأثيرات الهامة كالاتى : دوى (53) ، ميد (50) ، جيمس (36) ، بيرس (21) . وتم تصنيف المفحوصين طبقاً للمجموعات الأتية : علم النفس (48) ، الأنثروبولوجيا [علم الانسان] (29) ، العلوم السياسية (27) ، الإقتصاد (27) ، علم الاجتماع (26) ، التاريخ (15) ، اللغويات (6) . أما بقية عدد المفحوصين الآخرين وهم 32 مفحوصاً فقد وضعوا عبارة واحدة مجموعة المتنوعات Miscellaneous

وباستقراء مجالات الدراسة فقد تم وضع حجم التأثير الهام للواحد أو أكثر من البرجماتييين الأربعة كالاتى : علم الاجتماع (85%) ، اللغويات (67%) علم النفس (60%) ، الأنثروبولوجيا [علم الانسان] (55%) ، المتنوعات (43%) ، العلوم السياسية (41%) ، التاريخ (33%) ، الإقتصاد (30%) ، وقد اعتبرت علوم الاجتماع والأنثروبولوجيا والنفس لب العلوم السلوكية فى الغالب وعليهم (وعلى مجموعة صغيرة من اللغويين كان التأثير البرجماتي عظيمًا .

p-172 وأجاب حوالى 52% من المفحوصين بأن واحداً أو أكثر من مدرسيهم قال أن واحداً أو أكثر من البرجماتييين الأربعة كان له تأثيراً هاماً عليهم أثناء فترة الدراسة . وما هو جدير بالملاحظة أنه توجد علاقة حميمة بين تأثير المفحوص تأثيراً هاماً بواحد أو بأكثر من البرجماتييين فضلاً عن تأثر مدرسه أيضاً . وهكذا فإتنا نجد فى 73% من الحالات إذا أحيط المفحوص علماً بأن هناك تأثيراً هاماً لأحد البرجماتييين عليه ، فإنه يقرر أن مدرسيه قد أعلنوا أنهم تأثروا بنفس التأثير ، وإذا أنكر المفحوص وجود التأثير الهام عليه فإنه يقرر أن مدرسيه ينكرون [مثل] هذا التأثير .

ولم يذكر 27 % من المفحوصين ومدرسيهم وجود أية تأثيرات هامة للمفكرين البرجمانيين عليهم .

و أشارت هذه النتائج إلى أن بيرس وجيمس وميد وديوى كان لهم تأثيرات ملحوظة على العلماء السلوكيين أنفسهم ، حيث كانت عينات كثيرة من العلماء السلوكيين من طلبة العلم اليافعين ، ولم يكن التساؤل عن التأثير مجرد تساؤل في فترة تاريخية محددة بأنه استمر حتى اليوم .

ومن الضرورة البالغة أن نضيف أن هذا التنافس لا يناقض عبارة روبرت ميرتون في [كتابه] « العلوم السلوكية الحديثة » - The Behavioral Sciences Today من أن جذور العلم الإجتماعي والسيكولوجي المعاصرة "بدأت أولا في أوروبا وليس في الولايات المتحدة" (4) ، وذكر ميرتون في هذا المقام [على سبيل المثال رواد علمي الاجتماع والنفس] فيبر Weber (*) ودوركيم Durkheim (**) وفشتر Fechner (***) وبافلوف Pavlov (****) .

(4) أنظر: " العلوم السلوكية الحديثة " The Behavioral Sciences Today أصدره برنار بيرلسون Bernard Berelson . ص 250

(*) ماكس فيبر (1864 - 1920) عالم اجتماع (سوسيولوجي) الماني ، من مبعيه قريب من الكاتوية الجديدة والوضعية ، من مؤسسي علم الاجتماع المعاصر . من أشهر مؤلفاته " الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية " و " الإقتصاد والمجتمع " [المترجم] .

(**) إميل دوركيم (1858 - 1917) عالم إجتماع فرنسي وضعي ، يعتبر زعيم المدرسة السوسيولوجية الفرنسية من أشهر مؤلفاته " في تقسيم العمل الإجتماعي " و " الأشكال البدائية للحياة الدينية " [المترجم] .

(***) جوستاف تيودور فشتر (1801 - 1887) مؤسس علم النفس الفزيائي ، تأثر بفلسفة شيلنج الرومانتيكية عن الطبيعة دافع عن المثالية " الكلية " مقابل المادية . [مترجم] .

(****) إيشان بافلوف (1849 - 1939) عالم النفس الروسي الشهير واليه يرجع الفضل في إكتشاف طريقة التعلم بالأشراط الإستجابي وذلك عن طريق تجاربه على الحيوانات خاصة الكلاب .

وجالتون (*) Galton وفرويد (**) Freud وآخرين ، وتحدث عن كتاب آخرين في نفس الكتاب ونفس الأسلوب Vein ، وقد اشار البرجماتيون الأمريكيون إشارة بسيطة حقاً إلى الملاحظات التاريخية العرضية التي تقع في هذا الكتاب .

p.173 بالطبع لم ينشأ علم النفس والعلوم الاجتماعية في الولايات المتحدة ، ولا يوجد ما يشير في هذا البحث الى أن الدراسات الأمريكية في هذه المجالات كانت مجرد فروع بسيطة في الفلسفة البرجماتية الأمريكية . كما لا توجد حتى مجرد إشارة الى أن التركيز السلوكي والفعلية في الدراسات الأمريكية عن الإنسان نشأت فقط من مصادر أمريكية (5) .

أما التنافس الحالي فيمكن ببساطة في أن الفلسفة البرجماتية الأمريكية

(*) فرنسيس جالتون Francis Galton (1822 - 1911) . عالم أحياء انجليزي ، يعتبر مؤسس علم اليرجينا الخاص بالنسل . (المترجم) .

(**) سيجموند فرويد Sigmund Freud (1856 - 1939) : طبيب وعالم نفس نمساوي ، يعزى اليه تأسيس نظرية التحليل النفسي الذي أمكن بواسطتها تفسير كثير من الأمراض النفسية ، ومن أشهر مؤلفاته « تفسير الأحلام » و « التحليل النفسي » و « الطواطم والتابو » وغيرها . [المترجم]

(5) وقد نظر كل من تالكوت بارسونز Talcott Parsons وفلوريان تزنانيكى Florian Znaniecki إلى علم الاجتماع على أنه علم دراسة الأفعال الاجتماعية ، وقد مهد لهم المفكرون الأوروبيون الطريق الذي قاما بتطويره ولم يرجعا في كتاباتهما الى مصادر البرجماتيين أنظر : كتاب تزنانيكى « الأفعال الاجتماعية » Social Actions (1936) وكتابه بارسونز " تكوين الفعل الاجتماعي " (1937) ، The structure of social Action بينما مات ميد عام (1931) ، إلا أن تأثيره ظل واضحاً على علم الاجتماع الأمريكي .

لها تأثير قديم على التوجه السلوكي في علم النفس والعلوم الاجتماعية في الولايات المتحدة ، تارة بتهيئة مناخ الفكر الملائم لمثل هذا التوجه، وتارة [أخرى] بتزويدنا بالتحليلات الخاصة الفعلية وعمليات العلامة ، والقيم، وعملية التقويم والتي ساهمت بنفسها في كل من البرنامج ومحتوى العلوم السلوكية المعاصرة .

3 - مدرسة شيكاغو (*)

p.174 سيتم مناقشة مدرسة شيكاغو البرجماتية على جزئين الجزء الأول : نظرة عامة على السمات المميزة لهذه المجموعة من الفلاسفة البرجمائيين ، والجزء الثاني يتناول بعض تفاصيل السنوات الأخيرة لهذه المجموعة ¹ والتي عشتها بنفسى [عندما كنت طالباً فى جامعة شيكاغو اعتباراً من خريف عام 1922 وحتى صيف عام 1925 .

الجزء الأول

أطلق وليم جيمس عبارة " مدرسة شيكاغو " The chicao school على p.175 المفكرين البرجمائيين فى جامعة شيكاغو ، وأشار جيمس فى خطبة رئاسية له Presidential Address القاها فى 17 أكتوبر عام 1903 عن جون ديوى ¹ قال فيها [" إن مدرستك (أعنى مدرستك الفلسفية) فى جامعة شيكاغو " ^(١) وكانت مدرسة شيكاغو ، هى عنوان مقال لجيمس عام 1904 دار حول كتاب « دراسات فى النظرية المنطقية » Studies in Logical Theory الذى شارك

(*) هذه المادة هى جزء من بحث ألقى كخطبة رئاسية أمام الجمعية الفلسفية فى فلوريدا فى 4 نوفمبر عام 1966 ثم ظهرت حديثاً مزيدة فى كتاب دارنل روكير Darnell Rucker عام 1969 بعنوان « برجماتيو شيكاغو » The Chicago Pragmatists وكتب فان ميتر Ames Van Meter المقال الافتتاحى لهذا الكتاب . وهو مقال مفعم بذكرات تلك الفترة عندما كنا طلاباً فى جامعة شيكاغو ، وظهرت فى مجلة « تاريخ الفلسفة » The Journal of the History of Philosophy فى يوليو عام 1970 .

(1) النص مقتبس من كتاب « بيرى R . B . Perry » فكر وشخصية وليم جيمس » . المجلد الثانى ص 524 .

ديوي في كتابته وظهر عام 1903 واستخدم تشالز بيرس أيضا عبارة « مدرسة شيكاغو » في مقال له عام 1904 في نفس الكتاب « الأمة » The Nation (2) .

وقد نشر كتاب « دراسات في النظرية المنطقية » كجزء من المنشورات التي تصدر كل عشر سنوات The Decemial Publications لجامعة شيكاغو ، وكانت الأبحاث الفلسفية المستقلة الأخرى في السلسلة هي « الوجود والمعنى والواقع في كتاب المقال للوك » * Existence, Meaning and Reality in Locke's Essay ويبحث نظرية المعرفة الحديثة Present Epistemology كتبه « اديسون مور Addison W. Moore ويبحث « تعريف ما هو نفسى » The Definition of the Psychological لجورج هيرت ميد ويبحث آخر بعنوان « في أصل مقولات علم الجمال » On The Genesis of the Aesthetic Categories لجيمس توفتس ، ويبحث هام بعنوان الشروط المنطقية للمعالجة العلمية للقوى النفسية « Logical Conditions of a Scientific Treatment of Morality لجون ديوي . كانت هذه الكتابات التي أشارت إلى وجود « مدرسة شيكاغو » والتي على أساسها أطلق عليها جيمس هذا الإسم .

كُون هؤلاء الرجال ديوي وميد ومور وتوفتس مع إدوار سكريبز أمز مدرسة شيكاغو وهم من الفلاسفة البرجماتيين . ولقد كان كل من الفلسفة وعلم النفس في السنوات المبكرة الأولى غير منفصلين [لذلك] فقد كان عالم النفس جيمس رولاند انجيل James Rowland Angell عضواً هاماً في تلك الجماعات المتعاونة معاً وقام بنشر مقال له بعنوان « علاقة علم النفس الإنشائي والوظيفي بالفلسفة » ضمن النشرات التي كانت تصدر كل عشر سنوات .

(2) أعيد نشر المقال في « مجموعة أبحاث تشارلز ساندرز بيرس » المجلد 8 الفقرات 188 - 190 (*) الإشارة إلى كتاب لوك « مقالات في الفهم ¹ العقل الفعال [الإنسانى] . Essays in Human Understanding صدر عام (1690) ¹ المترجم [.

وهناك عدد آخر من الأشخاص تعاونوا معاً في كتاب « الدراسات » ظهرت في كتاب النظرية المنطقية منها « الذكاء الخلاق » Creative Intelligence ولكن على أية حال يمكن أن نقول أن ديوي وميد ومور وتوفتس وآخرين كانوا خير من يمثلون « مدرسة شيكاغو » وكان ديوي هو رائدها دون منازع .

p.176 كان توفتس موجوداً في جماعة شيكاغو عند افتتاحها عام 1892، وكان من قبل في جامعة ميتشيغان Michigan ، وكان زميلاً لديوي في قسم الفلسفة ، واقترح توفتس على رئيس الجامعة [في ذلك الوقت] وليام ريني هاربر William Rainy Harper أن يعين ديوي رئيساً للقسم ، وتم ذلك في عام 1894 ، وعين ديوي زميليه في ميتشيغان ميد وأنجل الذي كان تلميذاً لديوي وميد في ميتشيغان ، وحصل كل من مور وآمز على درجة الدكتوراه من جامعة شيكاغو ، وظل ديوي في جامعة شيكاغو حتي عام 1904 عندما انتقل منه إلى جامعة كولومبيا Columbia (3) .

ولكن ما هي السمات الفكرية المشتركة لهؤلاء الرجال حتى أنهم قاموا بتكوين مدرسة متميزة ؟ لقد تم اللقاء الضوء على هذه السمات في هذا الكتاب خاصة إذا أخذنا في إعتبارنا مثل هذه العلاقات المبكرة لديوي وجيمس بيرس * .

وتحتمس جيمس في مقالة الذي نشره في كتاب « دراسات في النظرية

(3) أخذت المادة العلمية لهذه الفقرة من المقال الثمين الذي كتبه جورج ديخوين George dy Khuizen بعنوان « جون ديوي : سنوات شيكاغو John Dewey : The chicago years » . كما أنني مدين أيضاً لهذا المقال بعدد من الأقرار : هناك مقال آخر صاحب ظهور المقال لأجل بعنوان : « جون ديوي في شيكاغو : بعض الملاحظات الثانية John Dewey in chicago Some Biographical Notes » ، وهو مقال له صلة بالظروف التي أدت إلى إستقالة ديوي من جاعة شيكاغو .

(*) حذفت الصفحات الخاصة ببيرس ، حيث تمت مناقشة العلاقة بين بيرس وديوي في متن الكتاب (1969) .

المنطقية » وقال فيه : « إن هذه المدرسة تستحق حقاً وصفها بأنها نسق جديد في الفلسفة » ؛ فإذا كانت صادقة فضلاً عن أصالتها ، فإن ظهورها يجب أن يعد حدثاً هاماً . إن الناقد الحالي لها يظن بقوة أنها صادقة بالفعل ¹ وهو يقصد هنا مدرسة شيكاغو بالطبع] .

واتفق جميع مؤلفي هذا الكتاب في مقدمته على وجود « روابط بين النظرية المنطقية وعلم النفس الوظيفي » وأعلنوا أنهم ملتزمون التزاماً واضحاً مسبقاً .. [بأراء وليم جيمس] وكتب ديوى لجيمس رداً على مقاله قال فيه : - « وعلى قدر إهتمامي فليس هناك إلا أن أشير إلى المصطلحات المنطقية والتي استخدمتها أنت من قبل » .

p.177 وعلى الرغم من أن جيمس قام بالتأكيد بدور فعال في الحركة تجاه علم النفس الوظيفي ، فإن معظم ما قام به في علم النفس يكاد أن يوصف بأنه ²علم نفس وظيفي على سبيل المثال فإن علماء النفس الظواهرى Phenomen-ological psychologists اليوم يجدون الكثير عند ميلهم نحو « مبادئ علم النفس » لجيمس ويعتبرونه عملاً ظاهرياً بصفة أساسية يفوق فكر جيمس الوظيفي والبرجماتى ⁽⁴⁾ وقد ظهر مقال جيمس الوظيفي المتميز « هل الشعور موجود ؟ » Does conscious exist? عام 1904 بعد كتاب « دراسات في النظرية المنطقية » ومقال ميد الثاقب « تعريف ما هو نفسى » .

ويجب ألا ننسى من ناحية أخرى أن ديوى كان هيجلياً صريحاً ، وكان تأثير هيجل وتابعيه ³[واضحاً] على المساحة الكلية للمظاهرة الثقافية ، وكان التوجه نحو العملية الاجتماعية على الرغم من أن السمة المؤقتة للتطور

(4) أنظر على سبيل المثال مقال آرون جورفيتش Aron Gurvitch « مجال الوعي » The Field of Consciousness المترجم عن مقال بنفس العنوان بالفرنسية وهو ما ترجم عنه : The'orie du champs de la conscience.

الاجتماعى كانت قد قوضت تماماً عندما قالت بنظرية المطلق The absolute . واستمر ديوى فى هذه العملية التى طورها مما يمكن وصفه بالمثالية الثقافية الهيكلية الى النزعة الطبيعية الثقافية . وكان اهتمام ديوى الرئيسى اهتماماً أخلاقياً وساعده ظهور علم النفس الوظيفى (ثم السلوكى بعد ذلك) بصفة رئيسية على إيجاد مصطلح جديد يعبر به عن الاتجاه الذى اتجه اليه بالفعل عندما قام بتحليله الأخلاقى . وذكر ميد أن كتاب جيمس مبادئ علم النفس « لم يكن هو نقطة البدء عند ديوى وقال : « انتقل ديوى من موقعه المثالى عن طريق التحليل النفسى إلى الفعل الأخلاقى » . وطبقاً لرأى ميد فى كتاب ديوى « موجز النظرية النقدية للأخلاقية » Outlines of a critical Theory of Ethics الذى صدر عام 1891 وأشار فيه إشارة بسيطة لجيمس « لقد وجدنا أن الإرادة والفكرة والنتائج جميعاً قد وضعت فى الفعل ، والفعل نفسه قد وضع فقط داخل النشاط الأكبر للفرد والمجتمع » . وهكذا اتصل فكر ديوى بفكر جيمس بأيسر اتجاه وهما مازالا فى بداية الطريق .

لقد كان إهتمام ديوى الأساسى بالأخلاق وكان إهتمامه المبكر هو [محاولة] تطبيق المنهج العلمى على المسائل الأخلاقية ، مما أدى به الى تحليل الفعل الأخلاقى وإلى دراسة نوع البحث المناسب لمواجهة المشكلات الموجودة فى مثل هذا الفعل . ولانتمت حركة جيمس نحو علم النفس الوظيفى ونظرية بيرس فى البحث هذا الاتجاه المستقل فى فكر ديوى ، وخدم [هذا الفكر] واعتبر عناصر [أساسية] لتقدمه بعد أن استطاع تخطى التأثير الهيكلى المبكر الذى بدأ ديوى دراساته الأخلاقية وهو واقع تحتد وأعطى تطور ديوى بدوره لمدرسة شيكاغو البرجماتية تأكيداً اجتماعياً وأخلاقياً متميزاً يختلف عن التوجه الفردى لبرجماتية جيمس وتوجه التحليل المنطقى فى برجماتية بيرس .

الجزء الثاني

نعود الآن إلى بعض خصائص مدرسة شيكاغو البرجماتية كما كانت موجودة في السنوات من 1922 وحتى 1925 .

استقال ديوى احتجاجاً على موقف قسم التربية ، وبدأ فترة أخرى من عمله في جامعة كولومبيا ، ومع ذلك ، كان تأثيره العقلي مازال عظيماً في محيط جامعة شيكاغو، وكان قد أصدر في ذلك الوقت - فضلاً عن كتاباته التي ذكرت من قبل - « مقالات في المنطق التجريبي » (1916) و « الديمقراطية p.179 والتربية » ، (1916) و « الذكاء الخلاق » (1917) حيث كان هو المؤلف والناشر معاً ، و « التجديد في الفلسفة » (1920) .

وقد كان موجوداً هناك أثناء فترة الدراسة كل من أديسون مور وجيمس توفتس وادوارد سكرينر آمز وجورج ميد ، وكانوا جميعاً متعاطفون مع اتجاه فكر ديوى . وكان ديوى نفسه يصول ويجول في جميع مجالات الفلسفة ؛ وركز مور على النظرية المنطقية (بمعنى ديوى الإصطلاحي) ، وركز توفتس على علم الأخلاق والنظرية السياسية وعلم الجمال في عمله ، بينما ركز آمز على الفلسفة وعلم النفس الديني، وأكمل ميد في ذلك الوقت بصفة أساسية عمله الفلسفي في مجال علم النفس الإجتماعي مع إشارة خاصة الى موضوعات العقل والنفس .

كوّن هؤلاء الرجال مدرسة بالمعنى الضيق جداً لهذه الكلمة ، وكانوا جميعاً يمثلون اتجاهات مدروسة لموقف فلسفي [معين] اتخذوه إطاراً للعمل بوجه عام . وشجعهم على ذلك مجهودهم الفردي بما ترك تأثيره على المحاولات الشاملة والنسقية لديوى ذاته ، فهم ليسوا مجموعة من الحواريين Disciples تماماً ولكنهم كانوا مجموعة من المفكرين البنّائين ارتبطوا متعاونين لبناء صرح

فلسفى . وأنا لا أعتقد فى موجوده مدرسة مقارنة فى الفلسفة فى الولايات المتحدة بهذا المعنى ، وقليلة هى ، إذا كانت موجودة حقاً ، فى تاريخ الفلسفة . ولم يعتمد برجماتيو شيكاغو فيما بين 1922 - 1925 أعمال ديوى كنزاً لموضوعات محاضراتهم وتعليقاتهم . حقاً لقد كان قليل من الدروس المقررة على الطلبة من كتابات ديوى ومناقشات قليلة عن ديوى فى قاعات محاضراتهم (فيما عدا دروس الأخلاق الإلزامية حيث استخدمت فيها « أخلاق » ديوى وتوفتس كنصوص ، وفى ندوة مور التي سنشير إليها) .

p.180 وقد كان طلاب قسم الفلسفة فى تلك السنوات على وعى تام بها كمدرسة شيكاغو [كمدرسة بالمعنى الفضفاض حتي لهذه الكلمة وقد يشعر القارئ المتأمل لكتابات مور وتوفتس وآمز وميد أنهم كانوا عمالاً يشيدون صرحاً واحداً ، ولكن لم يكن ذلك سهلاً فى قاعات المحاضرات لقد كانوا جميعاً مدرسين ممتازين وكانوا يعدكون فى الموضوعات المختلفة المعقدة وينوعون فى الفكر الوليد . وعلى الرغم من عدم وجود دعاية كافية لهم إلا أنهم كأساتذة مرموقين كانت لهم قناعاتهم الخاصة التي إعتمدوا عليها فى اعلاتهم [عن أنفسهم] . وكان هناك تعريف محدود بهم فى حالة ما إذا كنا نتحدث « حركة برجماتية » عامة . ولم يكن إسم ديوى فقط هو الذى إستخدم بقله نوعاً ما فى محاضرات عديدة ، ولكن لم تكن هناك غير إشارات نادرة إلى جيمس ، وورد ذكر بيرس مرة أو مرتين بالكاد . كما أنني لم أحصل على أية مقررات مكتوبة ومحددة لكل من جيمس أو بيرس . وأذكر أنه كان هناك مقرر واحد فقط محدد لديوى ، وعلى الرغم من ذلك فقد كلفنا بكتابة العديد من الأبحاث عن ديوى فى الندوات، ولم يكن هناك من أثر فى أي مكان [آخر] عن المذهب البرجماتي .

وعلاوة على ذلك ، فإن أعضاء هيئة التدريس في ذلك الوقت كانوا يضمون ادوين بورت Edwin A. Burt وسميث T. V. Smith ، وتعرف الطلبة على الأفكار الفلسفية المختلفة من خلال الزوار الذين كانوا يحضرون خلال فصل الصيف ، وغالباً ما كانت أفكاراً عن أراء. نقدية تماماً عن البرجماتية وخلال سنوات دراستي كطالب عملت بهذه الطريقة [النقدية] مع رايت W.K.Wright وموريس كوهين Morris Cohen وواتس كانشكهام G. Watts Cunningham وسي ، آي . لويس C. I. Lewis .

و على الرغم من ذلك فقد ظهر توجه ديوى الوظيفي النشاط نفسه بعدة وسائل ، ومع وجود استثناءات قليلة ، فقد كانت مقررات القسم مقررات تاريخية في توجهها ، وغالباً ما كان فكر الفيلسوف المعنى ذا علاقة بمشكلاته [التي يثيرها في فلسفته] يتم الإشارة إليها في موضعها التاريخي أكثر مما تكون محاضرات مستقلة في العادة يتم تدريسها في محاضرات دروس الفلسفة .

p.181 وفي الفترة المعاصرة والقريبة من المعاصرة كان التركيز الأكبر في تلك السنوات أكبر على الفلاسفة المثاليين أمثال فرنسيس برادلي Francis Bradley وبنارد بوزانكيت Bernard Bosanquet ، ولم يلق الفلاسفة الواقعيين إلا عناية قليلة - فعلى سبيل المثال أهمل برتراند رسل تماماً فيما عدا بعض الحلقات الدراسية [الندوات] العارضة - ويقدر ما كان هذا التركيز على الفلاسفة المثاليين كان هناك غياب للمقررات الدراسية المقارنة ذات الصلة بموضوعات التخرج مثل الميتافيزيقا وفلسفة العلم والمنطق الرمزي .

والآن أعود إلى بعض الملاحظات عن مور وتوفتس وآمز وميد وقد اعتمدت بصفة رئيسية على ملاحظاتي المستمدة من قاعات المحاضرات ، وعلى

حواراتي معهم ، وعلى الكلمات التي كانت، تلقي في المناسبات التذكارية التي عقدت لتكريمهم .

١- أديسون وبستر مور

Addison Webster Moore

التحق مور بجامعة شيكاغو لكي يكون « حوارياً » لديوى ، فمن الواضح أن جاء من كورنيل Cornell عام 1894 ليدرس على ديوى ، وكان موجوداً في أول حلقة دراسية (سمينار) لديوى . كما كان العنصر الوحيد في جامعة شيكاغو الذي نشر بحثاً في كتاب « دراسات في النظرية المنطقية » وكتب جيمس خطاباً لديوى أبدى فيه تحمساً لبحث مور عن « الوجود، والمعنى، والواقع » ورد عليه ديوى بكثير من الكرم الزائد قائلاً له أن مور أعطى أكثر مما أخذ . ومع ذلك فإن مور بالتأكيد لم يؤثر أبداً على ديوى كما فعل ميد بصورة أساسية ، وكان دوناً عن الجماعة أقرب إلى أن يكون شارحاً ومدافعاً عن موقف ديوى . وقد كتب هذا في كتابه « البرجماتية ونقادها » Pragmatist and Its critics ، كما فعل هذا في بعض (وليس كل) محاضراته .

وكان مور [يتمتع] بعقل متقد ، ذكي ، جدلي Polemical وحتى في بعض الأحيان عقلاً ساخراً Satirical . وكان أكثر ضعفاً من حيث البنية عن زملائه الأقوياء ، وأكثرهم اجتهاداً . وعانى معاناة خطيرة من القلق Insomnia ، ودفعه ضعف صحته إلى التقاعد المبكر عدة سنوات مما كان يرغب . وقد أخبرني ذات مرة أن [اعتلال] صحته جعله ينجز على الأقل نصف ما كان يأمل في إنجازه . وكان مور في أحسن حالاته في ندوتين متتاليتين دارتا حول « أسس المنطق الحديث » Foundations of Modern Logic

و « المنطق الحديث » Modern Logic ، وقد غطت الندوة الأولى معظم الفلاسفة من ديكارت Descartes وحتى هيجل Hegel وركزت الثانية على مل Mill وبرادلى Bradley وبوزانكيت Bosanquet ورويس Royce ، وديوى Dewey ، مع بعض الإشارات إلى الفلاسفة الواقعيين [أمثال] مونتاغ Mon-tague وهولت Holt ورسل Russell وسبولدنغ Spaulding . أما مركز مور ذاته فى المدرسة فقد كان مركزاً جوهرياً مثلما [تألق] ديوى فى كتابه « مقالات فى المنطق التجريبي » Essays in Experimental Logic ، الكتاب الذى حدده فى [الندوة الخاصة] بالمنطق الحديث عندما تناوله مع ديوى . واعتبر [مور] بحث ديوى الذى نشره عام 1896 بعنوان « التصور المنحنى فى علم النفس » (5) The Reflex Arc Concept in Psychology إنه « المقال الرئيسى فى الحركة البرجماتية » . وفى مكان آخر سمّاه « البحث الرائد فى الحركة البرجماتية » وقد فهمت من هذا أنه يعنى أن البحث كان يعتبر بحثاً رائداً من الناحية التاريخية وبحثاً رئيساً بمعنى أنه كان يحتوى على أفكار جوهريّة Basic ideas .

ولم يأخذ مور فى إعتباره مطلقاً التأثير العظيم لجيمس علي فكر ديوى ، وإنما أعتبر أن هذا الفكر [فكر ديوى] تطوراً مستقلاً عنه ، وإن كان قد نشأ فجأة بتأثير الصعوبات التى واجهت برادلى فى علم الأخلاق (« صعوبات برادلى أوجدت الحركة البرجماتية ») إنها عبارة وجدتها فى ملاحظاتي . لقد رأى مور أن برجماتية ديوى إنما هي ثورة أساسية على المثالية المطلقة

(5) المجلة النفسية Psychological Review العدد 3، 1896 الصفحات 357 - 70 وأعيد نشرها فى كتاب ديوى « الفلسفة والحضارة » Philosophy and civilization عام 1931 تحت عنوان « وحدة السلوك » The Unit of Behavior .

Absolute idealism, وبدلاً من أن يوجد فكر ديوي وأن يكون إنعكاساً للوضع p.183 السائد ككل ، فإن الواقع The Real لدى ديوي - وفي رأي مسور - بحث نفسه عن سبب الفوضى التي نشأت وسادت في المجال العضوي Organic circuit الذي يحيط بالكانن الحى وبيئته ، واعتبر أن من واجب الفكر أن يعيد ترتيب هذه الفوضى البادية أمامه . وبهذه الطريقة يقال أن ديوي أرسى الدعائم التي ترد على هذه الصعوبات الأخلاقية الصورية التي أوجدها موقف برادلي . ولا أريد أن أترك انطباعاً على أن مسور كان مجرد مدافعاً عن الإيمان De-fender of the Faith ، فبينما يعود فكر ديوي إلى التحليلات النقدية التي قدمها مسور للمفكرين الآخرين ، فإن هذا الانطباع لن يظهر أبداً على السطح ، لقد أعطانا دائماً انطباعاً يتسم بالقلق والشك لكل فيلسوف قام بدراسة أفكاره . أما أنه كان مدرساً فلقد كان مدرساً رائعاً .

ب - جيمس هايدن توفتس

James Hayden Tufts

إذا كنا نعتبر مسور هو إمام المنطق (فيلسوف المنهج . ، وفيلسوف نظرية المعرفة) لجامعة شيكاغو بعد ديوي ، فإن توفتس هو فيلسوف الأخلاق ، بل وأكثر من ذلك بكثير ، فهو فيلسوف القيم The axiologist حيث كان معنياً أيضاً بعلم الجمال والنظرية الاجتماعية السياسية Sociopolitical theory ويسبب نشاطه الفعال خلال فصلى الدراسة في حلقات السمينار ، فقد قام بتدريس الأخلاق وتدريب خريجي قسم الفلسفة مثلما كان مسور يقوم بتدريس الطلبة على المنطق في ذات الفصلين الدراسيين .

وكان توفتس منذ أن كان شاباً مهتماً بدراسة المجتمعات البدائية فقد درس

عاماً على يد سامنر Sumner في جامعة ييل Yale ، كما درس هناك أيضاً اللاهوت Theology على يد هاربر Harper ، وعندما أصبح هاربر رئيساً لجامعة شيكاغو عين توفتس في منصب أستاذ الفلسفة ، وهكذا أصبح توفتس في جامعة شيكاغو قبل ديوي بسنوات ، وظهرت إهتمامات توفتس الأخلاقية قبل إتصاله بديوي ، غير أنه وجد أن ديوي مكمل له في إهتماماته الأخلاقية ، وقد قال لي ذات مرة أنه بعد كل نصف ساعة من حوار مع ديوي كان يشعر وكأنه استوعب كتاباً كاملاً . واقترح توفتس على ديوي خطة كتابه الشهير p.184 «الأخلاق» Ethics ، وكتب مع ديوي الجزء التحليلي الثاني ، واهتم توفتس بكتابة الأجزاء التاريخية في الكتاب أكثر من أي جزء آخر .

وأستمر تأكيد توفتس في كتبه الأخرى علي المشكلات الأخلاقية المعاصرة [مثل] « أخلاق التعاون » The Ethics of Cooperation و « التكلفة الحقيقية للمعيشة » The Real Business of Living و « الأخلاق الإجتماعية في أمريكا » America's social Morality وأكد من خلال بحثه الذي كتبه بعنوان « في أصل المقولات الجمالية » On the genesis of The Aesthetic Categories علي المنزلة الرفيعة التي يتمتع بها وقدرته الفائقة النظرية والعملية ، وأكد كذلك تأثير «الذكاء الخلاق» Creative Intelligence في كتابه الذي أصدره بعنوان « الحياة الأخلاقية وبناء القيم والمعايير » The Moral Life and The Construction of Values and standards (على الفرق بين تصورات « الخير » Good و « ما ينبغي أن يكون » ought بقوة أكبر مما فعل أي برجماتي آخر حتى سي . آي . لويس) :

وتلقت مع توفتس مقررات (courses) علم الجمال ، و الفلسفة الإجتماعية والسياسية ، والأخلاق التطورية ، وحلقة دراسية حول علم الأخلاق ، وكانت

جميعها موجهة توجيهاً تاريخياً ، غير أن ^[1] المقررات [الثلاثة الأوائل كانت مليئة بمادة دسمة مأخوذة من طواف توفتس الكبير في الأدب ، و الأنثروبولوجيا والحياة المعاصرة ، و أذكر على وجه الخصوص معالجته المطولة للمذهب الرومانسى Romanticism والتطور الأخلاقي عند اليهود . وتناولت الحلقة الدراسية الطويلة في الأخلاق ^[1] أعمال [هوبز Hobbes ، وشافيتسبري Shaftesbury ، وهوتشنسون Hutchinson ، وبطلر Butler ، وكلارك Clarke وهيوم Hume ، وادم سميث Adam Smith ، وبنثام Bentham وبالي Palcy وسيدجويك Sidgwick ، وت . ه . جرين T . H . Green وبعض الدراسات عن بوزانكيت Bosanquet وهوبها وس Hobhouse وديوي . وقد ركز توفتس متجنباً نظرة ديوي التطورية فيما يتعلق بالمثالية المطلقة - ، ركز على أهمية رد الفعل النقدي لديوي تجاه ت . ه . جرين ⁽⁶⁾ ، تماماً كما ركز مور على رد الفعل النقدي لديوي تجاه برادلي .

وربما كان توفتس - بسبب تأثيره علم الأنثروبولوجيا على تكوين اهتمامه الأخلاقي - أكثر حذراً من ديوي فيما يتعلق بالمدى الذي يستطيع الإنسان p.185 أن يصل اليه أو بما يجب عليه من ركونه إلى أهمية العلم في الحياة الأخلاقية ، ورغم ذلك فقد اتفق مع ديوي على أهمية تقديم الذكاء النقدي للإنسان على سلوكه الانساني .

وقد ركز توفتس على أهمية الخبرة الجمالية قبل أن يوجه ديوي اهتمامه بفترة نحو الفن ، وربما كان لهذا علاقة بتأكيد الثابت على تكامل الفرد

(6) أنظر : مقال ديوي « نظرية جرين عن الدافع الأخلاقي » ، Green's Theory of the Moral Motive الصفحات 593 - 612 .

والمجتمع . وكتب في أحد كتبه أنه [يجب على الإنسان] أن يعبر عن المثال إما بإعتباره كائن « فردى اجتماعى » Social Individual أو باعتباره « المجتمع الذى يدرك النزعة الفردية » * لقد اعتقد أن ذلك كان مثال الديمقراطية الأمريكية ، فكان يهتم اهتماماً ملموساً بالرأى القائل أن هذا المجتمع يجسد هذا المثال [الديمقراطية] وهو أخذ في تقدمه .

وجدت في كراسة الملاحظات هاتين العبارتين الأولى : « إن أمريكا تتحرك بثبات نحو الرقابة الاجتماعية » والثانية « إن القيمة المطلقة إنما تكمن في الشخص الكامل ».

وكتب توفتس في كتابه « التكلفة الحقيقية للمعيشة » يقول « إن أجمل وأوسع معنى للديموقراطية هو أن جميع الناس يجب أن يشتركوا بأوسع مدى ممكن في أحسن حياة » . ورأى توفتس أن هذا كمثال يمكن تطبيقه على البشرية [لذلك] ركز على أن الإنسان يجب أن يتخطى حدود النزعة القومية Nationalism إلى النزعة العالمية Internationalism ثم ينتقل منها إلى تكوين هيئة سياسية أكبر تكون هي القاسم المشترك Mutual Destiny ، « إن الولاء للبشرية يجب أن يكون هو الهدف الأسمى في نهاية الأمر » ** .

ج - إدوارد سكريبنر آمز

Edward Scribner Ames

حصل آمز على درجة الدكتوراة الأولى عام 1895 من قسم الفلسفة

* the society which recognizes individuality .

** Loyalty to mankind must finally be supreme .

بجامعة شيكاغو وانضم الى أعضاء هيئة التدريس عام 1900 بعد أن قام بتدريس الفلسفة والتربية في كلية بطلر Butler College لمدة ثلاث سنوات p.186 . كان آخر من مات من أعضاء مدرسة شيكاغو (عام 1958 عن عمر يناهز 88 سنة) . وكان أول إتصال لى بالقسم عن طريقه عندما سجلت بالقسم عام 1922 ، وعرفته أكثر ممن عرفت من أعضاء القسم ، فقد رأته كثيراً أثناء سنواته الأخيرة من حياته المديدة .

جاء آمز من مدرسة يل للاهوت إلى شيكاغو في السنة الأخيرة من دراسته قبل التخرج ، و تأثر تأثيراً عميقاً بكل من جيمس وشوينهور Scho-penhauer ويكونت إلى حد ما . وعمل بوجه عام في شيكاغو مع توفتس ، وجاء تأثره بالعلم من خلال دراسته لعلم النفس والأنثروبولوجيا ، وتزايد إحساسه بأهمية العلم الإجتماعى من خلال العمل الدائر في شيكاغو وعلى وجه الخصوص أعمال توماس . W . I . Thomas .

وكان آمز قسيساً بكنيسة الجامعة لجماعة حوارى المسيح لمدة أربعين عاماً مع بداية عام 1900 ، فضلاً عن كونه عضواً بقسم الفلسفة والذي درّس به لمدة 35 عاماً . وعلى الرغم من أنه أعطى بعض المحاضرات في علم النفس والأخلاق والمنطق وتاريخ الفلسفة ، فإن مجال عمله الأساسى كان علم النفس وفلسفة الدين ، ويعتبر كتابيه « علم نفس الخبرة الدينية The Psychology of Religious Experience و « الدين » Religion أكمل ما أنتج وقد نبعا من فكره وخبرته في مجال الدين .

وألقى على آمز مقررأ واحداً هو علم نفس الدين ، وعندما أنظر في ملاحظاتي فإنه يبدو لى أن آمز كان يعمل وفق أنموذج [معين] في كيفية تناول المشكلات في ذلك الوقت أخذه من برجماتيو شيكاغو واستخدم فيه

مصطلحات علم النفس الوظيفي .

وكان التركيز على الدين بإعتباره شكلاً من أشكال النشاط الإجتماعي ، وعلى الأفكار الدينية بإعتبارها الأدوات التي تتعامل مع الصعوبات التي يواجهها الناس في ذلك النشاط . وكانت دراسة النشاط الديني تتم بإعتبارها أساس النشاط الذي نصل عن طريقه إلى القيم العليا التي تتعلق بالحياة الإجتماعية لأن الصعوبات تواجه مثل هذا الكفاح من أجل القيم ، أما الشعائر الدينية فهي مجرد وسائل للتغلب على هذه الصعوبات والوصول بها إلى الأهداف المرجوة . فالشعيرة بهذه الطريقة هي نشاط عمل أساسي ، تسبق الأسباب التي تقررها وتبررها . وتعد الأسطورة والصلاة جزءاً أساسياً من الشعيرة . كما تم تفسير فكرة الله على أساس أن الكون تدعمه مثل هذه القيم ، منظوراً اليه من وجهة نظر الحياة الإجتماعية التي جعلته مثالياً Idealized ومشخصاً [مجسداً] Personified .

وحاول آمز عن طريق نشاطه في كنيسة جماعة حوارى المسيح في الجامعة أن يجند الدين لخدمة القيم الإجتماعية العليا للإنسان المعاصر ، وكان تأثيره عظيماً على مجتمع جامعة شيكاغو وبالتالي على جماعة حوارى المسيح كحركة دينية فعلية . أما الروح التي كانت تسرى في حياته فإنها تبدو ماثلة حية في سيرته الذاتية Autobiography التي أصدرها فان ميتر آمز Van Me-ter Ames ونشرت تحت عنوان « فيما وراء اللاهوت » Beyond Theology ولست أدري إن كان ديوى قد وضع أمامه شرح آمز عندما كتب كتابه عن الإيمان المشترك [العام / الشائع] A Common Faith ، ولكن الموقف الذي أخذه هو نفس الموقف الجوهري الذي فصله في كتابه منذ سنوات كثيرة مبكرة والذي تمثله خلال الأربعين سنة كقس Pastor لكنيستته .

د- جورج هربرت ميد

George Herbert Mead

قال ديوى عن ميد فى بحث أعده بمناسبة حفل تأبينه عام 1931 : " إن عقله كان أصيلاً عميقاً ^[1] وقد عرفت ذلك [من خلال اتصالاتى به وحكى عليه ، فهو أكثر العقول الفلسفية أصالة فى أمريكا فى الجيل الأخير ... وأكره أن أفكر كيف كان يمكن أن تكون أفكارى إذا لم أتمثل أفكاره التى اشتقتها منه " .

p.188 وقد درس ميد لفترة مع جيمس ، ولكنه لم يكن تلميذاً لديوى . وأنهى دراسته وتخرج فى برلين Berlin ثم عُين فى جامعة ميتشيجان . إذن فقد قابل ديوى ميد وبدأ معه صداقة إعتبرها ديوى « شيئاً كإحدى أغلى الأشياء التى أمتلكتها فى حياتى " * ، وأحضر ديوى ميد الى شيكاغو ، حيث ظل بها الثانى حتى وفاته عام 1931.

درس ميد فى جامعة شيكاغو مقررات فى علم النفس بالإضافة إلى الفلسفة ، وكان مقرره فى " علم النفس الإجتماعى " هو محور تدريسه . وكان للمجهود الذى بذله سنة بعد أخرى تأثيره القوى على علماء النفس والاجتماع فضلاً عن طلاب الفلسفة . وجمع من مذكراته التى أختزلها لمحاضراته (ومن ملاحظات طلبة آخرين) كتابه " العقل و النفس والمجتمع » وهو كتاب كلاسيكى تماماً . وكما يشير عنوان الكتاب فقد كانت طبيعتى العقل والنفس هى المشكلة الرئيسية لميد ، وأحال نشؤهما إلى العملية الإجتماعية . وهناك مقرر آخر أساسى هو « مشكلة الوعى » The Problem

(*) One of the most precious possessions of my life.

of Consciousness شاهد صدق على عمق إهتمامه بفلسفة العقل .

وكان ميد أكثر من مجرد عالم نفس إجتماعى . فقد أصبح مهتماً اهتماماً متزايداً بمكانة العقل الإنسانى فى الكون ، وقد حرك إهتمامه¹ بهذا الموضوع [اتصالى بدرجة عظيمة بالأعمال المبكرة لهوايتهد ، وكانت بداية إتصاله به عندما كنت طالباً ، وكانت بداية تلقائية ظهرت من خلال دراستى لعلمه : " النسبية من وجهة نظر برجماتى " Relativity from the standpoint of a Pragmatist . ولم يمتد العمر بميد حتى يتمكن من إتمام دراسته المفصلة عن الكوزمولوجيا تفصيلاً كاملاً وقد بدأ يتجه لدراستها ، غير أن محور عمله الذى كرس نفسه له ظهر فى كتاب وضعه لكي يكون لب محاضراته فى كاروس Carus Lectures هو " فلسفة الحاضر " The philosophy of the Present ، وفى كتابه الذى تركه مخطوطاً ومات بعنوان " فلسفة الفعل " The Philosophy of the Act p.189 . وعلى ضوء مشروع فكره ككل أعتقد أنه من الصحة أن نقول أن ميد كان آخر الكوزمولوجيين فى جماعة شيكاغو ، كما كان مور آخر المناطقة ، وكان توفتس آخر علماء الأخلاق ، وكان آمز آخر علماء الدين .

وكان ميد يفضل إلقاء المحاضرات عند حضور الحلقات الدراسية¹ سمينار [باعتبارها وسيلة من وسائل التعبير . ويذهب الواحد منا إلى محاضرات ميد ليستمتع إليه ، ويعيش خبرة عقل فلسفى رائع وهو يعمل ، وكان ميد يبدو كما لو كان يتحدث بصوت عالٍ إلى " شخص آخر غير محدد المعالم - The generalized Other أكثر مما كان يتحدث إلى طلابه المحتشدين ، وكانت محاضراته رائعة ، حتى أنه يمكن نشر أى من محاضراته التى كان يلقيها¹ دون إية إضافات [، ولقد استمعت إليه يلقي ثلاث محاضرات الواحدة تلو الأخرى فى ثلاثة موضوعات مختلفة ، وتعتبر كل محاضرة منها " جوهرة " ،

وقد فعل هذا دون [تدوين] ملاحظات من أى نوع ، فقد أعدت المحاضرات بعناية تبدو وكأنها تأتي عرضاً . وذات مرة بينما كان علي وشك إلقاء المحاضرة النهائية إبّان نهاية الفصل الدراسى وبداية الإختبارات (ولم يكن ميد يختبر طلابه) ، بدأ فى إلقاء المحاضرة ولكن فى موضوع آخر . فقاطعه أحد طلابه منبهاً إياه أنه خلط بين الموضوعات ، عندئذ وقف ميد قائلاً : " إذن فليس لدي شيئاً أقوله " وترك القاعة خارجاً .

وكأنه أفكار ميد تشبه المياه المتفرقة [الصافية] التى تنبثق من مصادر خفية حتى محاضراته القديمة التى كتبها فى شكل ملاحظات كانت تبدو غضة ومتلألئة . وذهبت إلى شيكاغو لأول مرة للعمل مع ميد ، وكانت المكافأة مجزية حقاً .

وأختم حديثى عن مدرسة شيكاغو البرجماتية بإضافة نقطتين :

النقطة الأولى : خاصة بالدور الهام الذى قام به أعضاء جماعة مدرسة شيكاغو ومدى تأثيرهم فى القوى الليبرالية والتقدمية لأمريكا فى عصرهم ، فقد انتشرت مشاركة ديوى الإجتماعية على اتساع الأمة ، انتشاراً قوياً خرافياً Fabulous . ، وتدخل كل من مور وتوفتس وآمز وميد بعمق فى معالجة مشكلات وشئون مجتمع شيكاغو ، وفى تحكيم إدارة العمل In man- agement labor arbitration ، وفى المدارس العامة ، وفى الموضوعات المتعلقة بالمدينة ، وفى تنظيم العمل ، لقد كانوا رجالاً مترابطين يتصفون بدرجة عالية من تكامل القوى النفسية [الأخلاقية] وكان توجههم الفلسفى ومشاركتهم الإجتماعية تبدو كنسيج واحد ، فقد كانت الفلسفة التى أنشأوها وعلموها هى نفسها حياتهم التى عايشوها .

النقطة الثانية : تتعلق بنهاية مدرسة شيكاغو ، وجاءت هذه النهاية بناء على قرار إختياري (إرادى) وعلى الرغم من ذلك فلم يتم هذا فى لحظة بعينها ، لقد ساد شعور عام بأن الجماعة قد أنهت عملها . وآن للقسم * من الآن فصاعداً أن يعلن عن وجهات نظر متباينة .

ولقد كنت محظوظاً أن أكون طالباً فى جامعة شيكاغو عندما كان بها مور وتوفتس وآمز وميد ، وكانوا جميعاً فى أوج قوتهم . وسرعان ما بدأت مكانة الجماعة تتضاءل . فقد مات مور أولاً ، ثم ميد ، ثم توفتس ثم آمز ، وأعلن ديوى عن فكرة رائعة هى أن شيكاغو قد عاشت مرحلة تطويرية أوركسترا ليه [جماعياً] an orchestral development وأن كتاباته الأخيرة تضمنت هذا التطوير كنهاية متكاملة .

*** تم بحمد الله ***

* يقصد قسم الفلسفة بجامعة شيكاغو [المترجم] .

محتويات الكتاب

الصفحة	الموضوع	الفصل
3	مقدمة :	الأول
14	الحاجة الى الفلسفة البرجماتية الامريكية	
15	1- الحاجة الى الفلسفة .	
17	2 - أربعة ملامح لاشكالية البرجمائيين .	
22	3 - البرجماتية ، والعملية ، والفعل .	الثاني
26	4- المعنى الذي تعد به البرجماتية فلسفة .	
28	نظرية العلامات البرجماتية	
29	1 - مشكلة تعريف البرجماتية .	
29	2 - نظرية العلامات عند بيرس .	
35	3- القضية البرجماتية عند بيرس .	
39	4 - بيرس : طبيعة المفسر	
42	5- تعقيد في آراء بيرس	
46	6 - وليم جيمس والقضية البرجماتية .	
52	7 - جورج ميد : في اللغة كسلوك اجتماعي .	
57	8- جون ديوى ولغة القيمة	
63	9- تعقيب على نظرية العلامات البرجماتية .	الثالث
67	الميثودولوجي (علم المنهج) البرجماتي	
68	1- توجه عام	
70	2- تصور بيرس للبحث .	
74	3- آراء ديوى في البحث .	

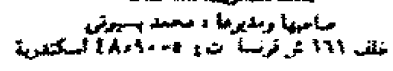
الصفحة	الموضوع	الفصل
77	4- المنطق والبحث .	الرابع
83	5 - جيمس والصدق .	
87	6 - بيرس وديوى والصدق .	
92	7- المظاهر العقلية والتجريبية للبحث عن بيرس	
96	8 - المظاهر العقلية والتجريبية للبحث عن ديوى	
100	9- بعض مظاهر تصور ميد للموضوع .	
104	10- تعقيب على علم المنهج البرجماتي .	
107	الاكسيولوجيا- (علم القيم) البرجماتية :	
107	1- مكانة ديوى الرئيسة في علم القيم البرجماتي	
109	2- موضوع البحث في علم القيم البرجماتي .	
112	3- اعتبار آخر لعلم القيم عند ديوى .	
115	4- علاقة القيم بالنظرية العامة للبحث .	
118	5- مشكلة نظم علم القيم .	
120	6- علم الاخلاق البرجماتي .	
	7- النظرية السياسية : الديمقراطية كتصور	
125	اخلاقي .	
128	8- علم الجمال والمظهر الجمالي للخبرة	
133	9- اندين والقيم الانسانية	
138	10- تعقيب على علم القيم البرجماتية .	
142	الكوزمولوجيا (علم الكون) البرجماتية :	الخامس
142	1 - الكوزمولوجيا أو الميتافيزيقا ؟	
145	2 - الخبرة كمحتوى .	
147	3- الخبرة كتفاعل .	

الصفحة	الموضوع	الفصل
150	4 - المقولات الثلاثة عند بيرس .	السادس
155	5 - الكوزمولوجيا عند بيرس : النزعة المثالية التطورية .	
160	6 - إنكار جيمس لوجود الشعور .	
163	7- ميد : اللغة ، والعقل ، والنفس .	
166	8- النسبية الموضوعية في علم الكون عند ميد .	
172	9 - تعقيب على الكوزمولوجيا البرجماتية «الميثافيزيقا» .	
177	البرجماتية في الوقت الحالي :	
177	1 - في وحدة الحركة البرجماتية .	
181	2 - البرجماتية في الولايات المتحدة في الوقت الحالي .	
185	3- البرجماتية والفلسفة الأوروبية المعاصرة .	
188	4- البرجماتية كتعبير عن الثقافة الأمريكية .	
192	ملاحق	
192	الجزء الاول :	
192	1- جون ديوى معلماً	
204	2- علاقة البرجماتية بالعلوم السلوكية .	
212	3 - مدرسة شيكاغو .	
217	الجزء الثاني :	
220	أ - أديسون ويسترمور	
222	ب - جيمس هايدن توفتس .	
225	ج - ادوارد سكريبنر آمز	
228	د - جورج هيرت ميد .	

· تنويه ·

معظم الأقواس التي في الكتاب من وضع المترجم فقد أضافها حتى يستقيم المعنى، أو يفسر جملة ، قد تكون غامضة على القارئ اذا وضعت دون هذا التفسير الموجود بين الأقواس لذلك لزم التنويه .
كما أود الإشارة الى أن الترقيم الموجود على يمين الصفحات هو أرقام الصفحات في الكتاب الاصلى .

المترجم .





To: www.al-mostafa.com